الدكتور بشار خليف

دراسات في حضارة الـمشرق العربي القديم

دراسات في حضارة
الـمشرق
العربي القديم

تـأليف: د. بشار خليف

الناشر:

الطبعة الأولى / 2004

الإخراج الفني:

تصميم الغلاف:

لـمراسلة الـمؤلف
دمشق . ص . ب: 12293
dr. KHLIF @ SCS-NET.ORG

الإهـــــداء

إلى روح الصديق منيف السعد

تقديم كتاب \ دراسات في حضارة المشرق العربي القديم \ للدكتور بشار خليف

كلٌّ الشكر للدكتور بشار خليف ,فمع أنَّ زميلنا (هو طبيب أسنان),فإنه يستحقّ جزيل شكرنا لعملهالموسوعي,"دراسات في حضارةالمشرق العربي القديم" الذي يتناول فيها مظاهر شتَّى لوطنناالعربي في العصور السالفة ،من النشوء و أصول الكتابة إلى بعض السمات الإنسانية و شعائر الموت و معتقداته . إلخ ..

كتاب رصين يسدّ فراغاً في المكتبة العربيةويقدّم للقارئ معلومات موضوعيّة/شيّقة ..تفتح له آفاقاً واسعة لإدراك تراثنا الثقافي ,وتجعل إنساننا أكثر قدرة على فهم حاضرنا وأكثر ثقة بمستقبل "الإنسان و العالم", فيزماننا هذا , زمان هذه ("العولمة" الظلامية/الظالمة")..

عودةٌ إلى الأصول. تساعدنا في التصدّي للبرابرة الجدد, الذين سرقوا الأرض .. بعد محاولتهم تشويه التاريخ و التراث,

والكتاب الذي بين أيدينا يساعدنا في ذلك .

د. محمد محفّل - جامعة دمشق

مقدمة المؤلف

يقول المؤرخ الروسي يروفييف:

يرتبط الماضي بالحاضر ارتباطاً وثيقاً، وفي المجتمع كما في الطبيعة، لاشيء يمضي دون أثر.

وقد ترك ناس الماضي طابع نشاطهم على كل ما كان يحيط بهم، فنحن نتحدث اللغة التي أنشأتها الأجيال الماضية... وتفكير الإنسان وفيزيولوجيته، هما نتيجة لتطور طويل. بل إن الواقع الراهن وأشكال العائلة والتواصل بين الناس، والمؤسسات الاجتماعية، تتألف كلها من عناصر موروثة من الماضي.

لذلك فان دراسة التاريخ تعني من حيث الجوهر، دراسة كيفية نشوء كل ما يحيط بنا، وهذا ليس هروباً من الحياة بل طريقة خاصة للنفوذ إليها.

فبما أن المستقبل هو نتيجة للماضي والحاضر، فان دراسة التاريخ هي محاولة لإزاحة الستار الذي يفصل بين الإنسان ومستقبله.

وعلى هذا يمكننا فهم الغاية التي نسعى إليها في دراساتنا التي شملها هذا الكتاب، وغايتنا أن نحاول قراءة تاريخ المشرق العربي القديم، استناداً إلى الوثائق الأثرية، وجملة المعطيات المعمارية والفنية والذهنية والاعتقادية وتطورها على مدى العصور. لاسيما وأن ثمة كماً هائلاً من المعطيات، والتي تتراكم عقداً بعد عقد، مما يحتم إعادة قراءة تاريخ هذه المنطقة ومنجزها الحضاري وفق الكشوف الجديدة.

وقد سعينا لغاية هذا كله، أن نسير على منهج اعتمد ركائز عدة:

أولها: أن الأبحاث والدراسات التاريخية الرصينة والعلمية، والمستندة إلى حقائق أثرية، من وثائق وعمائر وفنون واعتقادات وإلى ما هنالك،

أكدت على وجود وحدة حضارية متجانسة، في المشرق العربي القديم، مؤسسة على أبعاد، جغرافية، اجتماعية، اقتصادية، روحية، واحدة، أدت إلى وحدة في المصالح والحياة بين جناحي المشرق، الرافدي والشامي.

ولعل الحقيقة المرّة والتي تنبغي الإشارة إليها، هو أن الجغرافيا التاريخية عرّت، وإلى حد بعيد، الجغرافيا السياسية، التي ولدت من أحضان معاهدة /مؤامرة، سايكس بيكو/.

ولو تتبعنا بشيء من المرح، ـــ ما أصاب حركة التاريخ في المشرق العربي القديم، من هذه المعاهدة، لتوضح لنا إطار كوميدي عام:

فهذه المعاهدة جعلت الملك الآشوري، شمشي أدد، لا يصل إلى عاصمته الثانية بعد آشور، عنيت موقع، شوباط انليل ومدينته شيخنا الواقعة في شمال شرق سورية.

وهذه المعاهدة، أفقدت مدينة ماري، في الفرات الأوسط، دورها التفاعلي / الحضاري بين جناحي المشرق العربي.

وهذه المعاهدة أيضاً، أفقدت أوغاريت كتابتها المسمارية الاكادية، بما سيؤدي إلى عدم ابتكار الأبجدية.

وأن ايبلا لم تساهم في تطوير الكتابة المسمارية، ولم تتبادل الأساتذة والخبراء مع مدينة كيش الرافدية.

وكذلك ماري، التي /وفق المعاهدة/ لم ترسل جيشها لمساعدة بابل / حمورابي.

أما تدمر، فقد فقدت اتصالها بمينائها الهام على الخليج العربي، عنيت، ميناء ميسان.

والحقيقة، أن الأمثلة كثيرة بما يفوق التصور، حول مدى إساءة الجغرافية السياسية لدراسة تاريخ هذه المنطقة.

ولم يكتف الغرب بهذه المعاهدة، لتمكين هذه القطيعة. بل أن البعثات الأثرية الغربية /وربما من غير قصد، حتماً/ درست آثار هذه المنطقة بشكل

مجتزأ، حسب تخصصها، ما أدى /تالياً/ إلى تجزئة قراءة تاريخ هذه المنطقة. وهذا ما يتبدى واضحاً في مسألة التحقيب، حيث لكل منهجه والذي يتعارض مع المدارس الأخرى.

فصار لزاماً على أي باحث، أن يجمع كل ما تم إنجازه، ومن ثم إعادة قراءة المعطى وفق رؤية شمولية. وبذا يمكن تحقيق الغاية المرجوة من أي عمل بحثي موضوعي وعلمي.

وعلى نفس المقياس، من النهج التجزيئي الذي أفرزته تداعيات /سايكس ــ بيكو/، تنبغي الإشارة هنا إلى البنية الديموغرافية للمشرق العربي القديم، قرأت بشكل مغاير للواقع الاجتماعي ــ التاريخي. ولاسيما من قبل الاستشراق الغربي.

ولعل المعطيات التاريخية تقدم قراءة واضحة لبنية المشرق العربي القديم، عبر وجود كتلتين أساسيتين، هما، السومريون، والأكاديون ــ العموريون. ولعل التفاعل الحياتي والحضاري بينهم، أكدته المعطيات الأثرية، وبذا فلم يعد النظر إلى الكنعانيين أو الآشوريين أو البابليين أو الآراميين، إلا أنهم تسميات مختلفة من أرومة ديمغرافية واحدة، أساسها التفاعل الاجتماعي ــ التاريخي، وربما من منشئهم في منطقة واحدة.

ويؤكد هذا الأمر، هو النسق اللغوي للغة المشرق العربي القديم والتي جاءت اللغة العربية وجبتّه.

ثانيها: ثمة مسألة مهمة، تتعلق بعلاقة الايدولوجيا بالتاريخ. وأعتقد أن الباحثين العرب بالغوا كثيراً في قراءة تاريخنا، وفق منظور إيديولوجي مسبق، ما أدى في كثير من الأحيان إلى ليّ الحقائق التاريخية لإدخالها قسراً، ضمن الحيّز الإيديولوجي. رغم أن معظم الحقائق هذه لا تحتاج إلى معالجة كسرية كي تكون المعبّر عن الهوية الحضارية للمشرق العربي وعروبته.

فمثلاً، الأدبيات التاريخية تتحدث عن صارغون الأكادي، على أنه بطل قومي لأنه استطاع توحيد المشرق العربي، في النصف الثاني من

الألف الثالث قبل الميلاد. لكن قراءة هذا الأمر قراءة متجردة، تدل على أن امتداد إمبراطورية صارغون لتشمل بلاد الشام تقريباً والرافدين، لم تكن لوجود بعد قومي، بقدر ما كانت مصالح أكاد آنذاك تستوجب الامتداد والسيطرة على الطرق الاستراتيجية للعالم آنذاك. فالوعي القومي لم يكن آنذاك /وهو وليد العصور الحديثة/، وكان السائد في تلك الفترة الوعي المديني.

أيضاً، تتأكد مقولتنا هذه في أن نارام سن، حفيد صارغون الأكادي أباد مدينة ايبلا، وكذلك ما فعله حمورابي من تدمير مدينة ماري على الفرات الأوسط.

فإذن، إن الوعي المديني /القبلي في بعض أوجهه/ هو الذي كان سيد ذاك الوقت، لهذا تنبغي قراءة حركة التاريخ/ برأينا/، ضمن ذهنيتها التاريخية وليس وفق إسقاطات إيديولوجية حديثة.

ثالثها: إن دراساتنا هذه، والتي شملت بعض الأوجه الحضارية للمشرق العربي، لا تعني أن ثمة انسيابية جغرافية وتاريخية وبيئية واحدة، تنسحب على كامل هذه المنطقة.

ولعل التمايزات الجغرافية والبيئية، بين مناطق الجبال والساحل والداخل والبادية، تحتم وجود بعض التمايزات بين هذه المناطق في بعض معاييرها ورموزها، ولكن كل هذا التمايز الصغير كان ينتظم بإطار شامل من الخصائص والقيم والذهنية، وما كان انتظامه إلا نتيجة للتفاعل الحياتي الواحد، ولوحدة المصالح والنظرة إلى الحياة، والتفاعل مع البيئة، بما أدى إلى نشوء الشخصية المشرقية العربية.

رابعها: ثمة ظاهرة واضحة، لدى بعض الباحثين العرب والسوريين، مفادها أن بلاد الشام /قبل اكتشاف ايبلا/ لم تكن ذات شأن تاريخي وحضاري. ولاسيما في الألف الثالث قبل الميلاد. وكان ينظر إلى تلك الحقبة، على أن ثمة كتلتين حضاريتين، هما مصر والرافدين، أما بلاد الشام فهي منطقة عبور حضاري، ومنطقة انفعال لا فعل بين قوتي مصر

والرافدين.

لكن الحقائق الأثرية تثبت أن المشرق العربي /الرافدين والشام/، كان يسير ضمن خط تطوري، تاريخي واحد ومتفاعل في أن. فصارغون الأكادي هو أموري /وأساس العموريين من بلاد الشام/، وكذلك حمورابي وشمشي أدد ونارام سن، وكل هؤلاء كانوا حكاماً على مدن رافدية.

ولعل هذا التداخل والتفاعل يلغي تلك النظرة التقليدية لإيجاد قطيعة تاريخية ــ اجتماعية بين جناحي المشرق العربي.

أيضاً، ثمة نقطة تخص هذه الدراسات، فصحيح أنها تعنى بالمشرق العربي، ولكن هذا لا يعني بحال من الأحوال، أن ثمة تميزاً وافتراقاً بينه وبين حضارات العالم العربي. ولكن قناعتنا أن تاريخ المشرق العربي /إلى الآن/ لم يأخذ حقه، خصوصاً وأن الكشوفات الأثرية الأخيرة، قدمت الكثير ليضاف إلى الخط الحضاري العام للمشرق.

كما أن المدلولات الأثرية والتاريخية، تقدم أدلة وافية على التفاعل الحضاري والتاريخي مع حضارات العالم العربي، فالتنقيبات الجارية في إيبلا أبانت عن وجود علاقات بين إيبلا ومصر. وكذلك بين أوغاريت ومصر وجبيل ومصر. بالإضافة إلى الدور الذي لعبه الكنعانيون على الساحل السوري في تأسيس حضارة قرطاج. وكذلك في العلاقات الحضارية التاريخية بين المشرق والخليج العربي والجزيرة العربية.

وبذا نستطيع القول، أنه لا يمكن البحث في تاريخ المشرق العربي القديم كوحدة مستقلة، بل ومن أجل الاحاطة الكاملة به، تنبغي قراءة تاريخ حضارات العالم العربي ذات الصلة به. بالإضافة إلى تاريخ الأناضول وإيران والحضارات المتوسطية الغربية.

خامسها: أن معظم ما ورد، في الدراسات لجهة تحديد ظهور منجز ما، لا يأخذ صفة إطلاقية، فالعمل الأثري مستمر والكشوف مستمرة، وربما تقدم التنقيبات معلومات جديدة، قد تلغي أفكاراً سابقة. مثل أول نشوء للمدن، أو أول استنبات للنبات.. الخ.

سادسها: كي تؤدي الدراسات غايتها المعرفية، فقد عمدنا قدر الإمكان إلى تجاوز الاصطلاحات التاريخية والأثرية، مع احتفاظنا بالنسق التاريخي. وذلك لعدم الدخول في مجالات صعبة ومعقدة على القارئ العادي. ولجعل الاستفادة في حدودها القصوى دون معيقات اصطلاحية.

سابعها: لابد أن نذكر باهتمام مؤلف الدكتور علي أبو عساف «آثار الممالك القديمة في سورية»، حيث يبدو أنه من الكتب القليلة التي اعتمد المؤلف فيها، على منهج علمي، موضوعي وشامل لتاريخ وأثار المشرق العربي القديم كوحدة حضارية واحدة.

وكذلك مؤلفي الدكتور سلطان محيسن «الصيادون الأوائل» و«المزارعون الأوائل»، لفترة ما قبل التاريخ. حيث أننا استندنا إلى ما ورد في هذين الكتابين، من نتائج الكشوف والتنقيبات الأثرية لعصور ما قبل التاريخ في المشرق العربي. بالإضافة إلى التقارير الجديدة، ومؤلفات العالم الفرنسي جاك كوفان، الفرنسية منها والمعربة.

وأخيراً، لابد من شكر لمن قدم العون في نشر هذه الدراسات، مبتدئاً بالصديق الفنان علي فرزات، والدكتور خلف الجراد رئيس التحرير والمدير العام لمؤسسة تشرين والأستاذ عبد الإله الرحيل. وذلك لأن نشر هذه الدراسات في ملحق صحيفة تشرين /مدارات/، وجعلها لدى القراء قبل جمعها في كتاب، مكنني من ملاحظة مبلغ الاهتمام والحوارات والنقاشات مع الباحثين والمهتمين، والتي أخصبت فكرة جمعها بين دفتي هذا الكتاب.

✍ د. بشار خليف

الــدراســة الأولــى

مقدمة فـي نـشـوء حضـارة المـشـرق الـعـربـي

إذا كـــان الوجود البشري في سورية يعود بحسب التنقيبات الأثرية إلى مليون سنة خلت، فإن الحضارة السورية تعود في بداءتها إلى هذا التاريخ تماماً.

فعلى قاعدة أن الأداة الأولى التي صنعها الإنسان القديم تعبرّ عن بدء الحضارة الإنسانية، فإن هذا ينسحب على الإنسان القديم الذي جاء إلى سورية من أفريقيا، حاملاً حضارته وثقافته، التي تنتمي إلى الإنسان الصانع أولاً. ثم اعتباراً من 1.5 مليون سنة سوف تنتمي إلى حضارة وثقافة الإنسان المنتصب، الذي خلف الإنسان الصانع وجاء إلى بلاد الشام من أفريقيا، ليبدأ بتأسيس ثقافته وحضارته التي سوف تنطلق من مليون سنة[1]، وتتواصل تباعاً حتى العصر الحالي. وما نعنيه هنا في مجال الثقافة سوف يتبع المساق الأنثروبولوجي لأن الإنسان الأول في سورية لم يترك سوى أدواته وآثاره العمرانية وما إلى هنالك في غياب لغة مدونة أو وثيقة مكتوبة.

ولسوف ننتظر متابعة مسيرة الإنسان في سورية على مدى مليون عام إلا ثلاثة آلاف سنة حتى نصل إلى بدايات عصر الكتابة. مما يعطي انطباعاً على أن الكتابة واختراعها جاءت بزمن حديث نسبياً حسب تأريخ وجود الإنسان في المشرق العربي.

وعلى هذا سوف نتابع خط التطور الثقافي /بالمعنى الأنثروبولوجي/، عند الإنسان السوري القديم وفق مناحي حياته كافة، تبدأ من نمط الحياة والعيش، مروراً باختراعاته البدئية،[2] من أدوات وأبنية وصولاً إلى طقوسه وشعائره ونمط حياته وتفكيره، في نظره إلى الحياة وتفاعله مع البيئة الطبيعية ومجاله الحيوي الطبيعي.

ووفق هذا المنحى لابد أن نجري مقاربة، بين تطور بنيته الدماغية وتطور سلوكه تبعاً لذلك. فبالإضافة إلى وعي مسألة عامل البيئة والمجال الحيوي الطبيعي، الذي قدم للمجتمعات الأولى الامكانات والمحرضات، التي ساهمت في تطور البنية الدماغية لديه، ما انعكس بالتالي على تفاعله الايجابي مع البيئة، فاستطاع الإنسان آنذاك استغلال الطبيعة لصالح تطوير حياته وأنظمته الاقتصادية ــ الاجتماعية، وأدى هذا إلى تطور في حياته الروحية والذهنية.[3]

لهذا سوف نجد أنفسنا محكومين بأن نناقش تطور الثقافة في سورية منذ البدء وفق أنساق ثلاثة:

- نسق الجسم. في بعده الحركي ــ النفسي.
- نسق الدماغ ــ العقل. التطور والاستجابة.
- نسق البيئة والمحيط الحيوي. المحرض والامكانات.

ولعل التفاعل بين هذه الأنساق الثلاثة هو الذي أدى في النهاية، إلى تبلور الشخصية المشرقية العربية ضمن المنظور الاجتماعي التاريخي. زاد عليه أيضاً، نسق التفاعل مع البيئات الاجتماعية الأخرى، والذي أخصب تلك الشخصية المشرقية، بما أدى إلى النظر نحو منطقة المشرق العربي على أنها منطقة الثورات الحضارية الإنسانية الكبرى.

عنيت بهذا ثورة الزراعة وتدجين الحيوان ــ التجارة ــ ثورة إنشاء المدن الأولى ــ ثورة اختراع الكتابة، والثورة الروحية التي تجلت في نشوء المعتقدات الأولى، والتي جاءت كأرضية لما سيأتي بعدها من أفكار وفلسفات ورسالات.

نشوء الثقافة والحضارة في سورية:

لنعطي تحديداً وتعريفاً للثقافة / الحضارة، فهي مجمل المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والأعراف والقوانين، وكل مهارة أو عادة اكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع ما، نتيجة تفاعله مع البيئة الطبيعية ومجاله الحيوي الطبيعي.

وإذا شئنا تحديد تعريف للثقافة المجتمعية لقلنا: أنها تفاعل مجتمع ما مع بيئته الطبيعية ومجاله الحيوي الطبيعي، بما يؤدي إلى نشوء خصوصية ثقافية ــ حضارية لهذا المجتمع، تميزه عن ثقافات المجتمعات الأخرى. ومن هنا تنبع نسبية القيم والمعايير والرموز بين المجتمعات الإنسانية.

وطالما أننا حددنا ظهور الإنسان في سورية نحو مليون سنة فإننا سننطلق اعتباراً من هذا التاريخ في رصد لتطورات الحضارة المشرقية العربية.

فمن موقع ست مرخو في اللاذقية، جاء أول كشف عن وجود إنساني في سورية حيث عثر على أدوات ذلك الإنسان الحجرية، التي صنعها واستخدمها في تفاعله مع البيئة وصراعه معها، حيث تم العثور على فؤوس ومعاول وقواطع وسواطير وشظايا ونوى، كما قدم موقع خطاب في حوض العاصي معطيات أثرية كانت عبارة عن أدوت حجرية صغيرة، ثم وفي فلسطين سوف يظهر موقع العبيدية، أدواتاً أكثر تطوراً وتقنية من أدوات ست مرخو، ذلك أن هذا الموقع /العبيدية/ يعود إلى حوالي 700.000 سنة.

وإذا كان موقع ست مرخو قد قدم الدليل الأول على وجود أول إنسان في بلاد الشام والمشرق العربي القديم، فإن موقع العبيدية قدم آثاراً إنسانية للإنسان المنتصب كانت عبارة عن أجزاء من جمجمة وأسنان.[(4)]

وعليه فلابد أن نتتبع الخطوط الأساسية لعوامل نشوء الحضارة في المشرق العربي القديم، عنيت بذلك الدماغ بوصفه المحرك الأول للنشاط الحسي ــ الحركي عند الإنسان، والبيئة والوسط الطبيعي المحيط، بما تقدمه للإنسان من إمكانات ومحرضات.

البنية الدماغية والنشاط العقلي عند الإنسان المنتصب في سورية:

حين جاء الإنسان المنتصب إلى سورية، كان يمتلك بواكير حضارية تجلت في مقدرته على صنع الأدوات الحجرية، بالإضافة إلى امتلاكه للغة ابتدائية. ويعتقد أن عوامل بيئية قد دفعته للمجيء إلى بلاد الشام قادماً من أفريقيا في حدود المليون سنة. /ولعلنا أيضاً أمام ميل للاعتقاد بوجود فضول لديه دفعه للانتقال للبحث عن شروط مناخية ــ بيئية أكثر دفعاً للتحضر والتطور/.

والمعلوم أن الإنسان المنتصب تحدّر عن سلفه الإنسان الصانع، هذا الإنسان الذي بلغ حجم دماغه 500 ــ 800 سم^3 ويعتبره علماء الحياة أول إنسان حقيقي صنع أدواته، ولم يعثر إلى الآن على دلائل أثرية توحي بوجوده في بلاد الشام، غير أن خلفه الإنسان المنتصب جاء إلى بلاد الشام، وكان أكثر تطوراً في بنيته الدماغية عن سلفه. فقد بلغ حجم دماغه 750 ــ 1250 سم^3 ويعتقد الدكتور كارل ساغان أن حجم جمجمة هذا الإنسان توافق حجم جمجمة الإنسان الحديث[(5)]. وهذا سوف يؤدي إلى تطور في مناحي حياته المختلفة تبعاً لتطور البنية الدماغية، وتبعاً لمحرضات البيئة واستجابة الدماغ لها، ما يشكل دفعاً للتطور الحضاري للإنسان. وعلى هذا يقول ساغان:

«إن تطور الثقافة الإنسانية وتطور تلك السمات الفيزيولوجية التي نعتبرها خاصة بالإنسان، سارا غالباً جنباً إلى جنب، فكلما تطورت استعداداتنا للسير السريع والاتصال والبراعة في استخدام الأيدي، كلما ازداد احتمال تطوير الأدوات الفعالة واستراتيجيات الصيد وازداد احتمال استمرارية المواهب الموروثة».[(6)]

ولعل الإضاءة على عالم الدماغ والبنية الدماغية سوف توضح انعكاس تطوره على مجريات الثقافة الإنسانية في سورية.

في الدماغ والبنية الدماغية:

يتميز الدماغ عبر ثلاثة مراكز هي:

المخيخ: الذي يشكل مركز تنسيق الحركات وتوافقها، ويعتبر الناظم الأساسي للحركات الإرادية.

جذع المخ: وهو مركز الوظائف اللاإرادية الضرورية للحياة، كالتنفس وضربات القلب والدورة الدموية وضغط الدم. ويملك هذا الجذع اتصالاً بالجهاز الطرفي (الحوفي) للدماغ الذي يختص بالانفعالات وإثارة الانتباه. وهذا الجهاز ساهم في تطور الثقافة البشرية.

المخ الجديد: ويشمل نصفي كرة المخ اللذين يتكونان من مادة رمادية قريبة من السطح تعرف بالقشرة الدماغية، التي تستقر فيها الخلايا العصبية المتحكمة بالملكات العقلية العليا كالذكاء. ويعزى إلى نموها في الإنسان تميّزه عن ما دونه من الكائنات، فضلاً على اعتبار الحضارة الإنسانية نتاج مباشر لعمل القشرة الدماغية.

نصف المخ الأيمن: يعنى بوظائف الانفعال والحدس والإبداع واستخدام الخيال، لهذا يطلق عليه اسم (النصف الحدسي). ويعتبر هذا النصف نصفاً صامتاً في أغلب الأوقات، وزيادة فاعليته تؤدي إلى نشاط وفاعلية ذات منحى فني وحس إبـــداعي.

نصف المخ الأيسر: وهو النصف التحليلي والعقلي بامتياز حيث يتولى إدارة وتحريك الأعضاء اليمنى في الجسم، ويضبط مركز الكلام وبعض جوانب التفكير النقدي التحليلي. ويعتبر هذا النصف أكثر نشاطاً من النصف الأيمن لدى معظم البشر.

وتتحدث الدراسات البيولوجية عن أن وظيفة المخ المثلى، تتحقق حين يكون أحد نصفيه نشيطاً والآخر صامتاً أو متوقفاً بشكل مؤقت عن العمل. بالإضافة إلى أن أغلب النشاطات الخلاقة المهمة للحضارة الإنسانية، سواء في الأنظمة القانونية والأخلاقية وفي الفن والموسيقا والعلم والتكنولوجيا، لم يتم تحقيقها إلا بالعمل المشترك والمتناسق والمتعاون لنصفي كرة المخ.

القشرة الدماغية:

تشكل حوالي 85 %من الدماغ عند الإنسان، وتتمحور وظيفتها

الأساسية في الإدراك، وتشمل نصفي كرة المخ، تتوضع فيها معظم الوظائف المعرفية الخاصة بالإنسان. وتتألف هذه القشرة من أربعة فصوص:

الفص الجبهي: الذي يملك وظيفة التفكير بالعمل وتنظيمه ويساهم في التوقع الحركي ــ الحسي معاً. ويؤثر في العلاقة بين الرؤية ووضعية وقوف الإنسان على قدميه. وفي الجزء الأيسر منه تتوضع منطقة /بروكا/ المسؤولة عن توليد واستخدام اللغة.

الفص الجداري: له علاقة بالإدراك المكاني وتبادل المعلومات بين الدماغ وبقية الجسم. ويبدو أنه أسهم في كل ما يتعلق باللغة الرمزية البشرية.

الفص الصدغي: له علاقة بمختلف مهام الإدراك المعقدة.

الفص القذالي: له علاقة بالرؤية التي تشكل الحاسة المسيطرة عند البشر.

والجدير ذكره هنا، أن القراءة والكتابة والرياضيات تقتضي نشاطات متناسقة لكل من الفص الجبهي والصدغي والجداري وربما القذالي، وهذا لم يتحقق في المشرق القديم إلا في حوالي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وبداية الألف الثالث ق. م. بمعنى أن هذه النشاطات المتناسقة أخذت وقتاً طويلاً حتى أدت غايتها في إبداع الكتابة والرياضيات.

أما بالنسبة للقسم الطرفي أو الحوفي من الدماغ فله تأثير على عواطف الفرح والتدين والغيرية. وعلى العواطف الإنسانية بشكل عام.[7]

بناءً على كل هذا يمكننا تتبع تطور الثقافة الإنسانية في سورية، وفق معيار التطور المتبدي في بنية الدماغ، والذي حصل تبعاً لاشراطات ذاتية في المنظومة الدماغية، وتبعاً لقواعد المحرض والاستجابة، المحرض البيئي والمحيطي والاستجابة الدماغية ــ الفيزيولوجية له، ما سوف يؤدي إلى تطور مناحي الحياة والثقافة الإنسانية مع التذكير بأن المنعطف الكبير في تطور الدماغ موجود في القشرة الدماغية = الإدراك.

ويشير ساغان إلى أن كلا أسلوبي حياة الصيد والالتقاط، التي مارسها الإنسان، قبل اختراع الزراعة والحضارة التكنولوجية، هما من نتاج القشرة الدماغية.[8]

وعلى ذلك، فصفاتنا الحالية كبشر، تجمع صفات عديدة من كل العصور. وان تزايد حجم الدماغ، وتعقد النظام العصبي المركزي، وتطور الرؤية المجسمة، تعود في أصلها إلى ملايين السنين في تطور الرئيسيات التي نحن جزء منها. [9]

ويطابق كارل غوستاف يونغ، في رأيه، ما توصل ساغان إليه، ويشير إلى الرابط النفسي العميق، بين الإنسان القديم والإنسان الحديث بقوله: كل إنسان متمدن، مهما بلغت درجة وعي نموه، لم يزل إنساناً قديماً في الطبقات السفلى من كيانه النفسي، وكما أن الجسم البشري يوصلنا بالثدييات، وكشف لنا عن بقايا كثيرة من مراحل تطور أولية ترجع إلى عصر الزواحف، فكذلك النفس البشرية نتاج تطور إن تتبعنا أصوله، تكشّف لنا عن عدد لا حصر له من السمات القديمة. [10]

وطالما تحدثنا عن البنية الدماغية، فلا بد أن نعرج على العلاقة التبادلية والتفاعلية، بين البيئة والدماغ بمعنى العلاقة بين المحرض والاستجابة، والتي دفعت الحياة الإنسانية إلى أفاق تطورية مهمة، إن في بنية الدماغ، وتطورها وتعقدها، أو لجهة تطور الحياة الثقافية للإنسان بما تشمله من أبعاد اقتصادية ــ اجتماعية ــ روحية. أدت إلى منعطفات كبرى في مساق الحضارة الإنسانية.

البيئة والدماغ، علاقة تبادلية = تــفاعلية:

أثبتت التجارب العلمية أنه بقدر ما تقدم البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي من غنى وتنوع، يقدر ما يؤدي هذا إلى استجابة دماغية تتبدى في زيادة وزن الدماغ وثخانة القشرة الدماغية، بما يؤدي لاحقاً إلى استثمار هذا التطور في استغلال موارد البيئة واستيعاب حركتها، والسيطرة

على عمائها، فقد أجرى الباحث الأميركي مارك روزنويغ من جامعة كاليفورنيا، تجارب على فئران المختبر، وكانت غايته تحديد دور البيئة في تطور البنية الدماغية، فجاء بفريقين من الفئران، الأول، تم وضعه في بيئة نشيطة وحيوية وغنية، بينما وضع الفريق الثاني في بيئة محدودة الموارد وفقيرة ورتيبة، مملة.

وتوصل في النتيجة، إلى أن الفريق الأول أبان عن زيادة مذهلة في وزن وثخانة القشرة الدماغية بالإضافة إلى تغيرات في كيمياء الدماغ، وبالتالي في حيوية العمليات الدماغية، دل على ذلك تطور اتصالات عصبية جديدة في القشرة الدماغية. (11)

ويشير أيان ايلينيك في كتابه «الفن عند الإنسان البدائي»، إلى أن التطور الثقافي والبيولوجي مرتبطان ببعضهما البعض، وبشكل وثيق، ولا يمكن النظر إليهما بشكل معزول كل عن الآخر.

فمنذ ظهورها كانت الثقافة واحدة من أهم عوامل التطور البيولوجي، مبدية تأثيراً قوياً عليه، وبنفس الوقت استوعبت تأثيره عليها. (12)

وعلى هذا يمكننا الآن أن نقارب تجربة الإنسان المنتصب في سورية، منذ وجوده على أرض سورية، لجهة إنشاء ثقافته وحضارته والتي سوف تؤدي لاحقاً وبنهج تراكمي ونوعي، إلى حدوث منعطفات حضارية كبرى، سوف تشمل الحضارة البشرية كلها.

ثقافة الإنسان المنتصب في سورية: 1000000 – 100000 سنة:

قلنا إن الإنسان المنتصب حين جاء إلى سورية / بلاد الشام، كان قد حقق تطوراً في بنيته الدماغية حيث استطاع صنع أدواته بتقنية أكثر تطوراً عن سلفه الإنسان الصانع في أفريقيا. ولكن الآن وتبعاً لتفاعله مع البيئة في بلاد الشام، فلا بد أن تتطور لديه ملكات وتقنيات جديدة سوف نحددها، والتي تدل على أن ثمة تطوراً يحدث في قشرته الدماغية ونصف المخ

الأيسر على وجه التحديد.

فمن ناحية اللغة، يبدو أن مجتمعات الإنسان المنتصب كانت تستخدم لغة في حدود متناسبة مع تطور منطقة بروكا في الفص الجبهي، المسؤولة عن توليد واستخدام النطق، وتطور منطقة ويرنيك التي تعنى بفهم اللغة المنطوقة.

يقول د. سلطان محيسن:

«إن لغة الإنسان المنتصب ليست معروفة ولكننا نخمن وجود تقارب شديد بين لغات أو لهجات سكان بلاد الشام آنذاك لأنهم لم يكونوا معزولين عن بعضهم البعض بشكل كامل وإنما قامت بينهم صلات وعلاقات حضارية متنوعة». (13)

ومن ناحية تطور أساليب عيشه، فالأكيد أن تقنيات الصيد لديه تطورت عما كانت عند سلفه الصانع. وذلك نتيجة تطور تقنيات صنع الأدوات الحجرية شكلاً وجدوى، بما يلائم عالم الصيد والتقاط ا لبذور، وقد استطاع هذا الإنسان أن يستخدم النار ويطورها لجهة الاستخدام /وهذا اقترن بما قدمته البيئة من محرض، عبر الحرائق (كالصواعق مثلاً)، ومن ثم وبعد وعيه لوجود النار، وعبر إيجادها بواسطة الاحتكاك بين قطعتي صوان، وهذا لم يكن ليتحقق إلا عبر الفص الصدغي، الذي يعنى بمهام الإدراك المعقدة /. وتبين الدلائل الأثرية أنه بنى أكواخاً بسيطة للسكن.

ولا بأس من استعراض لأهم مواقع مجتمعات الإنسان المنتصب في سورية /بلاد الشام/:

موقع ست مرخو، الذي يقع في حوض نهر الكبير الشمالي. حيث قدم هذا الموقع أقدم دليل على وجود إنساني في بلاد الشام يرقى إلى مليون سنة. وكان الدليل عبر الأدوات التي خلفها هذا الإنسان حيث عثر على فؤوس ومعاول وسواطير وشظايا ونوى وقواطع، استخدمها وصنعها هذا الإنسان لغاية حياة الصيد والتقاط بذور النبات.

موقع العبيدية: في فلسطين ويؤرخ بحدود 700.000 سنة حيث

عثر على أدوات حجرية كانت أكثر تطوراً وتقنية من أدوات ست مرخو تبعاً للزمن.

موقع اللطامنة: يؤرخ بحدود نصف مليون سنة، وقد كشف هذا الموقع عن تطورات هامة في طرق تصنيع الأدوات الحجرية. فقد ظهرت طرق جديدة في صنع الحجر وتنوع شكل الفؤوس وأصبحت أكثر تطوراً.

وقد قدم هذا الموقع أول دليل عمراني يعثر عليه خارج أفريقيا، حيث عثر على معسكر سكني كشف عنه سليماً رغم مرور نصف مليون سنة عليه.

وقد أبان هذا المعسكر وجود أرضيات سكن أصيلة، وحوى على أدوات حجرية بالآلاف كالفؤوس اليدوية والمعاول والمقاصف والسواطير. وقد قدم هذا الموقع أولى الدلائل على استخدام النار (اختراعها).

الجدير ذكره هنا هو أن الأكواخ كانت مصنوعة من جلود الحيوانات والأغصان والأعشاب، وقد سندت بالحجارة.

اصطادت مجتمعات الإنسان المنتصب في بلاد الشام، الفيلة والأحصنة والغزلان والوعول وفرس النهر والتقطت ثمار الزعرور والبطم واللوز وغيرها.[(14)]

إن استعراض فاعليات هذه المجتمعات للإنسان المنتصب في بلاد الشام تعطينا حقائق عدة أهمها:

حصول تطور مطرد في البنية الدماغية /القشرة الدماغية، وتطور الاتصالات العصبية/ ساهم في تطور تقنيات الصيد والالتقاط، ما انعكس على حياة هذه المجتمعات لجهة استثمار أوضح للبيئة وتحسين ظروف الحياة والعيش.

مع مرور الزمن وبين موقع متأخر وآخر متقدم، نلاحظ زيادة في عدد سكان الموقع الأحدث. ما يشي بعوامل استقرار نسبي أحست به تلك المجتمعات.

التآلف الأكثر تبعاً للزمن مع الطبيعة. دل على ذلك إنشاء معسكرات سكنية في مواسم الصيد والالتقاط، ما يدل على عدم اتكالهم الكلي على الكهوف والمغاور، وتصالحهم النسبي مع البيئة لجهة الأمان وإنشائهم للأكواخ البسيطة.

شكّل اختراع النار ومن ثم استخدامها، نقطة انعطاف حضارية، ساهمت في تطور النظام الغذائي وتنوعه، وكذلك في الإسهام بالإحساس بالأمان عبر طرد الحيوانات المفترسة بالنار المشتعلة.

ونتيجة لكل هذا، سوف نلاحظ انه وباطراد مع الزمن، ستحقق هذه المجتمعات «المنتصبة» منجزات تفيدها في طرق عيشها وفي استثمار أوسع وأكثر تنوعاً للطبيعة. ومن ثم سوف يؤدي كل هذا إلى إحساس بأمان واستقرار نسبي، سنلحظه أكثر في الفترة الممتدة بين 250.000 ـ 100.000 سنة لمجتمعات الإنسان المنتصب في بلاد الشام. فنتيجة لكل ما سبق ازداد عدد سكان بلاد الشام، لا بل وبدأوا بسبر أغوار المحيط فانتشروا إلى مناطق البادية والفرات، والى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين /وهذا يعني أن ثمة تطور حصل في الفص الجداري الذي يعنى بالإدراك المكاني/.

ونتيجة للتنوع والغنى البيئي كعامل تحريضي فإن ذلك أدى إلى تطورات في القشرة الدماغية، وسوف نلاحظ في مواقع هذه الفترة، تطور تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية، وظهور أنواع جديدة أكثر استجابة لدواعي الصيد والالتقاط، وأكثر جدوى، حيث نلاحظ نشوء تصنيع الفؤوس بالطرق. واستطاع الإنسان استخدام المطارق الخشبية أو العظمية في صنعها، وهذا ما انعكس جمالياً على شكل الفؤوس وانتظامها ومواءمتها وملاءمتها للاستعمال.

وفي هذه الفترة ظهر تقليد حضاري واحد شمل أغلب مواقع بلاد الشام، تجلى في ظهور نوع من الفؤوس على شكل لوزة أو قلب، ما يعطي انطباعاً بالتفاعل الاجتماعي بين مواقع بلاد الشام المختلفة آنذاك.

واستخدمت النار بشكل أفضل وتطورت تقنية بناء المساكن.

ومن أهم مواقع هذه الفترة موقع القرماشي الذي يقع في حوض نهر العاصي الأوسط، والذي يرقى إلى حدود 200.000 سنة. وقد بنى سكان هذا الموقع كوخاً بسيطاً أحيط بالحجارة.

ويلاحظ أن الإنسان كيّف مغاوره مع حاجات السكن الطويل، وحفرت المواقد من أجل استخدام أفضل للنار.

وثمة مواقع أخرى، ففي طرطوس هناك موقع أرض حمد وفي فلسطين مغارة الطابون وهولون ومعان وباروخ.

وفي الأردن موقع عين الأسد وموقع منطقة الأزرق وفي لبنان موقع رأس بيروت. [15]

وفي أواخر وجود الإنسان المنتصب /الذي آل، إما إلى التطور نحو إنسان النياندرتال أو نحو الإنسان العاقل/، مرّ مجتمع الإنسان المنتصب بفترة انتقالية أرخت بين 150.000 ــ 80.000 سنة. وهذه الفترة شهدت تغيرات حضارية هامة وربما عرقية شملت بلاد الشام كافة.

ويبدو أن تأثير البيئة توضح من خلال ازدياد اعتماد المجتمعات على الخشب وعظام الحيوانات في صنع الأدوات وشاع استخدام جلود الحيوانات في صنع الملابس وفي فرش البيوت.

وأمام العثور على أدوات مصنعة وقد امتلكت قيماً جمالية، وحساً فنياً عالياً، ما يدل على نشوء الفن ببواكيره الأولى، فإننا نشير إلى تطور في نصف المخ الأيمن /النصف الحدسي/، بالإضافة إلى تطور اللغة المستخدمة بسبب تطور منطقة بروكا الخاصة بالنطق. كما أن ظهور ميل لدى سكان هذه الفترة للارتباط بالأرض نتيجة العثور على تراكم المعطيات الأثرية في نفس الموقع فوق بعضها البعض بعشرات الأمتار، يدل على تطور حاصل في بنية الفص الجداري في القشرة الدماغية كما بينا سابقاً.

وتبعاً لكل هذا فإن ازدياد السكان عددياً، أمر طبيعي. بالإضافة إلى

زيادة فاعلية الصيد وجدواه نتيجة لظهور بواكير صناعة الحراب في هذه الفترة في بلاد الشام.

وقد اصطادت مجتمعات هذه الفترة الحصان البري ووحيد القرن والدب والوعل والغزال.

ومن أهم مواقع هذه الفترة:

يبرود وبئر الهمل في سورية ــ عدلون في لبنان ــ مغارة الطابون في فلسطين.

الجدير ذكره هنا هو أنه في موقع يبرود /الملجأ الرابع/ عثر على طبعة قدم إنسان هذه الفترة /ما قبل النياندرتال/. (16)

ثقافة مجتمعات إنسان النياندرتال في المشرق العربي القديم 100.000 ــ 40.000 سنة:

أول ميزة تميزت بها مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم أنها امتلكت خصوصية وأصالة تميزت بهما عن الثقافات النياندرتالية في أفريقيا وأوروبا.

وتبعاً لمبدأ التحريض /البيئي/، والاستجابة/الدماغية/، أصبحنا أمام تطور في حجم الدماغ لدى إنسان النياندرتال فقد أصبح حجمه وسطياً 1500 سم^3.

ويبدو عند استعراض حياة النياندرتال، ولاسيما حياته الروحية، أننا واقعون على تطور جوهري طرأ على قشرته الدماغية، تمثّل في تطور الفصوص ما قبل الجبهية، وتطور القسم الطرفي أو الحوفي، والذي جعل هذا الإنسان يدرك ظاهرة الموت لأول مرة في التاريخ الإنساني. فمقابل الإهمال الذي عاناه موتى الإنسان المنتصب، حيث كانوا يتركون في أماكن العراء، لجأ إنسان النياندرتال إلى العناية بموتاه ودفنهم وفق شعائر وطقوس معينة، وهذا ما قدمته مواقع عديدة في المشرق العربي.

بالإضافة إلى هذا يبدو أن تطوراً طرأ على القسم الحوفي /الطرفي/ للدماغ، أدى إلى وجود حالات اعتبارية عاطفية تجاه الدب والغزال عند إنسان النياندرتال.

وبشكل عام نحن عند النياندرتال أمام تطورات هامة على صعيد القشرة الدماغية. وقد بقي هذا الإنسان لاقطاً وصياداً، ولكن بمهارة أكثر وبتصنيع للأدوات أكثر تناسقاً وتطوراً وجمالاً، وجدوى. وتطور استخدام النار لديه وتنوع، وكذلك تصنيع واستخدام الأسلحة والملابس.

وتبعاً لاحتياجاته المتطورة والتقدم في تقنيات صناعة الادوات، نجد هنا اختفاء الفؤوس وحلول المقاحف مكانها. وكان التفاعل الاجتماعي أوثق بين المجتمعات النياندرتالية في المشرق العربي القديم. وقد أنشأت هذه المجتمعات معسكرات سكنية مؤقتة لغايات مواسم الصيد والالتقاط.

ويبدو أن تطوراً مستمراً كان يجري على بنية نصف المخ الأيمن دل على ذلك احتواء بعض الأدوات على حزوز زخرفية ما يشي بتطور فني باكر.

ونتيجة لتمرس النياندرتال في حياة الصيد والالتقاط، وإحساسه باستيعاب بيئته، وإحساسه بالأمان دفعه إلى تنظيم مجتمعه اقتصادياً واجتماعياً، وفق ظهور بواكير مفهوم السلطة، عبر زعيم أو مجموعة تنظم علاقات المجتمع النياندرتالي. ويبدو أن هذا الأمر كان انعكاساً لتطور حاصل في الفص الجبهي الذي يعنى بوظيفة التفكير بالعمل وتنظيمه، كما أسلفنا. ويشير د. محيسن إلى أن الحياة الروحية عند هذا الإنسان تفوق في مستواها حياته الاقتصادية. [17]

ومن أهم المواقع النياندرتالية في المشرق العربي:

موقع الديدرية قرب حلب: ويعتبر أقدم موقع نياندرتالي في المشرق العربي حيث عثر في مغارته على هيكلين عظميين الأول لطفل في السنتين من العمر، دفن وفق شعائر وطقوس معينة ويعود هذا الموقع إلى حوالي

100.000 سنة. والثاني لطفل آخر ويرقى لحوالي 80000 سنة.

موقع كهف الدوارة وجرف العجلة وأم التلال وأم قبية وبئر الهمل ومغاور جبل سمعان.

أما في فلسطين فهناك مغارة الطابون والعامود والسخول وجبل قفزة. وفي لبنان مغارة العصفورية. وفي العراق كهف شانيدرا، الذي أبان عن طقس رمزي شعائري رقيق، لرجل مقعد ومريض عمره حوالي 40 عاماً، ويؤرخ هذا الموقع بحدود 60000 سنة وتبين أن الورود نثرت حول جثته.

ودرج في عصر النياندرتال تصنيع المغرة الحمراء التي وضعت في بعض القبور ولاسيما قبور الحيوانات (الغزال ــ الدب)، ولعل ذكر تقنية صنع هذه المادة تجعلنا ندرك مبلغ التطور الذي وصله دماغ إنسان النياندرتال ولاسيما في نصف المخ الأيسر (الفص الصدغي).

فقد كانت المغرة الحمراء تصنع من مزيج أحجار حديدية /هيماتيت ــ الليمونيت/ وشحم ودم ونباتات وعصير فواكه وماء.. الخ.

إن هذه البنية التركيبية تدل على وجود تطور هام في القشرة الدماغية، ولاسيما الفص الصدغي بالإضافة إلى زيادة في استيعاب امكانات البيئة الطبيعية، وتسخيرها لخدمة الإنسان آنذاك. وتشير الدراسات الحديثة إلى تعاصر بين النياندرتال المشرقي مع الإنسان العاقل (الذي يليه) حيث أنه وبحسب الدراسات السابقة كان يشار إلى تطور الإنسان العاقل عن سلفه النياندرتال في بلاد الشام ولاسيما في فلسطين. ولكن ثمة معطيات آثارية جديدة تشير إلى العثور على هياكل الإنسان العاقل في موقع جبل قفزة في فلسطين تعود إلى حوالي 100.000 سنة كما أنه تم العثور على هياكل للنيندرتال تعود إلى 60.000 سنة في مغارة الكبارا في فلسطين. (18)

إن هذا يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتقصي في محاولات فهم علاقة الإنسان العاقل بسلفه النياندرتال أو أن ثمة علاقة بين الإنسان المنتصب والإنسان العاقل بشكل مباشر.

ثقافة مجتمعات الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم 35.000 ــ 12.000 سنة:

يقول كارل ساغان: إن البشر كلهم هم أعضاء في نوع واحد هو الإنسان العاقل، فهو جدنا المباشر وهو بما يحمل من تراكم في المنجز الثقافي ــ الحضاري، بالإضافة إلى تطور حجم دماغه إلى 1100 ــ 2200 سم3، يعتبر الصانع الأساسي للحضارة البشرية، وما زال إلى الآن على الأرض.

ووفق بنيته الدماغية المتطورة، يستخدم هذا الإنسان الأدوات الحجرية والخشبية والعظمية والمعدنية والكيميائية والالكترونية والنووية والتكنولوجية. ويقول د. محيسن: لقد أحدث ظهور الإنسان العاقل، انعطافاً في مسيرة التطور البيولوجي والحضاري للبشرية، وهو يمتلك كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي نملكها نحن. [19]

والذي يبدو أن ثمة أمراً جعل الإنسان العاقل يتجه من بلاد الشام إلى أوروبا، بعضهم يعزوها لأسباب بيئية /البرد الشديد/ أو غير ذلك. حيث أسس هناك حضارة مزدهرة ونشيطة، وهذا لا يعني أن حضارة الإنسان العاقل قد توقفت في بلاد الشام، ولكن مواقعه في أوروبة جاءت أكثر غنىً وتنوعاً وإبداعاً، ربما بسبب تقديم البيئة لعوامل التحريض بالإضافة إلى التطور الذاتي والتحريضي الذي حصل في البنية الدماغية لديه.

ويلاحظ في المجتمعات العاقلة في بلاد الشام، أنها ابتكرت القوس لغاية قذف الحراب عبره، وهذا يدل على انعكاس تطور الدماغ لديه على مهارات جديدة، كما صنع أدواته من قرون الحيوانات. أما لجهة العمران فنلاحظ تطوراً في إنشاء المساكن الكبيرة البيضوية والدائرية، حيث رصفت أرضياتها بالحجارة. كما تدل المعطيات الأثرية على نشوء التقسيم المعماري الداخلي للمساكن حيث بتنا أمام غرف للنوم، وأيضاً غرف كمشاغل /ما يشي بتطور في الفص الجداري/. وزودت البيوت بالمواقد واتسعت لتشمل أسراً عديدة. ما يعني تطوراً في البنى الاجتماعية عن سلفه النياندرتال، ويعبر عن تطور في النظام الاجتماعي الاقتصادي ومفهوم

السلطة. كما أصبح الإنسان العاقل أكثر عناية بموتاه، فبنى لهم المقابر وطلى جثمانهم بالمغرة الحمراء كرمز للحياة.

واستعمل النار من أجل أن يضيء بها المغاور والكهوف العميقة والمعتمة، وصنع السراج واستخدم في إشعاله الشحوم والدهون الحيوانية وصموغ بعض الأشجار.

واستمرت المجتمعات العاقلة على حياة الصيد والالتقاط ولكن بأريحية أكثر، واسترخاء أكثر مما قبله وطبعاً بتقنيات متطورة وأكثر حداثة.

وفي مناحي الفنون فقد مارس الإنسان العاقل الرسم والنحت والحفر، وهذا لم يعثر عليه في مواقع بلاد الشام بل في مغاور فرنسا وتشيكوسلوفاكيا. /ما يدل على عمل نصف المخ الأيمن، في الفاعلية الفنية وسواها/.

وتراجع صيد الدببة والأحصنة لصالح اصطياد الماعز الجبلي بكثرة، كما يلاحظ أن الأسماك والطيور أخذت مواقعها على موائد المجتمعات العاقلة.

وعرفت هذه المجتمعات الرقص والموسيقا /وربما الغناء!/ فقد عثر على أدوات موسيقية مصنوعة من عظام الحيوانات لاسيما المزامير العظمية. /وهذا حصل نتيجة لتعاون كلا نصفي المخ الأيمن والأيسر/.

وفي هذا الاتجاه يقول الباحث لورواغوران:

«إن فنون الإنسان العاقل تدل على وجود نظام ميثولوجي اجتماعي معقد، آمنت بها المجتمعات العاقلة وهي تعكس فكراً منظماً وشاملاً وراسخاً، يحدد موقفهم من القضايا الكبرى التي تمسهم كالحياة والموت والجنس والغذاء والحماية». [(20)]

الجدير ذكره هنا، هو أنه تم العثور في أوروبا على تماثيل للأم الكبرى صنعتها المجتمعات العاقلة هناك من العظم والطين والحجر. / ويعطي هذا الأمر انطباعاً واضحاً على تطور تبدى في القسم الطرفي من الدماغ،

والمسؤول عن العوامل الدينية والعاطفية/.. أما لجهة استخدام اللغة، فالذي يبدو أن الإنسان العاقل بلغ درجة عالية من الرمزية والغنى، وعلى حد قول العالم بيتر فارب: من أن الثقافة مرتبطة ارتباطاً بمقدرة الإنسان على استخدام الرموز، وبخاصة تلك المتعلقة بلغة الكلام والكتابة (21). ويبدو أن هذا لم يكن ليحصل لولا التطور الذي حصل في الفص الجداري ومن ثم الصدغي والجبهي. ومن أهم مواقع الإنسان العاقل في بلاد الشام:

في سورية موقع يبرود /الملجأ الثاني/ منطقة الكوم وتدمر.

في فلسطين: مغارة الواد ــ مغارة الأميرة.

في لبنان: موقع كسار عقيل.

وبالإجمال يعتبر عصر الإنسان العاقل عصر الإنجازات الإنسانية الكبرى، والتي سوف تتطور تبعاً لتطور البنية الدماغية، ولاسيما القشرة الدماغية. ليعود فجر المشرق العربي القديم لينبعث من جديد في حدود الألف العاشر قبل الميلاد، ولتخطو المجتمعات العاقلة بدماغها الجمعي نحو تفجير الثورات الكبرى في تاريخ البشرية، عنيت الثورة الزراعية وتدجين الحيوان، ثورة المدن والعمران، ثورة اختراع الكتابة وثورة الأبجدية.

التطور الثقافي ــ الحضاري في المشرق العربي القديم: من 12000 ــ 8000 ق. م:

لعلنا نوافق العالم الفرنسي جاك كوفان مقولته، أن التحولات العقلية داخل المجتمعات البشرية الزراعية، هي التي كانت مفتاح كافة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، والتي تعد حضارتنا الحالية هي نتيجتها الأخيرة. (22)

وقد تبدى ذلك من خلال المدلولات التي قدمتها بعض المواقع. فالسعي إلى الزراعة واستنبات الحبوب لم يكن سببه حرمان غذائي أو حاجة غذائية بقدر ما كان سعياً عقلياً للكشف والتطوير وتحسين شروط الحياة مادياً وروحياً. فلم تعد المجتمعات تكتفي بما يقدمه لها الوسط الطبيعي، بل هاهي

تتدخل لتكييف وتعديل المصادر الغذائية عبر تقنيات متطورة على أنواع زراعية مختلفة ومختارة.

وبمعنى آخر، أن المجتمعات تحولت من الحالة السلبية /الاستهلاكية لموارد الطبيعة، والمنفعلة/ إلى الحالة الايجابية المنتجة والفاعلة.

وهذا الأمر لم يكن ليتحقق في المستوى الدماغي، إلا عبر التعاون والتنسيق والتفاعل بين نصفي المخ الأيمن والأيسر من جهة، وعبر التطور الحاصل في الفص الصدغي لجهة الادراكات المعقدة من جهة أخرى. وهنا تكمن النواة الحقيقية للانعطاف الحضاري على صعيد البشرية، عنيت ابتكار الزراعة.

يقول العالم غولايف: من الواضح أنه بين 12000 – 10000 وحتى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، جرت في الشرق القديم أهم العمليات والتغيرات التي أدت في نهاية المطاف إلى قيام الاقتصاد الزراعي القائم على الزراعة وتربية الماشية، وكل أنماط الحياة الحضرية في المنطقة. وهذه العمليات تشكل في تاريخ هذه المنطقة عصر انعطاف وفاصلاً نوعياً مهماً [23]. وحول البعد الإنساني لمنجز الزراعة يقول:

إن الزراعة بظهورها، حولت بوضوح أكثر من أي شيء آخر، ظروف تطور الحضارة البشرية وغيرت بيئة الإنسان الطبيعية وبيولوجيته، وأدت إلى تغيير في كل كوكبنا على نحو معين. [24]

وعلى هذا يمكننا مقاربة مراحل تطور الثقافة /بمعناها الانثروبولوجي/ في المشرق العربي لتبيان نقاط الارتكاز التي أدت إلى منعطف الزراعة، ولعل من أهمها، المعطيات المناخية.

فكما أسلفنا، أن الإنسان العاقل ولظروف بيئية /مناخية/ لم يستطع أن ينشئ حضارة فاعلة ومزدهرة في المشرق العربي، لهذا فقد هاجر إلى أوروبا حيث أنشأ هناك حضارة غنية ولافتة.

والذي يبدو أنه مع حوالي 13000 ق. م سوف يحصل ارتفاع حراري في بلاد الشام[25] ما يدفع المجتمعات العاقلة فيها إلى استلام مبادرة

الحوار مع الطبيعة، بعد أن أدى المناخ بحرارته المرتفعة، إلى ظهور غطاء نباتي تجلى في انتشار غابات اللوز والسنديان والفستق ونباتات القمح والشعير. وفي مجال الثروة الحيوانية، نلاحظ توفراً كثيفاً للماعز والأغنام والخنزير والرنة والغزال والثور. ولعل هذا المعطى المناخي الايجابي هو الذي شكل القاعدة الرئيسة في الانعطاف نحو الزراعة. ويشير د. محيسن إلى أن ظهور الزراعة وممارسة تدجين الحيوان، حصل بشكل أساسي وفي مراحله الباكرة في المنطقة الممتدة من سيناء وحتى سهول عربستان، ومن سفوح جبال طوروس وزاغروس وسهول الجزيرة السورية حتى وادي الأردن.

ومن أهم مواقع هذه الفترة: موقع الكبارا ووادي النطوف ومغارة شقبة في فلسطين. لهذا يطلق على هذه الفترة تسمية الثقافة النطوفية، نسبة لموقع وادي النطوفية والتي شكلت الأساس المادي ــ العقلي لنشوء الزراعة في الألف الثامن قبل الميلاد. وثمة مواقع في الرافدين تمثلت في شانيدار وزاوي جيمي. ويبدو أنه مع الألف العاشر انتشرت هذه الثقافة من سواحل المتوسط الجنوبية وحتى كيليكيا في شمال سورية، مروراً بالبادية السورية وحوض الكوم والفرات، وجنوباً نحو منطقة الأزرق في الأردن. [26]

وبالعودة إلى 12000 ق. م، نلاحظ زيادة في التجمعات السكانية وانتشارها إلى أماكن جديدة. ما يعني حصول تطور في الفص الجداري لجهة الإدراك المكاني.

وفي مجال العمران، فقد بنوا القرى نصف المستقرة، ولم يغادروا المغاور والكهوف نهائياً. ما يعني أنهم مازالوا يعيشون على نمط الصيد والالتقاط، مع استيعاب أكبر لامكانات الطبيعة النباتية والحيوانية.

وفي مجال صناعة الأدوات الحجرية، فقد تطورت في تقنياتها وظهرت أدوات صغيرة جداً ذات أشكال هندسية. كما لوحظ أنهم صنعوا أدوات مركبة، حيث المقبض من العظم أو الخشب والأداة العاملة من الصوان. وهذا يدل على تناسق منظم بين نصف المخ الأيمن /الإبداعي/ ونصف المخ الأيسر /التحليلي والعقلي/.

كما أن استيعاب ممكنات البيئة، جعلتهم يصطادون الطيور والأسماك حيث أصبحت مصدراً غذائياً لهم. وكل ما ذكر يمكن توثيقه في مواقع يبرود وجيرود والكوم ونهر الحمر وعفرين في سورية، وفي فلسطين مواقع الخيام ووادي الفلاح. وفي لبنان جعيتا وملجأ برجي، ومواقع خزانة والبتراء في الأردن. وفي العراق، موقع زرزي وشانيدار وزاوي جيمي.

ويلاحظ في مجال الفنون أن أغلب المنحوتات كانت ذات أشكال حيوانية.

وفي الفترة الممتدة بين 10000 – 8000 ق. م:

استمرت هذه المجتمعات على نمط الحياة نصف المستقرة أو نصف الرعوية، غير أننا أصبحنا أمام ميلها للارتباط بالأرض وبحياة الاستقرار. ويبدو أن هذا انعكاس لتطور مستمر في الفص الجداري في الدماغ.

ويشير برينتس إلى أنه في هذه الفترة، أصبحنا أمام بوادر تقسيم للعمل، بين حراس الأرض والرعاة والصيادين، والرعاة المزارعين والصيادين. ويبدو أنه نتيجة لعوامل الاستقرار /والذي سبق ظهور الزراعة/ وإدراك أهمية الحيز أو المكان، فقد ازدادت أعداد سكان المواقع، ويضرب الباحث مثلاً حول ذلك، ففي موقع عينان في فلسطين، ارتفع عدد سكان الموقع إلى حوالي 200 شخصاً بعد أن كان في الفترة السابقة حوالي 60 شخصاً. (27)

وقد اصطادت مجتمعات هذه الفترة، البقر والماعز والخنازير والغزلان، كما أكلوا الطيور والأسماك.

والتقطوا ثمار البطم واللوز والزعرور وحبوب القمح والشعير البري.

وبامكاننا تصنيف هذه المجتمعات باعتبارها مجتمعات عبور وانتقال بين ثقافة الصيد والالتقاط، إلى ثقافة الزراعة وتدجين الحيوان. وقد وثّق موقع الجرف الأحمر في سورية هذه الفترة، والذي يؤرخ في حوالي 9250 ق.م.

وهنا نلاحظ أننا أمام تطور معماري مهم، تجلى في بداية ظهور الأبنية المستطيلة على أنقاض الأبنية الدائرية، وهذا ما سوف يؤثر وبعمق في زيادة اللحمة الاجتماعية. فالبيوت المستطيلة تتميز بقدرة الإنسان على توسيعها، في حين أن الأبنية الدائرية لا تتسع لأكثر من شخصين. ولعل توسيع البيت المستطيل سوف يؤدي إلى ضم عدة عائلات في بيت واحد، وهنا تكمن أهمية هذا المنجز لجهة التطور الحاصل في البنى الاجتماعية.

وينبغي الإشارة إلى أن هذه الفترة شهدت حصول تجانس حضاري، امتد من وادي النيل وحتى حوض الفرات. ويشير هورس وكوبيلاند وأورانش ــ 1973 إلى سيادة نوع عرقي واحد يعرف بالعرق المتوسطي القديم. [28]

والجدير ذكره هنا، هو أن هذه الفترة تشكل المرحلة الأخيرة من ثقافة الصيد والالتقاط في المشرق العربي. وما يميزها هو نشوء بوادر اعتقاد بالأجداد /عبادة الأجداد ــ الارواحية/ والتي تميز المجتمع العشائري ــ القبلي بامتياز. وهذا يمنحنا دليلاً قوياً على حصول تطور في القسم الحوفي من الدماغ.

ويوصف طقس هذا الاعتقاد، عبر فصل رأس المتوفى عن جسده ومن ثم دفن الجمجمة منفردة داخل البيت السكني، على أن هذا لا يجري إلا لكبير القوم كتعبير عن سلطة رمزية توحد المجتمع حول قيم وتقاليد قبلية تقوم على رابطة الدم.

من مواقع هذه الفترة: وادي النطوف في فلسطين، عين الملاحة، وفي سورية، المريبط وأبو هريرة والجرف الأحمر وبادية الشام.

ابتكار الزراعة / الألف التاسع قبل الميلاد:

يقول جاك كوفان: إن البيئة الطبيعية تمتلك مبادرة الحوار مع الإنسان، وهذا يعني أن التحولات الاجتماعية والثقافية يجب أن تنطلق على مستوى ما هو فينا، الأكثر انغماساً في الطبيعة وحساسية لتحولاتها، أي ابتداءً من كائننا البيولوجي. [29]

وعلى هذا فإننا تجاه ابتكار هذا المنجز واقعون على معطيين، أديا

الدور الهام والأساسي في ظهوره، عنيت: معطى الدماغ والتطورات الحاصلة فيه، نتيجة جملة من الاشراطات، أملتها محرضات البيئة والوسط الطبيعي المحيط، بالإضافة إلى اشراطات تطورية ذاتية في الديناميكية التطورية للدماغ.

أما المعطى الثاني فيتحدد في أن منجز الزراعة، هو نتاج عملية تراكمية معقدة، امتدت مساحتها الزمنية عميقاً في الزمن، ولاسيما منذ وجود الإنسان العاقل. بالإضافة إلى الدور الذي لعبته المعطيات المناخية بما قدمته من امكانات بيئية جديدة، شملت العالم النباتي الطبيعي والعالم الحيواني.

ولعل ما قدمه منجز الزراعة يعبر وبقوة، عن بدء انفصال المجتمعات عن الطبيعة لصالح السيطرة عليها، بعد أن تم فهم حركتها وإيقاعها، كذلك سوف يؤدي ذلك إلى تطور مهم في إدراك أهمية المكان، ما يشي ببوادر نشوء لمفهوم الملكية بمعناه الحقيقي. ثم في انبثاق أقوى لمفهوم السلطة الناظمة لفاعليات المجتمع وحركته، ولاسيما مع نشوء الزراعات المروية التي تتطلب جر الماء عبر السواقي أو الأقنية، وما يتطلب ذلك من ضرورة وجود سلطة اجتماعية قادرة.

وتذكر الأبحاث أن النواة الحضارية الأولى لنشوء الزراعة، كانت في المشرق العربي، وتحديداً في المنطقة الممتدة من منطقة الفرات الأوسط، مروراً بحوضة دمشق وحتى وادي الأردن. وقد تم ذلك في الألف التاسع قبل الميلاد، وقبل أي منطقة أخرى في العالم. (30)

وقد أشار كوفان إلى المعنى التقليدي لنشوء الزراعة، في أنه يرتكز في معياره الحاسم على إنتاج المعيشة وأنه بهذا الإنتاج، إنما بدأ في الواقع صعود المقدرة البشرية التي ليست حداثتنا سوى ثمرة لها. (31)

ويوضح غولايف أهمية هذا المنجز، حيث أنه غيّر طابع التفاعل بين الإنسان والطبيعة، وزاد كثيراً من امكانات التكيف البشري، وهذا ما أدى إلى نشوء أنماط ثقافية واقتصادية جديدة تماماً، أكثر مردوداً واستقراراً. (32)

وطالما تحدثنا عما قدمته الزراعة من تحريض لجهة وعي أهمية المكان، وذلك عبر تطور متبد في منطقة الفص الجداري من الدماغ، فان هذا توثقه المعطيات العلمية. فقد توصل العالم الأميركي برايدوود إلى أن الكثافة السكانية في المشرق العربي في ثقافة الصيد والالتقاط في الفترة الممتدة بين 25000 ــ 10000 ق. م، لم تكن لتتجاوز 3 أشخاص في 160 كم^2، وفي الفترة بين 10000 ــ 8500 ق. م، أصبحت 12.5 شخصاً في كل 160 كم^2. ومع نشوء المجتمعات الزراعية الأولى، نلاحظ أن في كل 160 كم^2 أصبحت الكثافة السكانية 2500 شخصاً. (33)

ولعلنا ندرك أن الزيادة السكانية، وهي دليل الاستقرار والتوازن، سوف تفرز معايير ونظماً اجتماعية واقتصادية وروحية متطورة عما سبق. فقد تجذرت الحالة الحاضرة للنوع البشري منذ ذلك الحين، وهذا ليس فقط في مجال استثمار الوسط، /على حد قول كوفان/، بل في ثقافته نفسها وفي بناه العقلية. (34)

وقد أمدتنا المعطيات الأثرية على أن موقع المريبط في سورية، وفي النصف الأول من الألف الثامن قبل الميلاد شهد زراعة القمح والشعير، بما يشكل نقطة انعطاف حاسمة في ظهور الزراعة. أما لجهة تدجين الحيوان، فقد تم عبر سلسلة امتدت من تدجين الكلب في الألف التاسع ق. م، وتبعه تدجين الغنم والماعز والخنزير والبقر والحصان، وصولاً إلى الجمل والحمار. (35)

ولعل انعكاس ممارسة الزراعة، سوف يتبدى على بنية المجتمع وإيقاعه، فثمة الآن انتظام للجماعات في أوقات معينة، من أجل البذار أو الحصاد.. أو الخزن والتجارة بالفائض. ما يعني أننا أصبحنا أمام معايير جديدة، اجتماعية واقتصادية وثقافية وفنية. ستؤدي إلى نشوء معالم الثقافة الزراعية والتي سوف تتبلور على مدى العصور اللاحقة.

والجدير ذكره في هذا المجال، أن بنية المجتمع الزراعي في مراحله البدئية لم تكن وقفاً على المزارعين لا بل كان ثمة مزارعون وأنصاف رعاة وصيادون ورعاة ومربو حيوانات. وقبل أن نمضي في مناقشة نشوء

ثقافة الزراعة، ينبغي أن نشير إلى مقولة برينتس، من أن التطور الذي أدى إلى الثورة العمرانية ونشوء المدن الأولى /في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد/، لم يكن ليحصل إلا نتيجة لظهور الزراعة وتطورها وتقسيم العمل في الحرفة والزراعة وظهور التجارة. وان النمو الكبير لمردود العمل /حيث أنه في الزراعة، ازداد الإنتاج خمسة أضعاف مما كان عليه في مرحلة الصيد/ أدى إلى زيادة سريعة في عدد السكان، ما أدى إلى ظهور المدن الكبيرة وبروز أشكال جديدة في حياة المجتمع. (36)

التطور الثقافي في المشرق العربي القديم بين 8300 – 7600 ق. م:

ما يميز هذه الفترة، هجر الإنسان نهائياً الكهوف والمغاور، كذلك فان التجمعات السكانية الصغيرة اندمجت فيما بينها لتنشأ تجمعات كبيرة، ذات كثافة سكانية مهمة.

وانعكاساً للضرورة الاجتماعية وقوانينها فقد بدأ مخطط البيت السكني يتحول من البيت الدائري /وهو صفة معمارية ملازمة لبيوت ثقافة الصيد والالتقاط/ إلى البيت المستطيل.

وقد مارس سكان مواقع هذه الفترة صيد الأسماك والثيران وحمار الوحش. كل حسب امكانات البيئة لجهة الثروة الحيوانية.

وفي مجال الفنون، عثر على تماثيل حجرية وطينية في موقع المريبط، تمثل شخوصاًَ نسائية ما يدل على وجود حالة اعتقادية ما تجاه المرأة.

كما عثر على رسوم جدارية لأشكال هندسية، على جدران المنازل بما يذكر بمقولة يوليوس ليبس من أنه كلما كانت الشعوب والمجتمعات أكثر استقراراً، كلما استطاعت أن تكرس وقتاً أطول لتزيين مساكنها من الداخل والخارج بزخارف منقوشة ومرسومة. (37)

أما في مجال الاعتقادات لهذه الفترة، فان التطور المتبدي في القسم الحوفي من الدماغ والمسوؤل عن الاهتمامات المعتقدية وتطورها، أدى إلى نشوء جملة معتقدية، تبدأ من وجود حالة اعتبارية للمرأة الأم رمز التجدد والديمومة، مروراً

بحالة اعتبارية مهمة للثور، وصولاً إلى عبادة الأسلاف /الأرواحية/.

ففي مجال الاعتقاد بالمرأة الأم، عثر في مختلف مواقع هذه الفترة على تماثيل نسائية، تدل على اهتمام واضح برمز الأنوثة كما في المريبط.

أما في مجال الحالة الاعتبارية للثور /نحن لا نميل إلى ما يسميها الباحثون «عبادة الثور» ونعتقد أن الاهتمام بالثور كان من منطلق ما يرمز إليه الثور من قدرة خصبية وقوة، ما يشي بالحماية والتماهي الإنساني بمقدرته الحيوية والجسمانية/ فقد دلت عليها مواقع هذه الفترة عبر طقوس دفن رؤوس الثيران في جدران المنازل، ومن ثم تطور هذا التقليد إلى دفن القرون فقط.

يشير البروفسور كوفان إلى أن وضع قرون الثور أو جمجمته في جدران المنازل، تدل على حماية مطلوبة في وجه عوامل الخراب [(38)]. ونحن نميل أيضاً إلى وجود حالة اجتماعية تستوجب الحماية أيضاً وليس البناء أو المنزل فقط.

ولعل المعطيات الحديثة تعطينا دلائل على استمرارية ما لهذه الحالة الاعتبارية، تتجلى في وضع سكان دمشق في القرون السابقة، حدوة حصان على باب المنزل، ما يعطي تصوراً حول رمزية الحصان في عودة الغائب وفي الفأل الطيب، ولو عدنا إلى الوراء أيضاً لاستطعنا تتبع الحالة الاعتبارية للأضحية والدم عند إنشاء وسكن البيوت.

أما الحالة الاعتقادية الثالثة لدى مجتمعات هذه الفترة فتتجلى في «عبادة الاسلاف»، حيث أننا هنا أمام مجتمع قبلي ــ عشائري توحده رابطة الدم، عبر روح الجد الأكبر الحامي للمجتمع، طالما أن المجتمع يسير على هدي الأجداد وتقاليدهم ونواميسهم. فقد عثر في موقع المريبط على معالم فصل رأس الميت عن جسده ومن ثم دفن الجمجمة منفصلة.

وفي مجال صناعة الأدوات، نلاحظ في هذه الفترة اختفاء الأدوات الحجرية الصغيرة والهندسية، في مقابل كثرة في الأدوات اللازمة لأعمال الزراعة كالنصال والمناجل المهمة في قطع القمح والشعير.

كما عثر في هذا الموقع على دلائل مبكرة لصناعة الفخار، وذلك عبر صناعة أوان صغيرة هي الأولى حتى الآن في المشرق العربي. ويشير بعض الباحثين إلى أن لهذه الأواني صفة اعتقادية، ولم تكن تستخدم لشوؤن حياتية ومعيشية.

أيضاً أبانت هذه الفترة عن ظهور معالم أولى في صقل الحجر.

الألف الثامن قبل الميلاد ـــ أول مدينة في التاريخ:

شكل موقع أريحا العائد لهذه الفترة، أول موقع مشرقي وعالمي يدل على وجود أول مدينة في التاريخ.

وتنبع أهمية هذا الموقع من عمرانه الضخم والمتقدم نسبة لعصره والذي يدل بعمق على وجود سلطة اجتماعية قادرة ومنظمة ومتمكنة. فقد شمل هذا الموقع على قلعة أحيطت بسور طوله 8 أمتار وعرضه 3 أمتار وارتفاعه 8.5 متراً. وقد أنشئ السور من الحجر، واستند إليه برج حجري ضخم عرضه من قاعدته 10 أمتار وارتفاعه 8.5 متراً، ويقود درج نحو قمة البرج عبر 22 درجة.

وثمة خندق محيط بالقلعة عرضه 8 أمتار وعمقه 2.60 متراً، والجدير ذكره هنا هو عدم العثور على أدوات تدل على طريقة حفر هذا الخندق في ذلك العصر، مما يعطي انطباعاً أن حفر الخندق والذي شق في أرض من الحجر الكلسي تم، عبر استخدام نار قوية ثم تم تبريد المكان بصورة فورية بالماء، وبذا أصبح الصخر الكلسي الهش، سهل الكشط.

وقد دلت المعطيات الأثرية، على أن سكان هذا الموقع مارسوا الزراعة، وقاموا بتجارة الملح الذي استخرجوه من البحر الميت، كما أنهم استخرجوا الكبريت من وادي الأردن.

وقد لوحظ في بعض أماكن هذا الموقع وجود استيطان بشري مستمر على مدى 22 سنة متتالية. [39]

وفي الرافدين، عبّر موقع زاوي جيمي الذي استمر حتى الألف الثامن قبل الميلاد، عن وجود صفات عرقية لسكانه هي على تشابه واضح مع سكان بلاد الشام ما يشكل قرابة عرقية باكرة.

وهذا ما يؤكده الروسيان رؤوف منشايف ونيقولاي ميربرت بالقول:

«إن التواصل المعروف للمجتمعات الزراعية الأولى في المنطقة السورية، يتلائم مع الدلائل العراقية في شمالي بلاد الرافدين، وهذا يدل على وجود نظم للاتصالات والعلاقات الحضارية في مراحل موغلة في القدم». [40]

الجدير ذكره هنا، هو العثور على خرزة مصنوعة من النحاس، ما يعطي انطباعاً على أول دليل لظهور النحاس واستخدامه قبل عصره بعدة آلاف من السنين. [41]

وثمة مواقع أخرى في الرافدين مثل: كريم شاهير، نمريك. وفي سورية: الشيخ حسان وتل أسود والجرف الأحمر، وفي فلسطين والأردن: جلجال، أبو سالم، أريحا، ووادي فلاح.

الفترة بين 7600 – 6000 ق. م:

سوف نلاحظ أنه وباطراد مع الزمن، سوف تتراكم المعطيات الحضارية والمنجزات، طالما أن ثمة تطوراً مهماً مازال يحصل في البنية الدماغية الإنسانية، وكذلك في حدة التفاعل المجتمعي الإنساني – البيئي المتبادل. مع ملاحظة أنه وضمن حركة التاريخ آنذاك وحركة المجتمعات سوف تتباين الحركة تلك بين مواقع وأخرى، فقد تنشأ مواقع جديدة تبعاً لغياب مواقع أخرى، وقد يستمر استيطان لمواقع ولعدة عصور، ونحن في اتجاه بحثنا نأخذ بالخطوط الأساسية والعريضة، لمجمل حركة المجتمعات وتطورها دون أن نعير التفاصيل سوى الأهمية التي تستحقها، ولا سيما في حال حصول تطور لمنجز ما. لهذا فقد صار طبيعياً أن نعرف أن هذه الفترة شهدت تطوراً دراماتيكياً وطبيعياً في مجمل أوجه

النشاط والفعالية البشرية على صعيد مجتمع المشرق العربي القديم.

فقد شملت الزراعة الآن معظم مجتمعات المشرق وتطور التدجين وكاد المخطط المستطيل للبيوت أن يسود بالكامل.

وعلى صعيد الأدوات ها نحن أمام تطور في تقنيات الصناعة للأدوات الزراعية كالمناجل والنصال والرحى والأجران.

وطبيعي مع زيادة اللحمة الاجتماعية، أن نلاحظ التصاقاً بين البيوت السكنية التي أخذت طابع الاستقرار الدائم، وترسخ تقاليد ومعايير مجتمعية تشمل كامل المجتمع الزراعي مع ظهور التنظيم الجماعي الدقيق والتعاون كذلك.

والشيء اللافت في هذه الفترة ولا سيما في حدود 6500 ق. م أننا أصبحنا أمام تطور في استخدام وسائل الري الصناعي، عبر الأقنية والسواقي.. ما سوف يؤدي إلى نشوء زراعات مروية /غير بعلية/ كالكتان مثلاً.

وكما أسلفنا فان تطور تقنيات الري ولاسيما الصناعي، يحتم وجود سلطة قادرة ومنظمة.

والجدير ذكره هنا، هو أنه في عمارة الفترة هذه نشأت أقنية تصريف داخل المنازل ما يشكل تطوراً مهماً في هذا المجال.

ومن مواقع هذه الفترة، المريبط وأبو هريرة وتل أسود وتل غريفة وأوغاريت وبقرص في سورية. وفي الأردن وفلسطين، مواقع البسطة وعين غزال وبانحا وأريحا. وفي الرافدين موقع جرمو وتل المغزلية وقد أبان موقع بقرص في سورية (6500 ــ 6000) ق. م، عن دليل نشوء أول قرية منتظمة في ذلك الحين حيث يبدو أنها أنشئت وفق مخطط معماري مسبق. ما يدل على تطور مهم في الفص الجبهي والصدغي.

ويمكننا رصد أهم خصائص هذه الفترة والتطور المتبدي في ذهنية مجتمعاتها بما يلي:

ـ نشوء المعابد، حيث أبان موقع أريحا العائدة لهذه الفترة عن إنشاء أول مبان ذات وظيفة اعتقادية والجدير ذكره هنا هو أن السلطة المعتقدية سبقت السلطة السياسية في النشوء تاريخياً.

ـ استمرارية اعتقاد «عبادة الاجداد» القبلي الطابع. وهذاما دلت عليه مواقع المريبط والشيخ حسن.

وقد تطورت تقنية طقوس هذه العبادة عبر عدم الاكتفاء بدفن الجمجمة في جدران البيوت أو وضعها على تماثيل إنسانية. بل أصبحنا الآن مع نشوء لظاهرة «الجماجم المقولبة»، حيث تكسى الجمجمة /بعد تنظيفها/ بالجص وتصبغ باللون البني الفاتح بما يماهي بشرة الإنسان، ثم تنزل العيون بالصدف أو القواقع وترسم خطوط بنية بالمغرة الحمراء دلالة على الشعر.

وقد أمدتنا مواقع أريحا وبيسامون وتل الرماد، بنماذج من هذه الجماجم المقولبة.

أما موقع تل المغزلية في الرافدين، فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن سور حجري كبير، يعطي دلالة على أقدم بناء عسكري في تلك المنطقة. [42]

التطور الثقافي في الفترة بين 6000 ـ 4000 ق. م:

لعل ما يميز هذه الفترة، هو الاستمرار التصاعدي للتطور المتبدي في كافة أوجه الحياة. فالى جانب اتساع صناعة الأواني الفخارية، استمرت ظاهرة عبادة الأجداد.

ودل موقع الكوم في البادية السورية، على ممارسة الزراعة المروية عبر جر المياه من الينابيع أو الأنهار /الفرات مثلاً/.

ويلاحظ أنه مع 5000 ق. م، دخل الجناح الشرقي للمشرق العربي /الرافدين/ في العصر الحجري النحاسي سابقاً الجناح الغربي /بلاد الشام/ الذي استمر على ثقافته الزراعية. [43]

وبشكل عام، سادت في هذه الفترة الثقافة الزراعية عبر قرى دائمة ومستقرة، مارست الزراعة والتدجين، إلى جانب وجود ثقافة رعوية ذات قرى صغيرة ومؤقتة مارست التنقل والرعي.

والشيء اللافت في هذه الفترة ولاسيما في بدايتها، أن موقع أم الدباغية الرافدي أبان عن منجز معماري مهم سوف يكون له أهمية كبيرة مع العصور اللاحقة، وذلك عبر الكشف عن أقدم نموذج معروف للقوس في المشرق العربي القديم. (44)

كذلك تشير المعطيات الأثرية إلى تشابه كبير بين معطيات هذا الموقع وموقعي بقرص والكوم في سورية. وكشف موقع حسونة الرافدي عن أول عملية لشي الفخار في أفران.

وفي موقع سامراء /حوالي 5300 ق. م/، أدت الكشوف الأثرية إلى الكشف عن استخدام سكان الموقع القوالب الخشبية للمرة الأولى، لتكييف اللبن وذلك في تشييد جدران المنازل. وهذا يعطي انطباعاً عن مدى التطور الذي حققته البنية الدماغية لجهة الإدراك العميق المركب.

ومن مواقع هذه الفترة، العمق والكوم في سورية، وادي اليرموك، عسقلان، أريحا في فلسطين.

وموقع يريم تبة، الثلاثات، كول تبة، نينوى، أم الدباغية.

وفي حوالي 5500 ق. م، سوف نشهد قيام ثقافة تل حلف في شمال شرق سورية، حيث امتدت من دجلة والموصل مروراً بنهر البليخ والخابور، وحتى سواحل المتوسط وقد شملت تأثيراتها أيضا منطقة الخليج العربي.

وبشكل عام، يلاحظ في هذه الفترة رسوخ التقاليد الزراعية، إلى جانب التمكن من تقنيات زراعية جديدة تجلت في استنبات أنواع جديدة مثل العدس والحمص والفول وأشجار الكرمة والتين والزيتون والنخيل.

وفي مجال العمارة، يلاحظ ظهور القرميد المشوي لأول مرة في مجال البناء، كما قامت الأبنية العامة ذات الوظيفة الشعائرية

والاعتقادية+ /المعابد/. [45]

ويمكننا في هذه الفترة التمييز بين المجتمعات الزراعية المستقرة والتجمعات الرعوية. وفي مجال الحياة الروحية، نلاحظ تطوراً في اعتقادات الأم / الرمز، بالاضافة إلى الاهتمام الاعتباري بالثور.

أما في مجال صناعة الفخار، فقد اتسعت صناعته وتطورت، حيث نشأت مراكز حرفية كبيرة، أدت إلى إنتاجه بكميات وفيرة ساهمت في جعله مادة تجارية رابحة ورائجة. [46]

وتنبغي الإشارة إلى ظهور أبنية دائرية في هذه الفترة، يعتقد أنها لغاية تعبدية /معابد/. ومن أهم مواقع هذه الفترة: تل كشكشوك، تل عقاب، شاغار بازار، شمس الدين طنيرة، رأس الشمرة، تل صبي أبيض، شمشارا، يريم تبه، العربجية.

وقد انتهت الفاعلية الحضارية لثقافة حلف في حوالي 4500 ق. م، لينتقل الفعل الحضاري إلى الجنوب الرافدي عبر ثقافة العبيد.

والعبيديون ذوو أصول مشرقية محلية، ظهروا حوالي 5000 ق. م، وبدأت فاعليتهم الحضارية حوالي 4500 ق. م، واستمروا حتى 3500 ق. م. ويبدو أن لهذه الثقافة شأن كبير وتأثير مهم في وضع حجر الأساس للبنى الحضارية اللاحقة.

ولعل البيئة الطميية والمستنقعية للجنوب الرافدي، حيث نشأت الثقافة العبيدية، حتمت التفاعل مع البيئة بأسلوب مغاير عن أساليب الثقافات الشمالية. لهذا نجد سكان مواقع العبيد قد عمدوا إلى السيطرة على الطبيعة عبر قيامهم بمكافحة ملوحة الأرض، وتجفيف المستنقعات، ومارسوا الزراعة المروية باقتدار.

وفي مجال العمارة، أنشأوا بيوتهم من الطين والقصب /بحسب امكانات البيئة عندهم/. ونظراً لاستخدامهم تقنيات الري الصناعي /بحسب اشراطات البيئة/، فقد أدى هذا إلى ضرورة نشوء سلطة اجتماعية منظمة وبنى اجتماعية متطورة. الأمر الذي أدى إلى تشكل القاعدة المادية ــ

الاجتماعية لانبثاق المدن الأولى في نهايات الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد شملت ثقافة العبيد مدى امتد من طوروس حتى الخليج العربي، ومن زاغروس إلى البحر المتوسط ومن أهم مواقعها: أريدو وحجي محمد. بحيث أصبحنا مع 4500 ق. م، أما حضارة متجانسة شملت من عربستان إلى سواحل المتوسط، ومن زاغروس حتى سواحل الخليج العربي والبحرين والجزيرة العربية. (47)

أشادت الثقافة العبيدية معابدها الضخمة ذات الطوابق، كما وبنت معابد على مرتفعات طبيعية أو اصطناعية، وهذا ماسوف يشكل بداءة ابتكار الزقورات في العصر اللاحق.

وتنبغي الاشارة إلى أن إشادة المعابد على أماكن مرتفعة، تدل على حصول تطور عميق في القسم الحوفي أو الطرفي من الدماغ، عبر بداءة وعي السماء / الألوهة، كبعد ماورائي عال. وان بناء المعابد بهذه الطريقة غايته محاولة التقرب من التجلي الإلهي، ما يعني هنا بداية إدراك البعد السماوي للألوهة، وهذا برأينا يشكل نقطة انعطاف مهمة في نشوء فكرة الألوهة على صعيد الفكر الإنساني.

وهذا يستتبع التأكيد على أن السلطة الدينية، سبقت السلطة السياسية في النشوء تاريخياً.

وفي مجال الحرف، تم في هذه الفترة ابتكار الدولاب البطيء في صناعة الفخار. ومن مواقع هذه الفترة: العربجية، تبة غورا، حمرين، وذلك في شمال الرافدين، حيث مارس السكان الزراعة البعلية وأشادوا بيوتهم وأدواتهم من الحجر، بحسب امكانات البيئة.

أما المواقع الجنوبية الرافدية فقد مارس سكانها، الزراعة المروية وشيدوا أبنيتهم وأدواتهم من الطين والقصب، وصنعوا أدواتهم من الطين.(48)

ومع 4000 ق. م، ابتكر الدولاب السريع في صناعة الفخار، ما أدى إلى انعكاس ايجابي على إنتاجيته وتقنياته. ويبدو أنه في هذه الفترة عرف السكان الملاحة، بدليل العثور على مواقع هذه الثقافة في قطر والبحرين

والجزيرة العربية. وباستطاعتنا القول أنه حتى نهاية هذه الفترة، لم يعثر على أي دليل لوجود سلطة سياسية عبر وجود قصر أو ما شابه، وبقيت السلطة المسيّرة لأمور المجتمع، السلطة الدينية.

دور الزراعة في نشوء الكتابة في طورها الابتدائي:

يميل الباحثون إلى اعتبار أن ثمة أسبقية للاستقرار على الزراعة، ولكن الاستقرار بمعناه الحقيقي بما يشمل الديمومة والاستمرارية، نعتقد أنه رافق الفاعليات الزراعية وترسخ باطراد مع ممارسة الزراعة.

ولعل ما أدته الفاعلية الزراعية من تطور البنى الاجتماعية والاقتصادية والروحية ينسحب أيضاً على الفاعلية التجارية. فخزن فائض المنتج الزراعي سوف يحتم التفكير بالتبادل التجاري، ولو في نسق المقايضة، وهذا ما يحتم إيجاد آلية للتفاعل والتواصل التجاري بين المجتمعات، وقد قدمت مواقع عديدة في المشرق العربي دلائل باكرة حول نشوء طور ابتدائي من أنماط التواصل هذه تجلى في العثور على بدايات استعمال أدوات خاصة مرفقة برموز وإشارات تحدد ماهية السلع الواردة في التبادل التجاري.

ولعل هذا يشير إلى التوازي إلى حد ما بين ظهور الزراعة ونشوء البدايات الممهدة لظهور الكتابة.

وهذا الأمر يشير بوضوح إلى التطور الحاصل في الفصوص الدماغية الأربعة، بالإضافة إلى التنسيق العالي المستوى فيما بينها والذي أدى إلى إيجاد أشكال معينة ذات وظيفة حسابية ــ تجارية.

وإن العثور في موقع الجرف الأحمر /9250 ق. م/ على قطع من البازلت محفور عليها وجوه حيوانية وخطوط مبهمة، ربما يشي بمخاض أولي حول بدايات نشوء بواكير التفكير الذهني بالتعبير عن منتج ما. «فالكتابة السومرية الأولى على ألواح من الصلصال، كانت تذكر بشكل كبير بالصور الرمزية وبالرسوم الواقعية التي تشير إلى الأشياء والتي تمثل بكثرة في منحوتات الجرف الأحمر».[49]

ويشير ميشيل بروز وفيليب تالون، إلى أن ألواح هذا الموقع تشكل أولى المحاولات لترجمة الفكر بالكتابة، بالإضافة إلى تعاصرها مع بداية عصر الزراعة.[50]

وحول ارتباط الزراعة بأوليات الكتابة يشير الدكتور عدنان البني إلى أنه سبق الكتابة طور ممهد لها، استخدم فيه الإنسان أشكالاً من الطين لتوصيف منتجات الزراعة من حبوب وفاكهة وزيوت وغير ذلك من الماشية المدجنة، وذلك في عمليات التجارة وتبادل المنتوجات. [51]

وكان أوبنهايم قد تحدث عن نظام للجرد في مدينة نوزي الرافدية وذلك في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، حيث أشار إلى أنه إلى جانب الكتابة المسمارية كان كتّاب القصر يلجؤون إلى طريقة قديمة في إجراء الحسابات وذلك بواسطة «فيش» حسابية خاصة، حيث كان يرمز لكل حيوان بفيشة معينة، ولوحظ أنه في حال سوق قطيع إلى مدينة أخرى، كان يتم تحويل الكمية اللازمة من الفيش إلى المدينة الأخرى. وقد أبان الكشف الأثري عن وجود 48 فيشة وضعت ضمن لوحة طينية مجوفة شبيهة بالمغلف، كتب على جدرانها بالإشارات المسمارية: 21 نعجة، 6 حملان، 8 خرفان، 6 عنزات...الخ. [52]

والحقيقة أن هذا النوع من الجرد الحسابي يعود /حسب الدلائل الأثرية/ إلى حوالي 8000 ق. م. فقد عثر على هذه الفيش في المشرق العربي القديم في مواقع عدة أهمها: المريبط، أبوهريرة، تل أسود، تل غريفة، رأس الشمرة، تل براك، تل حلف، أوروك.

وقد درست الباحثة الأميركية دينيزا شمندت بيسيرا، هذه الفيش وتوصلت إلى أنها كانت تستخدم في عملية جرد المؤن الواردة والصادرة.[53]

صنعت هذه الفيش من الطين وشويت على النار ويبلغ جحمها 1 ـــ 3 سم وأخذت أشكالاً مختلفة، كروية، مخروطية، استوانية، قرصية، هرمية ثلاثية السطوح.

وتظهر على بعضها حفيرات وتجاويف وأخاديد منجزة بالعصا قبل الشي. ولوحظ أن ثمة فيش تحوي علىثقوب معينة. وتعتقد الباحثة أن لكل شكل محزوز أومرسوم معناه ولكل إشارة إضافية مدلولها الخاص. ولا

تقتصر مهمتها على العدد والتعداد بل أن لها علاقة بتبادل السلع على أنواعها في عمليات تجارية آنذاك.

وتشير بيسيرا، إلى أن هذه التسجيلات سابقة للكتابة، وقد انتشرت هذا الفيش في كامل المشرق العربي القديم وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد. ولوحظ أن انتشار هذه الفيش يتطابق مع مناطق تشكل الاقتصاد الزراعي والمناطق التي أخذ سكانها في مرحلة التحول من حياة الصيد والالتقاط إلى حياة الزراعة والتدجين أي من أسلوب الحياة المتنقل إلى أسلوب الحياة الحضري.

واستمر نظام الفيش من 8000 وحتى 4000 ق. م على حاله. وبالتدريج أخذ التطور في تقنيات الفيش منحى جديداً، عبر ظهور فيش ذات أشكال مثلثية وشبه معين، مزودة بإشارات وعلامات إضافية كالحفر والتظليل، وأصبحت قادرة على إعطاء معلومات مفصلة عن نوعية المواد المرموز إليها بالنماذج الأساسية من الفيش.

ومع حوالي 3500 ق. م، أصبحت هذه الفيش توضع داخل مغلفات طينية على شكل كرات مجوفة، وقد عثر على هذا النوع في أوروك وحبوبة كبيرة.

ثم بين 3500 ـــ 3200 ق. م، تطورت التقنية إلى وضع بصمات خاصة على الجدار الطيني للمغلف الكروي، لتمييز محتويات الأغلفة. وبقي هذا النمط مستخدماً حتى 1500 ق. م.

وتشير الباحثة إلى أن المغلفات ذات البصمات كانت الأساس الذي قام عليه، مجمل نظام الكتابة المسمارية.

وعثر على نماذج هذا النمط في أوروك وخفاجي وحبوبة كبيرة وجبل عارودة وماري.

وقد لخصت الباحثة نظريتها، في الوصول إلى الكتابة التصويرية انطلاقاً من الفيش عبر المراحل التالية:

في 8000 قبل الميلاد، ظهرت الفيش ثلاثية الأبعاد.

في 3300 ق. م، ظهرت المغلفات الحاوية على الفيش ذات البصمات.

في 3300 ــ 3200 ق. م، ظهور اللوحات الأولى ذات البصمات.

في 3100 ق. م، ظهور الكتابة التصويرية ومن ثم تطورها إلى الكتابة المسمارية.

لقد لعب ابتكار الزراعة، دوراً رائداً وأساسياً في تطور الحياة البشرية، ولعل معظم المنجزات التي ستميّز العصور التاريخية، تستند في بواكيرها على الثقافة الزراعية التي خرج من رحمها، التجارة والاقتصاد والكتابة والمعتقدات الكبرى في الحياة الإنسانية.

يقول جاك كوفان: يعد المنعطف الذي سمي بالثورة النيوليتية /الزراعة/، أحد أكثر المنعطفات حسماً من بين منعطفات التاريخ البشري الكبرى، فهو بداية أولى معالجات نوعنا لوسطه الطبيعي، والتي تشكل مباشرة أصل قدرته الحالية. وبالتالي فان تحليل هذا التحول، في شروطه وأسبابه، غاية ضرورية لمن يهتم بمستقبل الحضارة. (54)

الهوامش

(1) سلطان محيسن. الصيادون الأوائل. دار الأبجدية. دمشق. 1989
(2) نعتقد أن استخدام مصطلح البدئية، أفضل من البدائية في الشارة إلى الشعوب التي وجدت في مطالع الوجود الإنساني على الأرض. والحقيقة أنه لولا منجزات هذه الشعوب والتجمعات والرصيد التراكمي الحضاري الذي أنجزته، لما أمكن للحضارة البشرية أن تصل إلى ما وصلت إليه في عصرنا الحديث.
(3) يقول الفرنسي جاك كوفان في كتابه «الألوهية والزراعة»: إن البيئة الطبيعية تمتلك مبادرة الحوار مع الإنسان، وهذا يعني أن التحولات الاجتماعية والثقافية، يجب أن تنطلق على مستوى ماهو فينا الأكثر انغماساً في الطبيعة، وحساسية لتحولاتها أي ابتداءً من كائننا البيولوجي.
(4) محيسن. مرجع سابق.
(5) كارل ساغان. تنانين عدن. ت: نافع لبس. اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1996
(6) المرجع السابق.
(7) د. عبد الستار ابراهيم. الإنسان وعلم النفس. عالم المعرفة. الكويت. 1985. عدد 86
(8) ساغان. مرجع سابق.
(9) المرجع السابق.
(10) كارل غوستاف يونغ. علم النفس التحليلي. دار الحوار. سورية. 1985
(11) ابراهيم. مرجع سابق.
(12) يان ايلينيك. الفن عند الإنسان البدائي. دار الحصاد. دمشق. 1985
(13) محيسن. مرجع سابق.
(14) المرجع سابق.
(15) المرجع سابق
(16) المرجع سابق.
(17) المرجع سابق.
(18) المرجع سابق.
(19) المرجع سابق.
(20) leroi - gourhran. l'evolution de vegetion au moyen orient.

lorsderniers 10000 ans. palermo 1983.
(21) بيتر فارب. بنو الإنسان. ت: زهير الكرمي. عالم المعرفة 67. 1983. الكويت.
(22) جاك كوفان. الألوهية والزراعة. ت: موسى الخوري. وزارة الثقافة. دمشق 1999
(23) غولايف. المدن الأولى. دار التقدم. موسكو. 1989
(24) المرجع السابق.
(25) الحوليات الأثرية السورية. عدد 43. 1994
(26) محيسن. المزارعون الأوائل. دار الأبجدية. دمشق. 1994
(27) بورهارد برينتس. نشوء الحضارات القديمة. دار الأبجدية. دمشق. 1989
(28) Hors, cope land, aurenche, les industir Paliolitique du proche - orient 1973.
(29) كوفان. مرجع سابق.
(30) المرجع السابق.
(31) المرجع السابق.
(32) غولايف. مرجع سابق.
(33) الجديد حول الشرق القديم. مجموعة باحثين. دار التقدم. موسكو. 1988
(34) كوفان. مرجع سابق.
(35) محيسن. المزارعون الأوائل. مرجع سابق.
(36) برينتس. مرجع سابق.
(37) يوليوس ليبس. بدايات الثقافة الإنسانية. وزارة الثقافة. دمشق. 1988
(38) كوفان مرجع سابق.
(39) برينتس. مرجع سابق.
(40) الحوليات الأثرية السورية. 44. 2001.
(41) محيسن. المزارعون الأوائل. مرجع سابق.
(42) المرجع السابق.
(43) المرجع السابق.
(44) المرجع السابق.

(45) المرجع السابق.

(46) برينتس. مرجع سابق.

(47) محيسن. مرجع سابق.

(48) المرجع السابق.

(49) le poins, hebdomadaire, 1996/12/7 Lemonde.

(50) en syrie aux origines de l’écriture - brepols.

(51) د. عدنان البني. المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم. دمشق. 2001

(52) الجديد حول الشرق القديم. مرجع سابق.

(53) المرجع السابق.

(54) كوفان. مرجع سابق.

مراجع البحث الأخرى

- د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة. دمشق. 1988.
- سيتون لويد. آثار بلاد الرافدين. ت: محمد طلب. دار دمشق. 1993.
- د. أحمد سوسة. تاريخ حضارة وادي الرافدين. بغداد. 1983.
- ميلغيل. ج. هوسكونتيز. أسس الأنثروبولوجيا الثقافية. ت: رباح النفاخ. وزارة الثقافة. دمشق 1974.
- فرنسيس أور. حضارات العصر الحجري القديم. ت: سلطان محيسن. دمشق. 1989.
- أشيلي مونتاغيو. البدائية. ت: محمد عصفور. عالم المعرفة. 53. 1982 الكويت.
- ايف كوبنز. افريقيا وقصة الإنسان. ت: سلطان محيسن. دار شمأل. دمشق. 1996.
- جاك كوفان. القرى الأولى في بلاد الشام. ت: الياس مرقص. دار الحصاد. 1995.
- جاك كوفان. ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام. دار دمشق. 1988.
- Syrie,terre de civilisations. quebec. 2001.
- Nagel, archaeologia mundi. Syrie - Palestine 1. jean perrot.

الدراسة الثانية

اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم

لا نعتقد أنه بإمكاننا البحث في تطور المجتمع البشري، دون دراسة تطور علم الكتابة الذي شكل مفصلاً هاماً من مفاصل تطور الإنسان الفكري والعقلي. ما أدى إلى إحداث طفرة حضارية سوف تنعكس على آلية التطور الإنساني ليصل إلى عصر الثورة الصناعية وعصر المعلومات.

فاختراع الكتابة أدى إلى توثيق العالم الشفهي، لا بل تطويره، عبر تحريك الكلام من العالم السمعي الشفاهي إلى عالم حسي جديد هو عالم الرؤية، بما أدى إلى حدوث تحول وانعطاف كبير في آلية التفكير والكلام معاً.

فالعالم والتر. ج. أونج يعتبر اختراع الكتابة من أخطر الاختراعات البشرية التكنولوجية[(1)]، لا بل يمكننا القول أيضاً أن لا تاريخ لمجتمع بلا كتابة.

وللإضاءة على أهمية الاختراع هذا، لابد من الإشارة إلى حادثة أوردها هيرودوت، جرت في الألف الأول قبل الميلاد في مجتمع لا يعرف الكتابة بعد، فقد روى هيرودوت أنه عندما اقتحم ملك الفرس داريوس بجيوشه بلاد الأسقوثيين الواقعة في سهوب أوكرانيا الحالية، بعث إليه الأسقوثيون رسالة تحتوي على طير وفأر وضفدعة وخمسة سهام، وحين استمزج الملك آراء مستشاريه، كان رأيهم أن الأسقوثيين يقصدون الحرب. فقد فهموا الرموز، أنه إذا لم تختفوا في السماء كالطيور أو تتواروا في الأرض كالفئران أو تختبئوا في الماء كالضفادع فإن الموت بانتظاركم.

ولكن كان للملك الفارسي، قراءة أخرى لهذه الرموز، حيث فسّر الرسالة بأنها تقصد أن الأسقوثيين يضعون أنفسهم تحت سلطة الملك الفارسي، ويقدمون له السماء والأرض والماء وقد تخلوا عن المقاومة.

ويبدو أن قناعة الملك برأيه أودت بجيشه إلى المهالك.

بناءً عليه يمكننا بعد هذا أن نحدد أهمية اختراع الكتابة بأبعادها الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، العلمية والأدبية.

اختراع الكتابة:

لا نعتقد أنه ثمة إطلاق في مناقشة مسألة اختراع الكتابة. فالمعطيات الآثارية ما زالت تمدنا بالجديد الذي يلغي النتائج السابقة. لا سيما وأن المواقع الأثرية في المشرق العربي غزيرة جداً، وبالتالي فإن ما سنناقشه يأخذ بعين الاعتبار ما وصلت إليه المكتشفات الأثرية في هذا المجال حتى الآن.

وهنا ينبغي أن نؤكد على عدة حقائق حين مناقشة هذه المسألة:

أولها: أن هناك الكثير من المجتمعات عرفت الكتابة ولكن الذي يعنينا في هذا المجال هو الكتابة ذات الشمول الإنساني، والتي جاء اختراعها كحاجة مجتمعية أولاً ثم إنسانية عامة، انعكست على تطور المجتمعات البشرية إيجاباً، ومن ثم أدت إلى ابتكار الأبجدية التي غيرت وجه التاريخ البشري.

ثانيها: في مناقشة هذه المسألة تتداخل الجغرافية السياسية للمشرق العربي مع الجغرافية التاريخية، فالتفاعل المادي الروحي بين مدن المشرق العربي القديم في دورة حياة واحدة، أكدته المعطيات الأثرية وبالتالي فإن حديثنا عن اختراع الكتابة وفق الجغرافية السياسية الحالية لا ينفي التفاعل بين مراكز الحضارة في المشرق العربي القديم. (2)

ثالثها: أن ثمة سلسلة حضارية واحدة أدت إلى ابتكار الأبجدية الكنعانية.. وهذه السلسلة تبدأ من أولى محاولات الكتابة مروراً بالكتابة التصويرية ثم الرمزية ثم المقطعية إلى الأبجدية.

وهذه السلسلة المتواصلة هي انعكاس للتواصل الحضاري المجتمعي للمشرق العربي القديم.

مراحل اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم:

هناك عدة عوامل أدت إلى اختراع الكتابة منها:

1ــ ان بوادر التحول من حية الصيد والتقاط الثمار إلى بواكير الزراعة، والرعي كان له دور حاسم في نشوء الكتابة، وبذا يمكننا القول أن ابتكار الكتابة كان انعكاساً لتطور وانتقال حالة التجمعات البشرية الصغيرة من الصيد إلى الزراعة والرعي وبالتالي فهو انعكاس للتطور الاقتصادي الاجتماعي.

2ــ إن نمو التجارة الفردية أولاً /وقد تكون في طور الصيد/ ثم ثانياً في نطاق تبادل السلع والمنتجات أدت إلى ابتكار الكتابة عبر العدّ والأرقام ومن ثم نمو التجارة بين التجمعات الصغيرة.

3ــ إن اختراع الكتابة انبثق من الأرقام والعدّ، فالكتابة كانت بمثابة الجنين في رحم الرياضيات البسيطة، وبذا نستطيع أن نتابع مراحل الكتابة في سورية.

فقد توصلت الباحثة الأميركية دينيزا شماندت بيسيرا في أواخر السبعينات من القرن العشرين إلى نظرية تعيد نشوء بواكير الكتابة إلى حوالي 8000 عام قبل الميلاد.

وأوردت الباحثة أن تاريخ الكتابة الذي يمتد خمسة آلاف عام من الآن، سبقته فترة تمهيدية لا يقل طولها عن طول هذا التاريخ، وذلك عبر استخدام الإنسان في المشرق العربي لنوع من الفيّش تأخذ أشكالاً مختلفة، ويشير كل منها إلى سلعة ما.

واستطاعت أن تحدد نحو 15 نموذجاً، ولوحظ أن ثمة أخاديد وتجاويف أنجزت بالعصا وبعض الفيش تحتوي على ثقوب، وتعتقد الباحثة أن لكل شكل معناه كما أن لكل إشارة مغزاها.(3)

صنعت هذه الفيش من الطين، ومن ثم كانت تشوى على النار، وهي ذات أشكال هندسية صغيرة، (3.1) سم وثمة أشكال كروية ومخروطية واسطوانية وقرصية وهرمية ثلاثية السطوح.

وقد عثر في سورية على هذه الفيش في تل أسود وتل مريبط ويعود تأريخها إلى النصف الأول من الألف الثامن قبل الميلاد وفي الألف السابع انتشرت في جميع مناطق المشرق العربي.

وتلاحظ الباحثة أن التشابه بين هذه الفيش كان كبيراً، رغم أن ما يفصل بين المواقع يتعدى آلاف الكيلو مترات. ما يدل ربما على علاقات بين مختلف المواقع الشرقية آنذاك.

وتتوصل الباحثة بيسيرا وفق ذلك إلى عدة نتائج:

أولاً: إن نظام الفيش الحسابية شكل مرحلة تمهيدية خاصة لظهور الكتابة.

ثانياً: إن تاريخ الرياضيات يعود إلى بواكير هذه الأنظمة الحسابية البسيطة.

ثالثاً: استمر العمل بهذا النظام (الفيش) حتى ظهور الكتابة التصويرية في حوالي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد.

وبذا يكون اختراع الفيش تم في حوالي 8000 قبل الميلاد ولا سيما الفيش ذات الثلاثة أبعاد.

وفي حوالي 3300 قبل الميلاد ظهرت مغلفات تحوي بداخلها على فيش ذات بصمات. وفي حوالي 3300 ــ 3200 قبل الميلاد ظهرت اللوحات الأولى ذات البصمات إلى أن تم ظهور الكتابة التصويرية في حوالي 3200 قبل الميلاد.

مكتشفات جديدة في سورية تقلب المفاهيم السائدة: الجرف الأحمر 9250 ق.م.

عام 1996 م كشفت التنقيبات الأثرية في موقع الجرف الأحمر على الفرات الأوسط، عن قطع صغيرة من البازلت محفور عليها وجوه حيوانية بسيطة، وخطوط مبهمة «ربما سوف تقلب معارف الفن والديانة والتواصل الإنساني عند فجر أزمنة العصر الحجري الحديث» على حد قول الباحثة

دانييل ستوردور[4].

تعود هذه المنحوتات الحجرية للألف العاشر قبل الميلاد وقد عثر على منحوتات أخرى حجرية ذات نقوش تصويرية وتتضمن أعداداً. ان تجمّع الجرف الأحمر عبارة عن ضيعة صغيرة مؤلفة من خمسين بيتاً من الحجر وكان سكانها يعيشون في الفترة الواقعة بين 9250 ــ 8750 ق. م، وهذه الفترة تتطابق مع استقرار المجتمعات الزراعية الأولى.

وفيما إذا ثبت علمياً أن ما تحتويه هذه المنحوتات يشكّل بوادر كتابة تصويرية، فإن كافة المعطيات السائدة سابقاً ستنقلب رأساً على عقب وسوف يرجع تاريخ الكتابة التصويرية إلى الألف العاشر قبل الميلاد عوضاً عن الألف الرابع قبل الميلاد وعلى هذا يؤكد ميشيل بروز وفيليب تالون:

«إن المحاولات الأولى لترجمة الفكر بالكتابة كانت في الجرف الأحمر في سورية وكان هذا في محيط الألف العاشر قبل الميلاد».

وبناء على هذا يحدد الباحثان أهمية هذا الأمر بالقول:

«ان المعلوماتية لم تكن لترى النور دون الكتابة وتطوراتها بما فيها علم الرياضيات، اننا نقتفي دائماً الطريق الذي فتحته لنا شعوب الشرق القديم وذلك منذ عشرة آلاف عام». [5]

الكتابة التصويرية:

يبدو أن إنسان سورية بقي يستخدم الفيش في العد مع ظهور بوادر لكتابات تصويرية سوف تتبلور في الألف الرابع قبل الميلاد.

تعتمد الكتابة التصويرية على تصوير الأشياء كما هي في حالتها الطبيعية.. فالصورة ليست الغاية بل الشيء الذي تمثله الصورة نفسها.

وحسب رأي العلماء فإن هذه الطريقة من الكتابة، هي التي فتحت الباب الواسع أمام الكتابة الحقيقية وقد عثر في سورية على ألواح من الطين غير المشوي، تحتوي على كتابات تصويرية في تل براك وفي موقع حبوبة

كبيرة.

الكتابة الرمزية:

في هذه المرحلة تطورت الصورة المرسومة إلى رموز وإشارات مسمارية لا تعبرّ فقط عن المعاني الأصلية للصورة المرسومة بل عن أفكار ومعانٍ لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم.

وقد اكتشفت في سورية منحوتات في حبوبة كبيرة وعارودة عليها خطوط ودوائر وأوعية فخارية وسنابل، وهي تدل على أعداد وكلمات، فالخطوط والدوائر تمثل الأعداد أما الرسومات كالأوعية والسنابل فتدل على كلمات. فالوعاء يشير إلى مادة سائلة والسنابل إلى النباتات، أما الخطوط فتشير إلى الأرقام. (6)

الكتابة المقطعية أو الصوتية:

في هذه المرحلة من تطور الكتابة أخذ كل رمز صوتاً معيناً، بغضّ النظر عن مدلوله الصوّري، وتؤرخ هذه المرحلة بحوالي 2800 قبل الميلاد.

ويبدو أن تطور الكتابة كان انعكاساً للتطور الاقتصادي الاجتماعي، في بنية مجتمع المدن آنذاك.

بالإضافة إلى نمو وتطور التفاعل التجاري بين المدن.

وفي سورية عثر على كتابات هذه المرحلة في تل براك وماري وإيبلا وتل البيدر.

إيبلا تطور الكتابة المسمارية:

لقد قدمت وثائق إيبلا الكتابية العائدة لحوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، معطيات جديدة في تطور الكتابة المسمارية، والذي يبدو أن أوغاريت في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد سوف تتسّلم تلك المعطيات وتنحو نحو ابتكار أبجدي.

يقول الدكتور عيد مرعي: استخدم الإبلائيون الكتابة المسمارية بشكل يتناسب مع خصائص لغتهم وصفاتهم. [7] وجاء في كتاب آثار الوطن العربي القديم:

إن ألواح إيبلا كتبت بالنظام الإشاري الكتابي السومري، فقد استخدم الأكاديون والإبلائيون النظام السومري، ثم أضاف الإبلائيون خصائص لغتهم إلى الإشارة المسمارية السومرية واستخدموا أصوات إشاراتها. وقد تبين من ذلك وجود بنية لغوية إيبلائية وبذلك فتح حقل جديد من الدراسات اللغوية. [8]

ويذكر الدكتور نقولا زيادة دور إيبلا في تطور الكتابة المسمارية فيقول:

«طورت إيبلا الكتابة بحيث أنه بدل أن تكون مقطعية تامة وبدل أن تظل محلية في كل مدينة ســومرية، جعلتها أقرب إلى استعمال الحرف من جهة وبذلك وضعتها من جـــهة أخرى على خط التطور حيث أصبحت في متناول العموريين وغيرهــم حيث انتهى الأمر بها أن أصبحت حــروف هجاء»[9].

الكتابة الأبجدية:

استمر الغليان المعرفي في سورية لجهة تطوير الكتابة.. إلى أن تمخض عن انعطافه ثانية حضارية، فالانعطافة الأولى في بداية اختراع الكتابة وهذا قد يؤسس في موقع الجرف الأحمر؟ حتى الآن.

أما الانعطاف الحضاري الثاني، فتم بعد ألف عام تقريباً من فاعلية إيبلا التطويرية للكتابة، ففي أوغاريت تمت الصياغة النهائية لتطور الكتابة المسمارية، فعبر الكتابة الأبجدية استطاع الإنسان تصوير كل صوت من أصوات اللغة برمزٍ خلق من أجله، فأصبح الرمز الكتابي يعكس صوتاً فرداً وصارت مجموعة الرموز تعكس كلمات بألفاظها وأصواتها كاملة.

وبذا صار بإمكان كل إنسان أن يكتب لغته كما يتكلمها ويسمعها وأن يقرأ ما كتب غيره من ذوي اللغات الأخرى. [10]

وبهذا نستطيع إدراك البعد الشمولي والإنساني في ابتكار الأبجدية.

انتشار الأبجدية السورية:

سلكت الأبجدية السورية ثلاثة اتجاهات نحو العالم، وهذا عبر تنامي التفاعل التجاري الاقتصادي في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً.

وقد أدى ذلك إلى خلق أبجديات استندت على الفعل الأبجدي الحضاري الأوغاريتي...

فقد استطاعت «اللاتينية والسلافية» أن تصبحا وسيلتي الحضارة والتقدم الإنساني الوحيدتين في تاريخ البشرية المعاصر.

فالطريق الأول: هو بلاد اليونان: حيث أخذ الإغريق الأبجدية وطوروها كاملة عبر حروف العلة.

والطريق الثاني: كان باتجاه الهند والهند الصينية والجزر الأندونيسية حيث تولدت كتابات جديدة.

أما **الطريق الثالث:** فكان باتجاه آسية الداخلية عن طريق الأبجدية الآرامية (في الألف الأول قبل الميلاد) التي هي وليدة الأبجدية الكنعانية حيث وصلت إلى بلاد المغول ومنشورية. (11)

يقول العالم جاليلو جاليكي:

«في الأبجدية الكنعانية تحقق تصور لطريقة يمكن بها تأكيد التواصل الفكري بين البشر مهما تباعد المكان وعبر كل زمان، وهي طريقة تصلح للتحدث إلى الذين لم يولدوا بعد.. وإلى الذين سيولدون بعد ألف أو آلاف من السنين». (12)

أما المؤرخ أرنولد توينبي فيقول: «لقد أظهرت سورية قدرتها الوطنية على الخلق، فقد خطت خطواتها الأولى لاختراع أحرف الهجاء، وقد أصبحت هذه الآن بأشكالها المختلفة، كتابة العالم بأكمله، باستثناء آسيا الشرقية». (13)

أما العالم الفرنسي جورج تات فقد أضاف:

«إن التراب السوري يخبئ في أعماقه عدداً لا يستهان به من بين أهم

فصول قصة الإنسان، من بدايات الاستقرار وبواكير الزراعة إلى نشوء الحواضر وتطورها إلى ازدهار الممالك... إلى خطوات الكتابة والأبجدية منها بنوع خاص». (14)

وبعد، هل نغالي إذا رددنا مع والتر ج. أونج من أن الكتابة غيرّت شكل الوعي الإنساني أكثر من أي اختراع آخر. لا بل أعادت بناءه. (15)

وقد استخدمت الكتابة المسمارية في كامل مدن المشرق العربي القديم، وكتبت اللغات السومرية، الأكادية، الايبلاوية، المارية (نسبة لمدينة ماري السورية)، الأوغاريتية، البابلية، العمورية، الآشورية، بالأحرف المسمارية، مع الأخذ بعين الاعتبار مجريات تطورها صعداً، مع الزمن وملاحظة بعض الخصوصية بين مدينة وأخرى.

كما استخدمتها شعوب أخرى لاتمت لشعب اللغات أو اللهجات المشرقية العربية، بصلة لغوية أو أثنية كالحثيين والعيلاميين والحوريين والأوراثيين.

المدن والمواقع السورية القديمة التي عثر فيها على رقم طينية:

حوت المواقع السورية التي تعود إلى الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، على رقم طينية، تزيد على سبعين ألف رقيم /وذلك حتى الآن/. وتنبغي الاشارة إلى أن المدن الكبيرة، حوت على أرشيف ملكي يزيد في تعداد رقمه على عشرات الألوف، كمدن ايبلا وماري وأوغاريت وغيرها، ويعتقد العلماء بأن موقع مدينة قطنة، قرب حمص يعد بآلاف الرقم.

ولعل من أهم المواقع السورية التي عثر فيها على الرقم الطينية: ايبلا، أوغاريت، ماري، شوباط انليل، تل براك، تل البيدر، تل الفري، تل حديدي، تل الشيخ حمد، تل حمام التركمان، تل البيعة، ممباقة، ابن هانئ وغيرها..

التراث الكتابي المشرقي ــ اللغات / اللهجات المشرقية القديمة واللغة العربية:

يعود للألواح المسمارية المكتشفة، في كامل مدن المشرق العربي القديم، الفضل في الكشف عن نمط حباة وتفكير أجدادنا. وفي تقديم الدلالات الأولى لبداءة نشوء النظم الحياتية على اختلاف أنماطها، الاقتصادية والاجتماعية والذهنية والثقافية، والمعتقدية والقانونية وغيرها. ولعل هذا ما يدفعنا لوقفة في مجال اللغات المشرقية القديمة، لجهة علاقتها باللغة العربية.

وهذا الأمر مهم لأسباب عدة:

أولها: أنه شأن معرفي لغوي ــ تاريخي، يهمنا للكشف عن جذور اللغة العربية.

ثانيها: أنه شأن يعنى بحقنا في تراثنا الكتابي والشفوي، لاسيما أن الدوائر الصهيونية، تسعى جاهدة لتشويه الحقائق التاريخية والعلمية، من أجل ايجاد مبرر تاريخي لوجود اسرائيلي مزعوم، في المنطقة العربية.[16]

ثالثها: تجمع كافة الدراسات اللغوية التاريخية، على وجود صلة عميقة ومستمرة، بين اللغات المشرقية القديمة واللغة العربية، [17]. وسوف نستعرض هذا الأمر بشيئ من التفصيل:

ففي دراسته القيّمة، يتحدث الدكتور محمد بهجت قبيسي[18]، عن الوشائج المتينة بين اللغات / اللهجات المشرقية القديمة، واللغة العربية فيقول:

«تحوي اللغة العربية الفصحى، من الأكادية بفرعيها الآشوري والبابلي على 60% من مفرداتها. ومن الكنعانية على 94%، ومن الآرامية على 75%.».

في حين يؤكد الدكتور علي أبو عساف، على هذه الوشائج بالقول:

«نحن في العالم العربي، كغيرنا من الأمم، لا نتكلم فقط بلغة عربية فصحى موحدة، بل لدينا لهجات نسميها عامية تعود في أصولها إلى تلك اللهجات القديمة الأكادية والكنعانية والآرامية.. وان اللغة العربية هي وريثة تلك اللهجات بكل ما في الكلمة من معنى.». [19]

وعلى نفس المنهج يقول الدكتور محمد محفل:

«إن لغاتنا القديمة يجب أن ندرسها، انطلاقاً من اللغة العربية، فاللغة العربية جاءت وجبّت ماقبلها واحتوت الأكادية والبابلية والآشورية والآرامية». [20]

لا بل أن الدكتور فيصل عبد الله يؤكد «أن اللغة العربية كانت وما تزال المفتاح لفهم وترجمة النصوص الأكادية ولهجاتها». [21]

وعليه، فلا بأس من أن نستعرض بعض المفردات الايبلائية، والأكادية لتبيان درجة قرابتها للغة العربية، لابل وتطابقها في أحيان كثيرة:

الايبلائية:

أنثتوم = أنثى (بالعربية)	ذكروم = ذكر	حيوم = حي
شهروم = شهر	مشطوم = مشط	عينوم = عين
اصبعوم = إصبع	بقروم = بقر	وركوم = ورك
لقلقوم = لقلق	يمينوم = يمين	أخاتوم = أخت
بيتوم = بيت		

وهناك مفردات كثيرة أخرى، يمكن لمن تهمه، أن يعود إلى كتاب «ايبلا» [22].

ولنتابع أيضاً بعض المفردات الأكادية، ونرى مدى قربها من العربية:

الأكادية:

قبرو = قبر /بالعربية/

أرصيتو شبليتو = أرض سفلية /العالم السفلي/

أرصيتو اليتو = أرض عليا /حيث يعيش البشر/

أرصيتو ميتوتي = أرض الأموات

خربو = خربة

دوموزي = تموز

خطيتو ــ خطو = خطيئة

رابيستو = المتربص [23]

وثمة أيضاً الكثير من المفردات، التي توضح القرابة اللغوية والألسنية بين اللغات المشرقية القديمة واللغة العربية.

تراثنا الكتابي واللغوي بين الاستشراق ومحاولات التهويد:

من المعلوم أن الظروف السياسية، في المشرق العربي في القرن التاسع عشر ومن ثم في حوالي النصف الأول من القرن العشرين. لم تكن مؤاتية كي يقوم أبناء المشرق بعمليات المسح والكشف الأثري،

ما جعل العالم الغربي يتجه بنظره نحو المشرق، عبر القناصل والبعثات التبشيرية والعلمية.

وكان من نتيجة ذلك، أن اكتشفت مدينة أوغاريت عام 1929، على يد الفرنسيين. وتبع ذلك الكشف عن مدينة ماري عام 1933، أيضاً على يد الفرنسيين. وبعد استقلال سورية، تمّ التنقيب من قبل الغربيين اعتماداً على اتفاقيات وعلاقات علمية ثقافية، مع الدول المعنية وباشراف الدولة السورية لهذا فقد كان طبيعياً أن يتم اكتشاف مدينة ايبلا، على يد البعثة الإيطالية، ولكن أصبحنا الآن أمام معيار جديد في مجال الكتابات المسمارية والدراسات اللغوية، والحقيقة أن هذا المعيار بقدر ما يعبّر عن الجهود الكبيرة والنزيهة، التي قام بها المستشرقون وقارئو الرقم، واللغات القديمة، الاّ أن ما يحزّ في نفس كل مهتم، أنه لم يتم إلى الآن ربط تراثنا الكتابي واللغوي القديم، باللغة العربية عبر منهج علمي رصين، ودراسات محكمّة. وبقيت معظم الجهود عبارة عن جهود فردية [24]، بعضها يصيب وبعضها يخطئ، وبعضها يبعث على الاختلاف بين الباحثين العرب. وكل هذا يعود إلى عدم وجود مؤسسة تعنى بالدراسات اللغوية، تضم جهود الباحثين واختلافاتهم تحت سقف الحقيقة العلمية.

وبرأينا أن خطورة هذا الأمر تتعدى الشأن العلمي، إلى الشأن

الصراعي مع الحركة الصهيونية ووليدها الكيان الاسرائيلي. وكذلك عبر تجيير هذه الحركة لأبواق «علمية» غربية، استطاعت شراء ضمائرها خدمة أطروحات اسرائيل المزيفة، وسعياً منها لايجاد مبرر تاريخي، لوجودها في المنطقة العربية [25].

ولعلنا لو تابعنا هذا الأمر، الخطير عبر مايقوم به بعض المستشرقين ودارسي لغاتنا القديمة من محاولات بعضها مقصود وبعضها الآخر غير مقصود، لكنه يصب في المحصلة في مناحي سلبية، نحن في غنى عنها وتحتّم بالتالي التفكير الجدي بانشاء معهد أو مركز يعنى بالدراسات المسمارية واللغوية للمشرق العربي القديم.

الاستشراق في دائرة الاتهام:

لعلنا نتفق على أن ليس كل استشراق، اشراقاً بالنسبة لنا. وما قام به الغربيون من كشف ومسح وتنقيب، لم تكن غايته بحال من الأحوال سوى ارضاء نزعاتهم العلمية والبحثية، بغض النظر عن موقف أصحاب العلاقة /نحن/ مما يقومون به. /ولاسيما قبل الاستقلال/.

بناء على كل هذا، فقد أصبح ما يطلق عليه «علم الأكاديات»، احتكار غربي وأميركي.

فلو أن الصلة الواضحة والقائمة، بين لغاتنا أو لهجاتنا القديمة، والغة العربية، تحتم البحث عن منهج علمي، يربط بين ماضينا الكتابي واللغوي وحاضرنا ذو الصلة، غير أن هذا لن يحصل مادام ليس باستطاعتنا، الوصول إلى لغة ايبلا الاّ عبر القاموس الايطالي، وكذلك بالنسبة للأكادية التي تحتاج للقاموس الألماني، والانكليزي، ولغة أوغاريت التي تحتاج للقاموس الفرنسي وربما الألماني. وهكذا دواليك.. وبمعنى آخر، نحن أمام نهج تفكيكي لغوي، فرضته طبيعة العمل الأثري، عبر اختلاف جنسيات ولغات البعثات الأجنبية العاملة، ما أدى إلى تشتت الجهود واختلاف مدارسها.

يقول د. فيصل عبد اللــه:

«لم يكن في نية علماء التاريخ القديم في الغرب، في أي وقت أن يقيموا الصلة بين إنسان الأمس الذي كتب بتلك الكتابات السحرية وأبدع تلك الحضارة التي باتت من الجذور الأقدم للحضارة الإنسانية، وبين إنسان اليوم الذي يعيش بلا انقطاع في تلك المنطقة ويتحدث بلغة مفتاح لها.. ولم يجد هؤلاء العلماء من مصلحتهم القومية ولا الشخصية «العلمية»، نسبة القول أن فضل قيام الحضارة القديمة يعود لأسلاف عرب اليوم وحضارتهم ولغتهم، انهم يتجاهلون ذكر العرب والعربية، واستمرارية الحضارات القديمة في العربية وحضارتها» [26]

وعطفاً على هذا، يقول د. علي أبو عساف:

«ان معظم العلماء (الغربيين) المهتمين بدراسات لغاتنا القديمة، قللوا من استشهادهم بمفردات اللغة العربية، وقواعدها حين يدرسون نصاً من لغاتنا القديمة واكتفوا في غالب الأحيان بايراد مرادفات عربية للكلمات الواضحة المعنى، وتجنبوا نهائياً مقارنة أي كلمة ذات معنى غامض، كما هو الحال بالنسبة للأوغاريتية مع الكلمات العربية، ومرد ذلك برأيي، صعوبة الإمساك بمفردات اللغة العربية وقواعدها من قبلهم».[27]

ونعتقد أن د. أحمد هبو، لامس أسباب الصعوبة التي يعانيها العلماء الأجانب في استيعاب اللغة العربية فيقول:

«إننا لانجد صعوبة ما في قراءة كتاباتنا «العربيةالقديمة»، الاّ أن الغربي لايستطيع فهم ذلك لأنه اعتاد قراءة كتاباته التي تشتمل على الحروف الصامتة والصائتة معاً، وهي كتابات كاملة حقاً لاتدع مجالاً لامكانات مختلفة للقراءة كما يحدث في كتابتنا العربية». [28]

بناءً على كل هذا أصبحنا أمام حالة شيه قطيعة بين موروثنا الكتابي ــ اللغوي وبين لغتنا العربية،

فالذي درس كتاباتنا القديمة ولهجاتها من الغربيين، بعيد لجهة الذهنية والألسنية عن اللغة العربية، ويبدوأن الغربيين استمرأوا هذا الأمر فكرسوه، كنوع من الجشع والأنانية العلمية.

اذن نحن مطالبون في مجال كتاباتنا ولغاتنا القديمة، بمهمات عدة:

أولها: ترجمة ونقل المجلدات التي تشمل محتويات الرقم المسمارية السورية، إلى اللغة العربية. فمحفوظات ماري أصدرها الفرنسيون بما يفوق 40 مجلداً، وتحمل اسم محفوظات ماري الملكية.

أما محفوظات ايبلا فقد أصدر الايطاليون حوالي 15 مجلداً، بالاضافة إلى ما تصدره جامعة نابولي.

وكذلك أصدر الفرنسيون ترجمة للرقم الأوغاريتية في مجلدات كثيرة إلى اللغة الفرنسية. بالاضافة إلى ما ترجم من رقم المواقع السورية الأخرى كتل البيدر وشوباط انليل وابن هانئ وغيرها..

ثانيها: السعي لانشاء منهج لدراسة الكتابات المسمارية، ولغاتها في ضوء اللغة العربية.

ويبدو أن هذا الأمر يحتاج إلى جهود متواصلة ومخلصة، لأن ثمة خلافات كبيرة بين الباحثين، هذا من جهة، ولأن المدارس الغربية في قراءة لغاتنا القديمة، تختلف في مناهج بحثها.

ثالثها: العمل على انشاء كوادر وخبرات سورية في هذا المجال، لأن هناك شح في أعداد الباحثين. بالاضافة إلى ندرة الخبراء في مجال ترميم الرقم.

رابعها: محاولة اعادة قراءة وتدقيق ماترجم من الرقم، من قبل المستشرقين بعد أن بيّنا عدم استطاعتهم، الاحاطة بمثل هذا العمل بشكل كامل لاختلاف الذهنية واللغة. وعدم اعتمادهم على اللغة العربية كمفتاح لفهم لغاتنا القديمة. بالاضافة إلى صعوبة فهم اللغة العربية من قبلهم.

خامسها: السعي لانشاء معاهد /تتبع للجامعة/ لتعليم لغاتنا القديمة، من أكادية وايبلاوية ومارية وأوغاريتية وآرامية وغيرها..

ان تحقيق هذه المهمات يعيد منجزنا الحضاري الينا، وبهذا نكون قد ربطنا لساننا العربي بنواته الأولى أو جذره الأول دونما تحريف أو

مغالطات أو حتى محاولات تزوير، ولاسيما ماتحاوله الدوائر الصهيونية، في الآثار والتاريخ والمدرسة التوراتية في قراءة التاريخ. وهذا ما سنناقشه في فقرتنا التالية.

المدرسة التوراتية في الآثار والتاريخ وتراثنا الكتابي واللغوي:

شكّل يوم 1872/12/3 مفصلاً هاماً، في اسقاط النظرية التوراتية في قراءة تاريخ منطقة المشرق العربي فحتى ذلك التاريخ، كان كتاب التوراة يعتبر المرجع الأساسي والوحيد في قراءة تاريخ المشرق العربي القديم الذي يمتد لما وراء القرن السادس قبل الميلاد.

ولكن في ذلك اليوم يقف جورج سميث أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن، ليعلن عن اكتشاف ألواح فخارية /رقم/ في مدينة نينوى تحتوي على تاريخ مشابه لأدق التفاصيل لرواية الطوفان التي وردت في التوراة /سفر التكوين/. بما يعني أن التوراة استوحى هذه الرواية، من الوثائق المسمارية المشرقية.

ونتيجة ذلك يعلن سميث «أن التوراة لم يعد هذا الكتاب الذي يختلف عن بقية الكتب.. وليس الكتاب الذي أملاه اللـــه أو كتبه بنفسه» (29).

وهذا ما أعاد التوراة إلى مجرد كتاب حكايات وروايات، وليس كتاباً تاريخياً.

والذي جرى آنذاك، أن إعلان سميث هذا لم يمر مرور الكرام، فقد أثيرت حوله الاحتجاجات، وقامت عاصفة من الاستنكار أثارها رجالات انكلترا الفيكتورية، والتي كانت التوراة بالنسبة لهم «كتاباً مقدساً منزلاً من السماء».

وهذا ما يعالجه المؤرخ زينون كاسيدوفسكي بقوله:

«لم يكن في مقدورهم تصديق أن قصة نوح هي مجرد أسطورة اقتبست من الرافدين». (30)

ثم تكرّ السبحة، ولتكشف وثائق أوغاريت عن سرقات كاتب التوراة

/عزرا وزرو بابل/ للكثير من التراث المشرقي القديم، بالإضافة لوثائق بابل وآشور وماري وايبلا.. الخ.

والذي يبدو أن ثمة خيطاً رفيعاً يصل بين من كتب التوراة /ومن خلفه من الأحبار/، وبين المدرسة التوراتية. وقد جهدت هذه المدرسة في محاولة تكريس التوراة ككتاب تاريخي، غير أن من أحبط نواياها، هو وثائقنا المسمارية وكتابات أجدادنا الأولى. ونتيجة ذلك تم تعرية التوراة ولاسيما في أسفاره الخمسة الأولى بما حوته من انتحال وتحريف وتزوير، كشفته الحقائق العلمية والتاريخية والآثارية.

لكن كل هذا لم يجعل هذه المدرسة، تستكين أو تنسحب إلى قوقعتها وتحجّرها.. لا بل أنها ومع كل كشف أثري جديد في المشرق العربي، يسّن أتباعها أقلامهم ليبدؤوا بأكاذيبهم وافتراءاتهم وادعاءاتهم، في محاولة منهم لإيجاد مبرر تاريخي ــ أثري، يبرر اغتصاب فلسطين، وتطلعاتهم نحو«أرض ميعادهم التوراتية» والممتدة من الفرات إلى النيل. ومع كل أساليبهم لم يجدوا /ولن يجدوا/ أي أثر يهودي يدل على وجود ما في المشرق العربي القديم [31]، ولهذا أسبابه التي منها:

إن الإسرائيليين القدماء والذين طرأوا على فلسطين، كانوا عبارة عن قبائل بدوية صغيرة، أقامت على هامش الوجود الكنعاني الكبير والحضاري. وجرى في التوراة تضخيم وجودهم وأعدادهم. وبمعنى آخر أن ثقافتهم البدوية الأولية والفقيرة بالغنى الحضاري جعلتهم عالة على المجتمعات الكنعانية، بالإضافة إلى بعدهم الحضاري الثقافي عن العمران والتمدن، وما خرافة هيكل سليمان، سوى بدعة لا معنى لها يتم التحدث عنها كتعويض عن دونيتهم الحضارية من جهة، وعن بعد استيطاني توسعي. وطالما أن موضوعنا يتعلق بالكتابات المشرقية القديمة، فلا بد أن نذكر أن الإسرائيليين القدماء /ولغياب الأساس الحضاري عندهم/ تكلموا /شفة كنعان/ وهذا ما جاء في توراتهم هم!. والحقيقة أن اللغة التي كانوا يتكلمونها آنذاك هي مزيج من الكنعانية القديمة مع الآرامية الأولى، إضافة إلى لهجة فلسطينية محلية. [32]

كما أن اليهود الحاليين الذين احتلوا فلسطين ومن ثم المستوطنين، لا رابط أثني يربطهم مع اليهود القدماء، فهؤلاء الآن ليسوا سوى شراذم من شعوب كالخزر وغيرهم.

ولنعد الآن إلى ممارسات المدرسة التوراتية ومحاولاتها في تزييف الحقائق العلمية والتاريخية، وبداءة، سوف نحاول رصد المراكز التوراتية في التاريخ، والتي ما تزال تقوم بمهامها!! رغم الفشل الذريع الذي حققته، والذي أكدته عدة حقائق:

أولها: أن هذه المدرسة في قراءة التاريخ، قد ثبت بطلان اطروحاتها التي تجافي العلم والحقائق التاريخية، وبالتالي لم يعد ثمة مسوغ للأخذ بطروحاتها. وهذا ما أدى لاعتبار التوراة مجرد كتاب قصصي لا علاقة له بتاريخ المنطقة العربية. وأضحت وثائق الشرق العربي القديم، بغناها وشموليتها هي المعبرّ عن مجريات حركة التاريخ والمجتمعات في العالم القديم.

ثانيها: أن الوثائق المسمارية أسهمت في فرز مواقف المستشرقين، ودارسي تاريخ المشرق القديم، طالما أنها أظهرت، مدى الانتحال والتزوير الذي مارسه كاتب التوراة ومن معه، والغريب أنه إلى الآن تجري محاولات تزوير لكل قاموس أو كتاب ذي ميول توراتية، يمكن أن يحوي على«هفوة» أو معلومة، لايريدها العلماء التوراتيون.

المراكز التوراتية في التاريخ والآثار:

كما كان للحركة الصهيونية، خططها ومؤامراتها الاغتصابية والسياسية والمالية والإرهابية، فقد انسحبت ذهنيتها هذه، على تراث المشرق العربي القديم. خصوصاً باستنادها على الركيزة التوراتية الميعادية (أرض اليعاد)، مما جعلها تحاول المرة تلو الأخرى، تشويه الحقائق التاريخية والآثارية، من أجل ايجاد مبرر تاريخي لاغتصابها الأرض العربية. ولا بأس من ذكر بعض المعاهد والدوائر الأثرية والتاريخية التوراتية، التي ساهمت وما تزال في محاولاتها تلك:

1- American Palestine exploration society.

ويعود تأسيسه إلى عام 1870

2- American school of oriental researches.

ويعود تأسيسه إلى عام 1900

3- Ecole pratique d,etudes bibliques.

ويعود تأسيسها إلى عام 1892

4- Deutsch evangelische institut fur altertum wissenscheft des heigen landes .

ويعود تأسيسها إلى عام 1902

5- The british school of archaeology jerusalem .

1919. (33)

والذي يـــلاحظ في هذا المجال، هو قدم زمن تأسيس هذه المعاهد والمراكز، بما يوحي بتلازم تأسيسها مع مجيء البعثات التبشيرية إلى منطقة المشرق العربي، واهتمام الغرب بهذه المنطقة، كمشروع استعماري.

وكذلك استطاعة الحركة الصهيونية، من شمول دوائرها الأثرية، على لغات العالم الأساسية، الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية.

وباستعراض لنشاطات هذه المراكز، يمكننا تحديد أساسيات مهامها:

فحين تم اكتشاف نينوى، في القرن التاسع عشر، انصب جهد التوراتيين الآثاريين في البحث عن آثار يونس التوراتي.

وعندما كشف في نفس الموقع، عن نص مسماري يروي قصة الطوفان، تم تجنيد حملة من الدوائر إياها، وبدعم صهيوني. لإثبات مالا يثبت.

وعندما أعلن رولنصون أنه قرأ في أحد النقوش الآشورية، خبراً عن حصار أورشليم من قبل سنحاريب الآشوري، انهالت الاستفسارات والاستيضاحات من كل حدب وصوب.

ويتم اكتشاف مدينة أوغاريت ومحفوظاتها، فتبدأ التقارير والدراسات التي تتحدث عن التشابه الكبير والمذهل بين نصوصها ونصوص التوراة. وتبين فيما بعد أن التوراة أصبحت مكشوفة أكثر لجهة السرقات من التراث

المشرقي.

ومع اكتشاف ماري، هاج أتباع المدرسة التوراتية، فقد أدى ظهور أسماء أشخاص وقبائل في وثائق ماري، إلى محاولات ميؤوس منها من أجل إعادة رسم الطريق الذي عبره ابراهيم الخليل، في ضوء المعطيات التوراتية.

وجاء اكتشاف ايبلا، وهنا تكشفت الأقنعة بشكل سافر من قبل هذه المدرسة. وتبين أن ثمة لغويين غربيين يعملون عندنا، هم من ركائز المدرسة التوراتية. وهذا ما تبدى حين أعلن «جيوفاني بيتيناتو» قارئ رقم ايبلا، أنه ورد في نصوص ايبلا أسماء خمس مدن، وردت في التوراة وهي: مجيدو، شكيم، غزة، سودوم، عمورة.!!؟. ولكن بعد قراءة الرقم من قبل لجنة دولية متخصصة، تبين أن بيتيناتو، جافى الحقائق العلمية واللغوية لصالح بعد سياسي صهيوني. والمضحك في الأمر أن ما فسره ذلك العالم؟ لم يتعد أن يكون ذكر لسبائك معدنية!!؟. [34]

فهل يضيع على العالم تمييز أسماء المدن عن السبائك المعدنية؟.

طبعاً، لم تيأس تلك الدوائر في محاولاتها، لا بل تسعى إلى تجييش وسائل الإعلام الغربية، في حملتها، حيث تظهر في التايمز اللندنية في 1976/10/18، وفي نيويورك تايمز، مقالات تتحدث عن احتمال أن تكون ايبلا هي القدس بالذات.!!؟.[35]

ثم تجند هذه الدوائر صحافيين، لنشر كتاب أسموه «ايبلا ثورة في عالم الآثار»، حيث تحدثا من خلاله، أن اللغة الايبلاوية هي لغة عبرية!!؟. وأن تاريخ ايبلا توراتي!! ثم توصلا في ادعائهما إلى القول أن اللغة الايبلاوية قريبة من العبرية ولا يمكن أن تكون جدّة اللغة العربية!!؟. [36]

أيضاً، يمكننا ملاحظة كيف تعمد هذه الدوائر للتلاعب بما وقع من هفوات لدى كاتبي التوراة، فتحاول إصلاحها بما يلائم غاياتها ومؤامراتها، فقد لاحظت هذه الدوائر أن سفر اشعيا في التوراة يحوي في إصحاحه 19، الفقرة18، قولاً: تكلمت شفة كنعان، وهذا يثبت أن اليهود آنذاك قد تكلموا اللغة الكنعانية، وهذا لم يناسب المدرسة التوراتية الأثرية فأوعزت لتغيير

هذه الجملة، لهذا تصدر طبعة جديدة للتوراة عن جمعية التوراة الأميركية في نيويورك بتاريخ 1976 سوف تقلب الجملة إلى «تكلمت اللغة العبرية»!! [37].

ويورد د. محمد بهجت قبيسي في كتابه الهام «فقه اللهجات العربيات»، شواهد لأضاليل هذه الدوائر، حيث يذكر أن العالم درايفر المهتم باللغة«العبرية» والآراميات، صادر قاموس جيزينيوس والمسمى، القاموس العبري ــ الكلداني، وحوله إلى قاموس جديد تحت عنوان: القاموس العبري ــ الانكليزي للتوراة حيث أسقط اسم الكلداني!!. ويذكر الباحث قبيسي أن درايفر عمد إلى الغاء أكثر الكلمات العربية العدنانية الواردة في النص الأصلي.

وفي دراسته للمعجم الأوغاريتي الذي وضعه جوردون، لاحظ قبيسي أن المؤلف يريد أن يقول أن أكثر الاسماء الشخصية وأسماء الأماكن والأسماء الكهنوتية، هي توراتية!! وقد بلغ تعداد هذه الكلمات، 2975 كلمة. ويصل الدكتور قبيسي للقول: ان النصوص الأوغاريتية ام تقرأ بعد بصورة صحيحة، رغم أن هذه الكلمات التي ردها جوردون إلى التوراة، ماهي في الحقيقة الا كلمات تمتّ في 94.81% إلى اللهجة العربية العدنانية. [38]

ولعل هذا غيض من فيض بما تقوم به دوائر التوراة الأثرية والتاريخية. عبر خطة منظمة، ومحكمة، تؤدي إلى مزيد من التهويد للذهنية الغربية من جهة، والى محاولات يائسة وغير مجدية لمصادرة تراثنا الكتابي واللغوي حسب غاياتها وأهدافها السياسية التوسعية.

ويبدو أن المستشرقين الموضوعيين، استطاعوا أن يكشفوا ألاعيب وعدم علمية هذه الدوائر[39]، لهذا ونتيجة لكل ذلك يقول العالم لوريتس: لن يكون مستغرباً أن تعود الأشباح للظهور مجدداً [40]. ويقصد أتباع المدرسة التوراتية.

كما تقول الباحثة الألمانية هيلغا زيدن: ان علم الآثار التوراتي سبّب الكثير

من الدمار والضرر في دراسة تاريخ المنطقة العربية، وكل إسرائيل قائمة على التوراة، وهم يقولون لقد جئنا إلى فلسطين لأن التوراة قالت ذلك، وهذا برأيي غير ممكن ولا يمكن القيام بذلك تحت أي ذريعة أو توهم أو احتمال.

وتتابع زيدن القول: مأساة الإسرائيليين تكمن، في رغبتهم بأن يبرهنوا حقائق حديثة تاريخية وسياسية عن طريق التوراة /كتاب قديم/ ولا أظن أن هذا ممكناً من منطلق العلم[41].

وأخيراً، في تاريخ البشرية اختراعان يشكلان منعطفاً هاماً في مساق الحضارة الإنسانية وتطورها

الأول: اختراع الكتابة وتالياً الأبجدية.

والثاني: المعلوماتية والتي تعتبر الابن الشرعي للاختراع الأول. وعليه، فهل نولي تراثنا الكتابي واللغوي مايستحقه، من الاهتمام عبر انشاء مركز يعنى بدراسة كتاباتنا القديمة ولهجاتها، كي نحقق أهم ترابط علمي تاريخي، عنيت، اللغة العربية التي جبّت كل لهجاتنا القديمة.

الـهوامش

(1) والتر. ج. أونج. الشفاهية والكتابية. عالم المعرفة. العدد 182 ــ 1994

(2) ثمة تداخل تاريخي ــ اجتماعي، أكدته المعطيات الأثرية، ووثائق العصور التاريخية، بين الجناح الشرقي للمشرق العربي /الرافدين/، والجناح الغربي /بلاد الشام/. ويتبدى هذا التداخل بالتفاعل الديموغرافي الاجتماعي، بين أرومات المشرق القديم، الأكادية ــ العمورية ــ البابلية ــ الآشورية ــ الكنعانية ــ الآرامية.. الخ. وهذا ما يتوضح في حركة التاريخ آنذاك، في زمن صارغون الأكادي، وحمورابي، وشمشي أدد.. وفي معظم الظواهر المعمارية ــ المعتقدية. والفنية حيث نلاحظ أننا أمام وحدة حياة اجتماعية ــ اقتصادية واحدة، تفاعلت مع محيطها الطبيعي والحيوي، ان كان مع مصر أو الجزيرة العربية من جهة، ومع ايران والأناضول من جهة أخرى مع ملاحظة، الامتداد الكنعاني بما يتجاوز المدى الحيوي، كنتيجة طبيعية للوجه البحري للفاعلية الكنعانية الساحلية. وبالنسبة لموضوع بحثنا، فلا بد من التأكيد على دور المرجل الحضاري الأوغاريتي الكتابي، والذي استفاد من المعطيات الكتابية الهيروغليفية والمسمارية، لينبثق بابتكار الأبجدية.

(3) الجديد حول الشرق القديم. مجموعة باحثين. دار التقدم. موسكو. 1988

(4) le point .danielle stordeur 7/12/1996.

(5) en syrie aux origines de l,ecriture 1997 brepols

(6) د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة. دمشق. 1988

(7) د. عيد مرعي. ايبلا. دار الأبجدية. دمشق. 1996

(8) د. فيصل عبد الله. د. عيد مرعي. د. محمود عبد الحميد. آثار الوطن العربي. جامعة دمشق.

(9) مجلة الفكر العربي. 52. د. نقولا زيادة. بيروت.

(10) د. أحمد هبو. الأبجدية. دار الحوار. اللاذقية. سورية. 1984

(11) المرجع السابق.

(12) مجلة المعرفة السورية. د. محمد حرب فرزات. العددان: 298 ــ 299

(13) آرنولد توينبي. تاريخ البشرية. ج1. ت: نقولا زيادة. الدار الأهلية. بيروت. 1981

(14) المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية. ifapo 1989

(15) والتر أونج. مرجع سابق.

(16) راجع فقرة الدوائر الأثرية التوراتية، في سياق البحث.

(17) بامكان القارئ الرجوع إلى الكتب التالية للاستزادة: «فقه اللهجات العربيات» للدكتور محمد بهجت قبيسي. دار شمأل. دمشق. 1999. وكتاب الدكتور ألبير نقاش وحسني زينة والذي تحت عنوان «أخذة كش». عن دار المطبوعات. بيروت. 1989، وكتاب الدكتور علي أبو عساف «نصوص من أوغاريت»، وزارة الثقافة. سورية. 1988. وكتاب «مقدمة في علم الأكاديات» للدكتور فيصل عبد الله. دار الأبجدية. دمشق. 1990

(18) د. محمد بهجت قبيسي. مرجع سابق.

(19) د. علي أبو عساف. نصوص من أوغاريت. وزارة الثقافة. سورية. 1988

(20) الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية. وزارة الثقافة. سورية. 2000

(21) د. فيصل عبد الله. مقدمة في علم الأكاديات. دار الأبجدية. دمشق. 1990

(22) د. عيد مرعي. مرجع سابق.

(23) د. نائل حنون. عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة. وزارة الثقافة. بغداد 1986

(24) هناك جهود فردية، قام بها بعض الباحثين العرب، مثل أنيس فريحة، ألبير نقاش وحسني زينة، عدنان أبو عساف، محمد بهجت قبيسي، طه باقر...الخ. ولكن هذه الجهود بقيت ضمن اطارها الفردي، ونحن نعتقد أن وجود مؤسسة تضم جهود الباحثين العرب، ولاسيما في بلدان المشرق العربي، المعني أكثر من غيره بمسألة الكتابة المسمارية، ومن ثم تضافر جهود الباحثين اللغويين، في ميدان العربيات، على صعيد العالم العربي، يمكن أن يؤدي كل ذلك إلى ايجاد قواعد انطلاق، في مجال الكتابة واللغويات، ما يضمن وباطراد بلورة منهج لدراسة الكتابات المشرقية القديمة والعربيات، بما يستتبع من انحسار

للدور الاستشراقي في هذا المجال.

(25) راجع فقرة الدوائر الأثرية التوراتية.

(26) فيصل عبد الله. مرجع سابق.

(27) علي أبو عساف. مرجع سابق.

(28) أحمد هبو. مرجع سابق.

(29) جان بوتيرو. ولادة اله. التوراة والمؤرخ. ت: عبد الهادي عباس، جهاد هواش. دار الحصاد. دمشق. 1990

(30) زينون كاسيدوفسكي. الواقع والأسطورة في التوراة. ت: حسان اسحق. دار الأبجدية. 1990

(31) تذكر الباحثة الألمانية هيلغا زيدن أن الإسرائيليين حين ينقبون، في فلسطين فإنهم يرمون كل ما يظهر، من آثار إسلامية في البحر، وحين عثروا على لقى أثرية بشكل منحوتات للثور الكنعاني، والذي عثر على الآلاف منه بمواقع سورية، قالوا أنهم عثروا على الثور الذهبي الوارد ذكره في التوراة..!! وتضيف الباحثة، الحقيقة العلمية تؤكد أن هذا الثور كنعاتي، عثر عليه في مواقع كنعانية كثيرة. مجلة البناء اللبنانية. العدد. 762 ــ 1990/11/17

(32) الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم. مرجع سابق.

(33) مجلة الفكر العربي. مرجع سابق.

(34) للاستزادة، يمكن الرجوع إلى كتاب«وثائق ايبلا». عفيف بهنسي. وزارة الثقافة. دمشق. 1984. وكتاب «ايبلا» لمجموعة باحثين. ت: قاسم طوير. 1984. وكتاب «ايبلا منعطف التاريخ». د. عمر الدقاق. وزارة الثقافة. دمشق. 1979.

(35) د. عفيف بهنسي. مرجع سابق.

(36) المرجع السابق.

(37) د. محمد محفل. من حوارات أجريناها معه، ونشرت متسلسلة في صحيفة الديار اللبنانية. 1991/4/22 ــ 1991/4/23.

(38) د. قبيسي. مرجع سابق.

(39) بغية الاستزادة، يمكن الرجوع إلى كتاب توماس طومسون «التاريخ القديم

للشعب الاسرائيلي». ت: صالح سوداح. دار بيسان. بيروت. 1995. وكتاب فريدريك ديليتش. «بابل والكتاب المقدس» ت: ايرينا داود. دار العربي. دمشق. 1987. وكتاب جان بوتيرو (مذكور في قائمة المراجع) وكتاب زينون كاسيدوفسكي (وهو أيضاً مذكور في قائمة المراجع). وكتاب كيث وايتلام «اختلاق اسرائيل القديمة». عالم المعرفة. الكويت. 249 ــ 1999. ت: سحر الهنيدي.

(40) سورية وأصل الحضارة. دار بريبولس. 1997

(41) هيلغا زيدن. مرجع سابق.

الدراسة الثالثة

مقاربة فكرية ــ تاريخية لروحية
وخصائص حضارة المشرق العربي القديم
نموذج تدمر

إذا كان تعريف اصطلاح الحضارة la civilisation ينص على أنها مجمل المنجزات المادية ــ الروحــية، لمجتمع ما في مسار التاريــخ البشري، فإن ما ينبغي الإشــارة إليه هو البعد الإنساني لهذه المنجــزات المادية ــ الروحية وإلاّ استحال كل اختراع أو منجز مدمّر إلى فعل حضاري وهذا لا يتسق برأينا مع مصطلح الحضارة الإنسانية.

لذا يمكننا أن نحدد هذا المصطلح بقولنا أن الحضارة هي مجمل المنجزات المادية ــ الروحية ذات البعد الأخلاقي ــ الإنساني لمجتمع ما في مسار التاريخ البشري.

وهذا ما نستطيع تحديده حين نتابع تاريخ الحضارية السورية، فمن بداءة الزراعة إلى بواكير المدن مروراً باختراع الكتابة ثم الأبجدية والشرائع والعلوم والفن والآداب، إلى المعالم الواضحة في البعد الإنساني حيث نلاحظ أننا أمام هم إنساني مؤسس بامتياز في الذهنية الحضارية السورية، وهذا ما سوف نلاحظه من خلال قراءة ومتابعة تاريخ تدمر كنموذج يختزل قيم ومعايير وذهنية الحضارة السورية.

هذه المملكة التي امتدت أطلال آثارها لحوالي 12 كم^2 والتي تقع وسط سورية وفي باديتها.. والتي استطاعت تبعاً للظروف السياسية الدولية وظروفها الذاتية آنذاك من أن تحقق وتعبرّ عن أصالة الحضارة السورية وبعدها الإنساني وفعلها السيادي والحضاري... هذا ما جعل هذه المدينة الصغيرة آنذاك تؤسس لإنشاء إمبراطورية شملت المشرق العربي بجناحيه الشامي والرافدي وجزء من الجزيرة العربية والأناضول ومصر وكادت أن تطرق أبواب روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية.

يقول خالد الأسعد: (إنّ من طبيعة الشخصية السورية عبر التاريخ أن تؤثر وتتأثر بالثقافات الأخرى لكنها لا تتمثل من الثقافات إلاّ ما يلائم شخصيتها ولا تسمح لأي ثقافة بأن تطغى عليها أو تحرفها عن محورها).[1]

وهذا ما نفهمه وتؤكده عدة حقائق حول ثقافة تدمر وفرادتها رغم تبعيتها في القرون الثلاثة الميلادية الأولى للإمبراطورية الرومانية:

أولاً: ثمة حادثة جرت في تدمر في القرن الثالث ميلادي وفي فترة حكم زنوبيا لتدمر (268 – 272) م. حيث أن زنوبيا عاقبت تاجراً تدمرياً لارتكابه أخطاء وتجاوزه للقوانين التدمرية، فطلبت أن يوضع في حلبة مسرح تدمر حتى تنهشه الوحوش الضاربة والجائعة أمام الجمهور. ومعلوم أن هذا الطقس أو التقليد الوحشي هو ابتكار روماني ومارسه الرومان بإخلاص.

وفي الموعد المحدد تجمهر أهل تدمر، ونزل التاجر مرتعداً إلى الحلبة وحين ساد الصمت رهبة.. فتحت الأبواب على الوحوش الجائعة، ليخرج ديك إلى الحلبة.. فتضج الحشود بالضحك والبهجة. [2]إن موقف زنوبيا هذا يعبر عن عدة حقائق:

أولها: رفضها للتقليد الروماني الذي لا يتناسب مع الخصائص الروحية للنفسية السورية.

ثانيها: أن العقاب المعنوي الذي تعرّض له التاجر يفوق ما كان سيحصل له في حال افترسته الوحوش، سيما وأن تدمر بخواصها

المجتمعية كانت تكرّم الأشخاص الذين يحملون هماً مجتمعياً يفوق همهم الشخصي وتخلدهم في نصب تذكارية تعلّق على أعمدة تدمر.

ثانياً: عام 193 م قام أفراد الحرس الإمبراطوري الروماني بعرض الإمبراطورية للبيع بالمزاد واشتراها ديدوس يوليانوس بـــ /25/ ألف سترسة.

وحين بلغ النبأ سمع الجيوش الرومانية ثارت وأخذت كل فرقة تنصب قائدها إمبراطورا إلى أن قام قائد جيش جنوب الدانوب سبتيم سفير بالاستيلاء على عرش روما مفتتحاً حكم الأباطرة السوريين للإمبراطورية الرومانية وعلى هذا يعقّب جان بابليون بالقول:

(إن وصـــول سبتموس سفروس إلى عرش روما كان في نظر الكثيرين انتقاماً للفكر الشرقي القديم من روما) [3] وإن هذا الموقف لسبتيم سفير يؤكد على الخصائص الحضارية ــ الإنسانية عبر إنقاذه للإمبراطورية من جهة وعبر تكريسه للفعل الحضاري السوري في روما وإمبراطوريتها آنذاك وهذا ما سنلاحظه في انعكاس المعتقدات السورية ومن ثم الديانات في فعلها على بنية الفكر الروماني بدءاً من عبادة إله الشمس الحمصي وصولاً إلى المسيحية التي قضت على الفكر الروماني ومعتقداته ومروراً بالفلسفات ذات الخصائص المشرقية كالرواقية ثم الأفلاطونية الحديثة.

ثالثاً: كانت القرون الثلاثة الميلادية الأولى هي عصر العبودية والتجارة بالعبيد، وكون تدمر تقع على خط التجارة الرئيسي الدولي آنذاك بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، كان موقفها من تجارة العبيد أصيلاً ويعبرّ عن رفضها الممتاز لمثل هذه التجارة اللاإنسانية والتي مارستها روما بإخلاص.

يذكر اسحاق شيفمان أنّ تدمر لم تكن تحبذ ممارسة تجارة العبيد، ودليل ذلك أنّ نص التعرفة كان يفرض ضريبة مضاعفة على استيراد العبيد مقارنة مع ضريبة البيع والشراء الحاصلة داخل حدود تدمر. [4]

رابعاً: كان القانون الروماني يحرم وجود المدافن والمقابر داخل المدن لكن تدمر أشادت مدافنها أمام سور المدينة وداخل الأسوار. وهذا فعل سيادي يتناسب مع روحية المشرق العربي.

خامساً: كانت تدمر تكتب القوانين العالمية التجارية باللغة التدمرية وتضاف إليها إحدى اللغات اللاتينية أو اليونانية إما أن تكتب بلغة الأخر فهذا ضرب من المحال وخير شاهد على ذلك هو قانون التعرفة الجمركية الذي سنّته تدمر عام 137م والذي حوى الكتابة التدمرية واليونانية.

يقول المؤرخ مومزين: «إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية إلاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما». (5)

أما المؤرخ روستوفنسف فيقول حول نفس الموضوع: «إن تدمر لم تكن في يوم من الأيام مدينة تابعة للمقاطعة الرومانية وعندما حصلت على وضع معمرة كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلالية لكن الحكومة الرومانية أدخلت تدمر في مجال حمايتها تماماً». (6)

سادساً: تميزت الحضارة السورية وعبر مسارها التاريخي بروحية التسامح وبتآلف الاختلاف تحت سقف الولاء المديني. ولعل تدمر تعبرّ عن هذه الخاصية بوضوح عبر وجود ستين إلهاً في تدمر تدين بهم مختلف الشرائح والقبائل ولم تذكر النصوص التدمرية أي حادثة بين أتباع إله وأتباع إله آخر، لا بل إن موقف تدمر من المسيحية ذلك الدين الناشئ آنذاك كان متسامحاً رغم موقف روما المغاير لموقف تدمر وقد استطاعت زنوبيا أن تضم إلى بلاطها أسقف أنطاكيا بولص السميساطي الذي كان يمثل المعتقد الوطني في مقابل الرؤية الرومانية للمسيحية.

يقول رينيه دوسو في كتابه الديانات السورية القديمة: «لقد اتخذت تدمر شكل العاصمة مما جعلها تفرض على الآلهة التي استقبلتها مع القبائل التي تعبدها سمة محلية وتجمعاً لا مثيل له من جهة أخرى». (7)

أما شيفمان فيذكر أن زنوبيا استغلت الانقسام الناشئ بين مسيحي

أنطاكيا لمصلحتها وذلك باعتمادها على بولص السميساطي وتابعيه حيث أنه من فرقة مسيحية لم تكن تعترف بالأقاليم الثلاثة للمسيح وقد حصل بولص السميساطي على وظيفة نائب عام من زنوبيا حيث كان يمثل مصالح فقراء المسيحيين وهي الفئة التي كان منها ويدافع عنها الآن. (8)

والجدير ذكره هنا هو أنّ (أورليان) حين قضى على تدمر نزع عن بولص لقب الأسقفية وأقره لشخص آخر مؤيد للبطاركة الإيطاليين بمن فيهم بطرك روما.

ولعلنا هنا أمام صراع سيادي بين تدمر المستعمرة (بفتح الميم)و بين روما المستعمرة (بكسر الميم) وهذا ما يؤكده خ ــ تيكسدور في كتابه الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام: «كان بولص السميساطي قائماً بالمصالح التدمرية في أنطاكيا وكان يمثل باختيار زنوبيا له مقاومة الجانب السوري ضد الرومنة.. وحين عزل الامبراطور أورليان بولص كان يرمي بذلك إلى هدف سياسي» (9)

وما يلاحظ في مجال التسامح في تدمر وخلو الكتابات والنصوص التدمرية من صراعات بين الناس لأسباب معتقدية أن مقولة فصل المعتقد عن الدولة كان محققاً وهذا ما جعل تدمر تفعل حضارياً وتواجه امبراطورية روما التي امتدت من الأطلس وبحر الشمال إلى الفرات ومن الراين والدانوب إلى الصحراء الكبرى.

سابعاً: ثمة مقولة للحكيم الآرامي أحيقار مفادها «لا ترسل الصيدوني /أي ابن البحر/ إلى الصحراء ولا ترسل ابن الصحراء إلى البحر».

والذي يبدو أن تدمر لم تأخذ بهذا القول لا بل عكسته ممارسة وهذا يعني أن تدمر لم تكن هماً جغرافياً.

فالنصوص التدمرية والنقوش تتحدث عن وجود أسطول بحري للتدمريين يقوده تدمريون ينطلق من الخلج العربي، بمعنى أن التدمري مارس تجارته البحرية والبرية بنفسه.

وأنشأ التدمريون موانئ لهم على الخليج العربي في ميسان وعلى النيل

قرب ميناء أسوان(قفط)، بالإضافة إلى دورا أوربوس لا بل أن حاكم البحرين كان تدمرياً.

هذا يعني أن البيئة الطبيعية طوعّها التدمريون لمزيد من الفعل الحضاري لا الانفعال فقط.

ثامناً: كان للمرأة السورية في مسار الحضارة السورية حضور فاعل وجوهري وهذا ما لا نلاحظه في مساق الإمبراطورية الرومانية فعلى مسار الأباطرة الرومان الكثر لم نلاحظ دوراً فاعلاً للمرأة الرومانية ولو من البلاط في حمل هم الامبراطورية وهذا ما نجده صميمياً في الحضارة السورية فمن جوليا دومنة الحمصية زوجة سبتيم سفير إلى أخواتها اللواتي حكمن عرش روما عن طريق أولادهن إلى زنوبيا التي تشبه على ما يبدو مسار جوليا دومنة ولاحقاً سوف تكون تيودورا السورية من منبج زوجة جوستنيان الامبراطور ناهيك عن أليسار الكنعانية وصفو نسب القرطاجية.

تاسعاً: لعلنا نشارك فرانتس ألتهايم فكرته من أن القرن الثالث ميلادي تميز بشكل خاص بازدهار العروبة فقد أخذت تتنامى دول وممالك عربية مثل الحضر والحيرة وتدمر. (10)

والعروبة ضمن هذا المنحى لم تكن عروبة العنصر بل عروبة حضارية أساسها التمازج البشري الذي تفاعل إيجابياً مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي فتولدت لديه خصائص هي حصيلة كل الموجات البشرية المتفاعلة التي سكنت تدمر واستوطنت في واحتها وهذا ما سنناقشه في الفقرة التالية.

البنية الديمغرافية في تدمر:

استوطن الإنسان واحة تدمر وحوّل ينابيعها في الألف السادس قبل الميلاد وقد أظهرت التقنيات في معبد بل وسط تدمر دلالات استيطان في تدمر تعود إلى الألفين السابع والسادس قبل الميلاد.

وبحسب علم الأعراق فإن الناس هم من النوع المتوسطي وهم الذين كانوا يجولون في العصور التاريخية بين الجزيرة العربية والمشرق العربي

القديم ومنهم من استوطن في واحات منها تدمر. (البني ــ 1978) ففي الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد كان سكان تدمر من الأموريين والكنعانيين ومع حلول القرن الثاني عشر قبل الميلاد حيث ساد الآراميون في المشرق العربي وتمازجوا في تدمر مع الأموريين والكنعانيين ثم اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد كانت القبائل العربية عبر جولانهـــا تستقر في واحة تدمر وتدرريجياً سادت هذه القبائل في بادية الشام.

وبذا صارت بنية تدمر الديمغرافية تتألف من الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب /وهذه حالة توصيفية لا تعبير عن هوية/ ومع حلول القرن الميلادي الأول كان عدد العرب مساوياً لعدد الآراميين في تدمر (عدنان البني ــ تدمر والتدمريون) وبالتدريج ساد العرب على تدمر وهذا ما تجلى في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وهذا ما نلاحظه في بنية البانثيون التدمري فمن بين 60 إلهاً نعثر على 20 إلهاً عربياً ولعل أقدم نص تدمري يعود إلى 44 ق. م يتضمن أسماء عربية وتعابير عربية مميزة.

وقد توصل اسحاق شيفمان في كتابه (المجتمع السوري القديم) إلى أن مجتمع تدمر بحسب الوثائق التدمرية كان يتألف من نسبة جيدة من القبائل العربية وذلك في القرون الميلادية الثلاثة الأولى.

ويذكر شلومبرجه أن ثمة اتحاداً بين أربع قبائل أساسية أدى إلى ولادة تدمر في القرن الأول الميلادي أو قبل ذلك وهي: بني قمر، بني متبول، بني معزن، بني عطر. (11)

وقد انضوت باقي القبائل تحت جناح هذه القبائل الأكبر حيث يذكر تيكسيدور أنه في تدمر انتظمت القبائل والعشائر من خلال التقاليد الدينية والمواريث الأخلاقية في أربع مجموعات قبلية تترأسها إحدى القبائل العربية الأربع المسيطرة على المدينة (12) وتعلمنا المدونات أنه كان ثمة معبد محدد لكل من هذه القبائل الأربع. ومن العشائر المنضوية تحت لواء القبائل العربية والتي استطاع شيفمان تحديدها نذكر:

بني عذيــب، بني زبيــد، بني نبت، بني ختري، بني ميث، بني مجــدت، بني علاي، بني حكيــم، بني بور.. الخ [13]

بناءً على كل ذلك يمكننا تحديد هوية تدمر السكانية والثقافية بأنها مدينة سورية عربية أصيلة وهي حصيلة تمازج بين الأموريين والكنعانيين والآراميين والعرب ما أدى إلى تبلور معنى حضاري للعروبة يعكس ملامح شخصية عربية مشرقية سوف تغلّف مجرى الحضارة السورية وصولاً إلى الفتح العربي.

تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى: 2000 ــ 1600 ق. م:

إذا كان أول ذكر لتدمر والتدمريين ورد في إحدى الوثائق الآشورية المكتشفة في الأناضول في مستعمرة آشورية موقع كولتبة، كانيش وذلك في حوالي 2100 م فإن هذا يعني أن تدمر كانت تشكل فاعلية تجارية ما ولو كانت ثانوية. وقد أجرى الكونت دومنيل تنقيباً في معبد (بل) في تدمر حيث توصل إلى أنه كان هناك مدينة أمورية وأنها كانت عامرة دون انقطاع طيلة الفترة بين 2000 ــ 1200 ق. م وذكرت نقوش كانيش أن تدمر كانت مركزاً لشراء الفضة ولا يبدو من المعطيات والأدلة الأثرية التي تعود لهذا العصر أن تدمر كانت تشكل فاعلية تاريخية من الدرجة الأولى بل أنها انفعلت بالوضع التجاري والنشاط الاقتصادي عبر تبعيتها ــ نوعاً ما ــ للمدن الأقوى آنذاك ولا سيما مملكة قطنة، قرب حمص.

وبغية إيضاح الواقع التاريخي لا بد أن نضيء على الواقع التاريخي السياسي للمشرق العربي في هذا العصر مع الأخذ بالاعتبار أن ذلك العصر شهد اختفاء الفاعلية التاريخية للسومريين مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني وتوافق ذلك مع انتشار الأرومات الكنعانية الأمورية في المشرق العربي حيث أسست ممالك مدن كنعانية أمورية.

ففي الرافدين أسست هذه الأورمات دويلات في بابل وآشور أمّا في بلاد الشام فقد تأسست ممالك في ماري ويمحاد (حلب) وكركميش وقطنة وجبلا (جبيل) ودان وحاصور ومجدو.

ولم يكن الوعي المجتمعي ـــ المديني ليرقى بين هذه الممالك إلى درجة الوحدة أو الاتحاد السياسي للمشرق العربي القديم إلا في عهد الملك الأموري حمورابي، الذي استطاع توحيد المشرق العربي تحت سيادة بابل رغم وجود محاولات سابقة موفقة في هذا المجال قام بها صرغون الأكادي الأموري وغيره، والتي استندت على أساس استراتيجي.

وفي بلاد الشام تركزت الفاعلية التاريخية بين ماري في الشرق وقطنة في الغرب مما جعل الخط التجاري بينهما يمر حكماً من تدمر لذا فاننا نلاحظ ورود ذكر تدمر في وثائق ماري حيث أفادت أن تدمر كانت محطة قوافل بين مدن بلاد الرافدين ومدن بلاد الشام الشمالية والجنوبية وهذا يؤكد أن تدمر استطاعت الاستفادة من موقعها الاستراتيجي بين مدن المشرق العربي في الشرق والغرب وأصبحت محطة هامة على الطريق التجاري بين أفغانستان وجنوب شواطئ المتوسط بلاد الشام ومصر، ولعل الإضاءة على الطرق التجارية آنذاك توضح أهمية تدمر كمحطة تجارية فبين الرافدين وبلاد الشام (14) كان ثمة طريقان تجاريان،

الأول: طريق شمالي يحاذي الفرات ويصل إلى يمحاد (حلب).

الثاني: طريق جنوبي يحاذي الفرات الأوسط عند ماري ويصل إلى قطنة (قرب حمص) ماراً بتدمر إلى سواحل البحر المتوسط في جبيل.

وقد ورد في وثائق ماري أن أخشاب الأرز وغيرها كانت تمر في قطنة لتصل إلى الفرات عبر تدمر.

ومن طرائف أحداث ذلك العصر ما ورد في إحدى وثائق ماري حيث تذكر أن يسمع حدد حاكم ماري الآشوري المحتل حين أراد السفر إلى قطنة تحاشى المرور بحلب /يمحاد/ لأن حاكم ماري الشرعي والمطرود زمري ليم موجود في يمحاد وبذا سلك يسمع حدد إلى تدمر ثم قطنة.

وقد ذكرت رسالة من حاكم قطنة إلى حاكم ماري /يسمع حدد/ أن البادية السورية كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مملكة يمحاد (حلب) إلى الشمال.

القسم الثاني: مملكة قطنة في الشمال الغربي حيث تتبع لها تدمر.

القسم الثالث: مملكة ماري في الجنوب الشرقي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى حصول تطور في وسائل النقل التجاري فبعد أن كانت الحمير سيدة وسائل النقل نلاحظ أنه ومنذ 1800 ق.م تقريباً يظهر الحصان كوسيلة نقل تجارية سريعة ثم في حوالي 1300 ق.م يظهر الجمل في الاستخدام.

إن الوثائق الأثرية تشير في ذلك العصر إلى علاقات جيدة تربط بين ماري وقطنة ويبدو أنه مع سقوط ماري بيد حمورابي البابلي في 1759 ق. م ضعفت فاعلية قطنة التاريخية وهذا ما انسحب على تدمر التابعة لها ومع حلول عام 1600 ق. م انتهى عصر المالك الكنعانية الأمورية الكبيرة والمستقلة ليأتي عصر الممالك الكنعانية الصغيرة والضعيفة [15] وهذا ما دفع الحثيين لاحتلال بابل ثم احتلها الكيشيون كما خضعت المناطق الممتدة من جبال زاغروس حتى البحر المتوسط للنفوذ الحوري الميتاني وتعاظم النفوذ المصري في بلاد الشام.

وهذا ما أدى إلى تحول الخط التجاري منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد إلى مملكة إيمار حيث أصبحت ملتقى القوافل القوافل القادمة من الشرق أو من الغرب ومن البادية أو الجزيرة وقد عثر في وثائق إيمار التي تعود إلى 1300 ــ 1200 ق. م على ذكر لتدمر والتدمريين وقد عثر في هذا الموقع على أول طبعة ختم تدمري معروفة حتى الآن مما يدل على وجود علاقة بين تدمر وإيمار.

يقول الدكتور نقولا زيـــادة: «بدأت تجارة تدمر والتدمريين تلفت الانتباه في الألـــف الأول قبل الميلاد إن لم يكن ذلك في أواخر الألف الثاني» [16]، وهنا يرد ذكر تدمر في وثائق الملك الأشوري تيغلات فلاصر الأول 1112 ــ 1074 ق. م وقد ذكرت الوثائق هذه أن الملك عبر الفرات 28 مرة بمعدل مرتين كل سنة وقد مرّ بتدمر التي هي في بلاد العموريين ووصل بحر العموريين الكبير أي البحر المتوسط.

في حدود 1200 ق. م تغزو شعوب البحر المراكز الساحلية السورية وتخرّبها لكن الأجزاء الشرقية من سورية بقيت بمنأى عنهم ومشغولة باستقبال موجات الآراميين التي تغلغلت داخل سورية ووصلت حتى الجبال الساحلية وقد استوطنت في تدمر أيضاً. ثم ومع القرن الثامن قبل الميلاد استقرت القبائل العربية تدريجياً في تدمر إلى جانب الآراميين وحين هاجم الملك الآشوري آشور بانيبال 664 ــ 629 ق. م دمشق فلا بد أنه مرّ في البادية. وتذكر الوثائق نشوء تحالف بين القبائل العربية والآراميين والملك البابلي شمش ــ شون ــ أكين ضد الملك الآشوري الذي أمر بإحراق مناطق البادية.

في فترة الفاعلية الآشورية هذه تمت حماية الطرق التجارية فتوسعت النشاطات التجارية وأصبحت تدمر مدينة قوافل كبيرة ومع هذا فإن اسم تدمر يختفي من الوثائق الأثرية بين القرن الحادي عشر قبل الميلاد وحتى القرن الثالث قبل الميلاد حيث تسقط سورية تحت حكم السلوقيين 332 ق. م.

تدمر في العصر السلوقي 332 ق. م ــ 63 ق. م:

مع سقوط بابل في آذار عام 538 ق. م بيد الفرس بقيادة كورش تشكلت امبراطورية فارسية على أنقاض امبراطورية بابل شاملة الرافدين وبلاد الشام وبالتدريج استطاعت أن تضم العالم المتمدن آنذاك الممتد من مصر والمدن الأيونية في آسيا الصغرى إلى البنجاب في الهند [(17)] والجدير ذكره هنا أن اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية كانت اللغة الآرامية حيث كانت اللغة العالمية آنذاك.

كما قام كورش بإصدار مرسوم يخول اليهود المسبيين في بابل العودة إلى فلسطين وهذا سيكون لاحقاً شأناً مهماً في موقف مملكة تدمر من اليهود ولا سيما في العهد الروماني.

إلى أن يأتي عام 333 ق. م حيث تقع معركة أسوس بين الفرس والمقدونيين بقيادة الاسكندر الكبير المقدوني حيث ينتصر المقدونيون لتبدأ

مرحلة جديدة في تاريخ المشرق العربي وتالياً انعكاس الظروف السياسية في العصر السلوقي على تدمر التي يبدو أنها كانت مدينة مكتفية بنفسها وتمارس تجارتها ونشاطاتها بعيداً عن النظم التجارية السلوقية.

ولدى تتبع خطوط التجارة الدولية في العصر السلوقي في المشرق العربي نلاحظ أن تدمر لم تكن تتبع شبكة الخطوط التجارية للدولة السلوقية ومع هذا ولكونها فاعلة حضارياً وليست منفعلة بالآخر إلى حد التماهي فقد استطاعت أن تؤسس خطوط تجارتها وتمارسها. ونعتقد أن تدمر في العهد السلوقي كانت في مرحلة المخاض الحضاري الذي سوف ينجب فاعلية حضارية تاريخية في القرون الثلاثة الميلادية الأولى. فقد استطاعت تدمر في العصر الهلنستي أن تجلب إليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة أخرى.

أما طرق التجارة السلوقية الرسمية فقد استعاضت عن تدمر بدورا أوربوس على الفرات وكان ثمة طريق شمالية اعتمدتها الدولة السلوقية حيث تعبر أنطاكية وسلوقية (السويدية) إلى حلب ثم تنعطف إلى الفرات ولكنّ هذه الطريق هجرت عندما قام الفرثيون باحتلال الرافدين في القرن الثاني ق. م.

وكانت هناك طريق جنوبية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي وهذه الطريق سببت ازدهار الاسكندرية والبتراء لحين العصر الروماني عام 63 ق. م.

ويبدو أن تدمر كانت تسيطر على دورا أوربوس حيث جعلت منها قلعة عسكرية لحماية التجارة التدمرية تماماً كما أراد لها السلوقيون حين أبدوا اهتمامهم بموقعها الاستراتيجي.

وبالرجوع إلى الوثائق السلوقية نلاحظ أن تدمر لم تكن تحظى بأهمية المدن الأخرى، فالدولة السلوقية كانت تمنح الألقاب للمدن السورية الأصيلة والسلوقية التأسيس وقد تأرجحت هذه الألقاب بشكل عام بين مدن تمتلك «الحصانة» أو مدن «مقدسة» أو مدن «مقدسة محرّمة» أو «مدن إلهية»

[18]. وهذه الألقاب كانت تعطي المدن حصانة جزئية في المسائل القانونية مما يحتم عدم تعرضها للقوة من قبل الدولة.

وتذكر الوثائق أسماء مدن منحت هذه الألقاب ولم يرد اسم تدمر بينها مما يدل كما أسلفنا إلى عدم اعطاء الدولة السلوقية تدمر أي حظوة، وقد يعزى هذا إلى ابتعاد خطوط التجارة السلوقية الرسمية عنها.

ومن المدن التي منحت ألقاباً نذكر: دمشق، عسقلون، جبيل، أفاميا، غزة، اللاذقية، صيدا، صور، طرابلس [19]. ولكن الذي يبدو أن هذا لم يمنع تدمر من انشاء جيشها الخاص والذي ساهم إلى جانب الجيش السلوقي في حربه ضد البطالمة في مصر، حيث تذكر الوثائق أنه في معركة «رافيا» والتي جرت بين السلوقيين والبطالمة كان إلى جانب الملك السلوقي انطيوخوس الثالث شيخ عربي يدعى «زبدي بل» حيث كان تحت امرته 10 آلاف مقاتل ويبدو أن هذا الشيخ تدمريّ يؤكد ذلك اسمه [20].

وتذكر الوثائق أيضاً أن زبدي ايل العربي /وقد يكون تدمرياً/ قطع رأس الملك السلوقي اسكندر بالآس، عام 145 ق. م الذي طالب وحصل على عرش سورية مدّعياً أنه ابن أنطيوخوس الرابع.

ويبدو أنه في حوالي 300 ق. م أصبحت تدمر جزءاً من الامبراطورية السلوقية لكن الفاعلية التاريخية آنذاك تحولت بمشيئة الدولةالسلوقية، إلى مدينة «سلوقية» على نهر دجلة ومدينة أنطاكية.

ومع هذا فقد استطاعت الثقافة التدمرية أن تؤكد فاعليتها الحضارية، أكّد ذلك العثور في دورا أوروبوس، على رسم منقوش على صفيحة حجرية يعود تاريخه إلى 158 ق. م يبين سلوقس نيكاتور مؤسس الدولة السلوقية في زيّه العسكري الذي يتألف من درع هلنستي تحت رداء قصير وينتعل جزمة عسكرية عالية الساق وكان يحمل في أذنيه قرطين كبيرين أما سيفه كما بدا من الرسم فقد كان من النموذج الفارسي ــ التدمري. [21]

أما لجهة النشاط التجاري لتدمر في هذا العصر فقد اعتبرت تدمر وسيطاً تجارياً بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط، ومع نهاية القرن

الثاني ق. م وحين عادت العلاقات التجارية بين الصين والامبراطورية الفرثية في بلاد فارس إلى الحياة، عاد طريق الحرير للوصول إلى البحر المتوسط عبر تدمر.

وتؤكد المعطيات التاريخية أن التدمريين كانوا أكثر فاعلية تجارية من السلوقيين، فمع مطلع القرن الأول قبل الميلاد كان رجال القوافل التدامرة ينظمون طريق الفرات التي كانت تمر بدورا أوروبوس ثم تنزل بمحاذاة الفرات إلى المحمرة في مملكة ميسان على الخليج العربي.

وحين كان الفرثيون يقطعون طريق الحرير المار عبر تدمر كانت تدمر تستخدم طريقاً آخر عبر الفرات إلى الخليج العربي ثم إلى الشرق الأقصى [22].

ومع انتهاء فاعلية «سلوقية» دجلة التجارية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد، كونها معبراً تجارياً ورثت تدمر هذه المهمة، واستطاعت السيطرة على طريق التجارة وضمان أمنه وتقديم المياه والأغذية للقوافل وحوائجها، وهذا ماسوف يتفّعل في القرون اللاحقة.

أما لجهة الوضع الديمغرافي لتدمر في العصر الهلنستي فقد تألفت من الآراميين والعرب، ويذكر الدكتور البني أن عدد العرب كان مساوياً لعدد الآراميين.

ويبدو من مجمل المعطيات التاريخية أن تدمر في العصر السلوقي كانت مدينة عامرة تتمتع باستقلالها ومارست فاعليتها التجارية بغض النظر عن خطوط التجارة الرسمية للدولة السلوقية وتمكنت بذلك من تأسيس مشروعها الحضاري والذي سوف يتبدى انطلاقاً من القرن الأول الميلادي.

تدمر والأمبرطورية الرومانية 63 ق. م ــ 273 م:

لابد من الإشارة إلى أنه وفي القرن الثاني قبل الميلاد بدأ نجم روما، يسطع في الأفق الغربي وهذا ما جعلها، تتدخل في شؤون السلوقيين في سورية والبطالمة في مصر، وحين حمل الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع(175 ــ 164 ق. م) على مصر وكاد أن يستولي عليها تدخلّت

روما وأمرته بالرجوع حفاظاً على دولة البطالمة. لقد أصبحت روما قوية وكان من واجب الدول الأضعف أن تسمع كلمتها.

ففي عام 63 ق. م يدخل الرومان سورية والغاية من ذلك أن تكون بلاد الشام محطة للجيوش الرومانية في توسّعها نحو الشرق. وهذا سوف يستتبع نشوء خطوط تجارة عالمية جديدة بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب تبعاً للطبوغرافيا والجغرافيا السياسية للإمبراطورية الرومانية.

ومع أن بلاد الشام وقعت تحت الاحتلال الروماني إلا أن تدمر لم تضم رسمياً إلى الإمبراطورية الرومانية إلا في حدود عام 18 ميلادي[23]. وهذا الأمر لم يحصل نتيجة صراع عسكري بقدر ما كان انعكاساً لمصالح الطرفين، فروما تريد أن تكون تدمر قوية وهي التي تسيطر على الفرات كما أن لتدمر مصلحة ألاّ تدخل في صراع عسكري مع روما يفقدها مكانتها التجارية والاستراتيجية والحضارية والتي بدأت بتأسيسها في العصر السلوقي.

كان يهم روما أن تكون تدمر قوية في وجه الفرس لحماية خطوط التجارة العالمية والمارة من تدمر كما والمارة من والى الخليج العربي ولكن لا مانع من انضوائها تحت جناح الإمبراطورية الرومانية.

يقول المؤرخ مومزين: إن تدمر كانت تعتبر مستعمرة رومانية الاّ أن تبعيتها للإمبراطورية الرومانية كانت ذات طابع فريد تذكرنا على الأرجح بالممــالك التابعة اسمياً لروما. [24]

ولا بد هنا من ذكر حادثة جرت عام (14 ق. م) حيث أرسل أنطونيو (زوج كليوباترا) فرسانه إلى تدمر لنهبها ولم تكن تدمر آنذاك تشكل خطراً ما على روما ولكن دافع أنطونيو كان نهب المدينة ما يعني أن تدمر كانت مدينة ذات اعتبار وازدهار.. وهذا ما يؤكده المؤرخ أبيان المعاصر لتلك الفترة حيث يقول:

«أرسل أنطونيو فرسانه لنهب المدينة متهماً إياها اتهاماً سخيفاً بأنها تحابي الرومان والفرثيين (في فارس)، ولكن حقيقة هدف أنطونيو كانت

إثراء فرسانه» [25].

ويؤكد بعض مؤرخي تلك الحقبة أن تدمر كانت مدينة مسالمة بدليل عدم وجود سور ليحميها آنئذ.

وقد هرب سكان تدمر آنذاك بأملاكهم الثمينة نحو الفرات وعبروه وحاربوا فرسان أنطونيو بالنبال والسهام، ويذكر أن الجيش الروماني نهب تدمر ودمرها.

وتعليلاً لهذه الحادثة يقول المؤرخ بلين الأكبر أن القدر جعل تدمر قائمة بين امبراطوريتي الرومان والفرثيين وكان كل منهما يفكر بتدمر أول ما يفكر حين يبدأ النزاع بينهما.

غير أن شيفمان يذكر أن حملة أنطونيو كانت سبباً للحرب التي قامت بين الفرثيين والرومان حيث وقف ملوك سورية إلى جانب الفرثيين واستطاع أنطونيو أن يطرد الملوك المحليين إلى بلاد الفرثيين ويفرض على المدن السورية بما في ذلك تدمر أتاوات قاسية جداً.

وإن كان تحليل شيفمان موضوعياً فلعلنا أمام حقيقة أن سورية كانت عبرّت عن رفضها للاحتلال الروماني عبر استعانتها بالفرثيين لصد هذا الاحتلال.

وهذا ما سوف يتكرر مراراً في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، لأن العداء التقليدي بين روما وفارس كان ينعكس على مدن بلاد الشام ولا سيما تدمر. وهذا ما دفع تدمر لاستغلال هذا الصراع والعداء لمصلحتها الوطنية كما سنرى لاحقاً.

في عام 18 م وحين أصبحت تدمر تحت سلطة روما أصبحت خطوط التجارة الدولية والمرافئ التجارية في سورية تحت سيطرة روما وبذا أصبحت تدمر نقطة التقاء القوافل المتجهة من دمشق أو حمص أو بصرى إلى الرافدين وفارس، ورغم العداء الروماني ــ الفرثي فقد كان من مصلحة روما إعادة النشاط للطريق الصحراوي المختصر عبر تدمر لكونه مباشراً وآمناً واقتصادياً.

وفي فترة حكم الامبراطور تراجان (98 ـــ 117) م وضعت في تدمر حامية رومانية عسكرية وكان هدف تراجان إيصال حدود الإمبراطورية الرومانية حتى دجلة والخليج العربي وكانت تدمر آنذاك تمتلك أهمية استراتيجية في الدفاع عن الفرات الفاصل بين الامبراطورية الرومانية في حدودها الشرقية وبين بلاد الفرثيين مع الإشارة إلى سقوط البتراء عام 106 م بيد الرومان وتحول خط التجارة منها نحو تدمر.

عام 129 م يزور تدمر الامبراطور أدريان ويمنح تدمر لقب «المدينة الحرة» وهذا ما أعفاها من دفع الضرائب للخزينة الامبراطورية وبالتالي شكّل دفعاً قوياً لاقتصاد تدمر التجاري.

ويذكر هنا أن أدريان وضع حاكماً تدمرياً على البحرين وسلم مدناً أخرى ليحكمها تدمريون. وهذا يدل على سعة الحيوية والانتشار التدمري والإثبات الحضاري لتدمر.

ولا يخفى في هذا المجال أن منح الإمبراطورية الرومانية الامتيازات للمدن السورية الشامية كان غايته توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطة روما من أجل استقطاب سكان سورية إلى الدائرة الرومانية للوقوف في وجه الفرس، والذي يبدو أنه في القرن الثاني الميلادي ولا سيما زمن التعرفة الجمركية (137) م التدمرية كانت العلاقة بين روما وتدمر تحالفية وكانت سياسة روما أن إعادة الحقوق لتدمر للقيام ببعض شكليات الحكم تعطي التحالف محتوى واقعياً.

ومع مجيء السلالة السورية لحكم روما وفي 212 م تسجل النقوش التدمرية حصول تدمر على الحقوق التي تتمتع بها المستعمرات الإيطالية وهذا شكل حدثاً ومنعطفاً هاماً في تاريخها السياسي الذي سوف يتطور ويتفعّل اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً للوقوف في وجه الاحتلال الروماني.

خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي:

منذ عام 75 م وضع الرومان أيديهم بقوة على المحطات الرئيسية لخطوط التجارة الشمالية ما بين تدمر والرصافة وهذا ما دفع لإلغاء خدمات البتراء

التجارية والتي كانت تمتد سلطة أراضيها على جنوب فلسطين والأردن وخليج العقبة وشبه جزيرة سيناء وبالتالي فإنها كانت تسيطر على شبكة القوافل بين مصر والخليج العربي وبين غزة والجزيرة العربية.

إن سلطة البتراء كانت تتضارب مع الخطة الاستراتيجية لروما وهذا ما دفع روما للقضاء عليها عام 106 م وبذا انتقل خط التجارة الدولية إلى تدمر حيث أصبحت تسيطر على كل الطرق التجارية في الشرق بين مصر والجزيرة العربية وأوربا من جهة وفارس والهند والصين من جهة أخرى.

وبذا وصلت تدمر إلى أوج نشاطها وازدهارها الاقتصادي في القرن الثاني الميلادي والذي سوف يؤدي في القرن الثالث إلى بلوغ فعلها السياسي والعسكري أقصى قمة له.

وقد تركز النشاط التجاري لتدمر بين الشرق الأقصى (الهند والصين) والبحر المتوسط وكان طريق الحرير البري الذي ينطلق من الصين إلى روما عابراً تركستان وأفغانستان والهند وباكستان وإيران وبلاد الرافدين وبلاد الشام ثم المتوسط تشكل تدمر محطة أساسية من محطاته لا بل عاصمة تجارية هامة.

يقول خالد الأسعد: «أصبحت تدمر مركزاً تجارياً هاماً لا بل عاصمة التجارة الدولية في العالم كله بين الشرق الذي كان صناعياً والغرب الذي كان زراعياً.» [26]

ولم تكتف تدمر بأن تكون محطة تجارية لا بل مارست التجارة البحرية فقد كانت مراكب تدمر تسير إلى الهند لتجلب البضائع من ميناء بربريكوم وكان لها أسطول تجاري في الخليج العربي وقد وصلت فعالياتها التجارية المباشرة إلى الصين وقد عثر على نحت بارز يمثل تاجراً تدمرياً يقف إلى جانب سفينته ويبدو أن السفينة كانت تبحر في مياه الخليج العربي.

بالإضافة إلى صلات تجارية مع أرمينيا والأناضول والجزيرة العربية [27].

وكان يجري في تدمر تنظيم معارض تجارية دورية في أراضي المعبد وكانت تعتبر معارض دولية.

ويذكر شيفمان أن يوليان بن سعد التدمري جاء إلى جنوب فرنسا إلى غاليا كي يؤسس شركة تجارية كما تذكر النقوش أن التدمريين أصبحوا من ذوي الشأن في مدن بلاد الرافدين وكانت حكومة تدمر تشجع التجار ليطوروا أعمالهم في تلك البلاد وكانت ثمة قوافل تدمرية تتوجه إلى وادي النيل.

وكان يأتي تدمر من جزيرة العرب اللآلئ والبخور والأحجار الكريمة ومن سلوقية دجلة قرب بغداد كانت تأتي الألبسة ومن الساحل السوري الأواني الزجاجية والفضة والذهب والصباغ الأرجواني ومن لبنان ومنطقة دمشق الخمور ومن كشمير وهيملايا وتركستان الصينية كانت تأتي التوابل والأصبغة والحرير والفرو.

ويذكر خالد الأسعد أن ثمة امتزاجاً أو تبادلاً ثقافياً بين حضارة موهنجيدار في جنوب الهند وبين تدمر سواء في التماثيل أو في طريقة اللباس وهذا ما دفع المؤرخ أبيان للقول أن التدمريين هم تجار الهند.

وكان لتدمر موانئها، فعلى الخليج العربي كان لها ميناء ميسان وعلى النيل في مصر كان لها ميناء قفط قرب أسوان ووطدت علاقتها مع دورا أوربوس على الفرات ووضعت فيها حامية عسكرية لحماية تجارة تدمر. بالإضافة إلى حصن آخر على الفرات هو حلبية زلبية.

وكان لها مراكز تجارية في بلاد فارس ويذكر فرانتس ألتهايم أن التدمريين أقاموا خطاً تجارياً بين البحر الأحمر ومصب نهر الهندوس.

وكان ثمة طريق تجاري مباشر بين تدمر والبتراء ثم منها إلى سناء وغزة، وحين كان الفرثيون في بلاد فارس يغلقون طريق الحرير المار عبر تدمر ، كانت الأخيرة تستعيض عنه بطريق بحرية عبر الفرات إلى الخليج العربي فالشرق الأقصى.

أما من ناحية الانتشار التدمري في أوربا فقد عثر في جنوب بريطانيا على آثار تدمرية قد تكون انتقلت عن طريق التجار أو الجنود وكان ثمة مستوطنة تدمرية في بودابست في هنغارية وعلى نهر الهندوس في

تركستان عثر على قطع تدمرية وفي الجزائر عثر على كتابات تدمرية تتحدث عن حنين التدمريين للعودة إلى بلدهم.

أما في روما فقد عثر على الكثير من النقوش الكتابية التي تعود لأشخاص من مختلف مناطق سورية وخاصة من تدمر وقد تبادلت تدمر السفراء مع بعض مدن الجنوب العربي فقد عثر في وادي بيجان على نص يتحدث عن احتفال إقامة الملك هناك لتكريم بعض المواطنين وكان يرافقه السفراء الأجانب ومنهم سفير تدمر وسفير الهند.

كما بنى التدمريين في رومـــا معبداً في حي يدعى حي الشرقيين وأقاموا مشاغل ومصانع في الخليج العربي وقد حدد العالم أولينغ المسافة التي تقطعها القوافل بين عاصمة الصين وتدمر بأنها تقدر بمسيرة ست سنوات للذهاب والإياب.

أما عدد السفن التي كانت تمخر في المحيط الهندي بين البحر الأحمر ومرافئ الهند ذهاباً وإياباً فكان 120 سفينة [28] ولعل إقرار مجلس الشيوخ التدمري لنص التعرفة الجمركية التدمري عام 137 م هو دليل على ازدهار النشاط التجاري التدمري وقوة اقتصادها.. مع ملاحظة أن تدمر لم تكن مدينة تجارية فقط.

فقد أشار هورست كلينغل إلى أن النشاط التجاري التدمري جلب لها الثراء لكن الزراعة التي وفرتها الواحة شاركت أيضاً في توطيد هذا الرفـــاه فتدمر لم تكن معزولة بل كانت على اتصال مباشر مع القرى المنتشرة في البادية والتي تعيش على الزراعة والرعي وكان الزيتون هو النبات الأساسي في تدمر كما أنهم زرعوا الحنطة والتمر والتين والرمان والتفاح والأجاص والبطيخ. [29]

وبالإضافة إلى كل هذه الفاعلية التجارية لمدينة وسط الصحراء فقد كان على تدمر أن تؤمن حماية القوافل وخطوط التجارة لهذا كان يتم تشكيل فرق من الهجانة لحفظ أمن القوافل ولا سيما المنطقة الممتدة من الفرات إلى حماه ودمشق.

وفي نقش تدمري يعود إلى عام 199 م جاء ما يلي:

بقرار من المجلس، والشعب تقيم العشائر التدمرية الأربع نصباً على شرف عقيل بن مكي بن عقيل بن سيفور عرفاناً له بالخدمات التي أداها إبان الحملة ضد البدو الرحل وكذلك لقاء تأمينه حماية للقوافل على نفقته الخاصة [30].

وكانت حكومة تدمر تضع تمثالاً في ميدان المدينة لمن قدم عملاً جليلاً لتدمر كنوع من التكريم والاحتفاء.

ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى:

الكتابة التدمرية واللغة العربية المحكية:

من المعلوم أن التدمريين كتبوا بالآرامية لكن لغة حياتهم اليومية كانت العربية بلهجاتها الشمالية، ويعزو البعض عدم كتابة تدمر بالكتابة العربية لأن هذه الكتابة كانت في طور الكمون وربما المخاض بالإضافة إلى أن الكتابة الآرامية كانت كتابة عالمية في ذلك العصر

وكما أسلفنا سابقاً فإنه مع القرن الأول الميلادي سادت القبائل العربية على تدمر ولئن كانت في نهاية العصر السلوقي تساوي في عديدها تعداد الآراميين فإنه مع القرن الأول الميلادي ومع تأسيس تدمر العربي عبر اتحاد القبائل الأربع الكبيرة فإن تتبع الكتابات التدمرية ينبئ عن محاولات بدايات لتعريب سكان المدينة فاستناداً إلى نقوش القرن الأول الميلادي يلاحظ أن المفردات العربية بدأت تتغلغل إلى الوثائق التدمرية وهو ما يعني بداية تعريب سكان المدينة وهذا ما يتضح أكثر من الأسماء العربية التي نصادفها في النقوش التدمرية بالإضافة إلى استبدال للمصطلحات اليونانية باصطلاحات عربية وهذا دليل على أن هناك اتجاهاً معادياً لاستخدام الاصطلاح اليوناني. [31]

ومن الأمثلة على ذلك استبدال مصطلح DEMOS اليوناني الذي يعني اجتمـــاع أو حشد باصطلاح عربي هو gbl التدمري عوضاً منه ويذكر الدكتور عدنان البني أنه مع مطلع القرن الميلادي الأول ساد العنصر

العربي في تدمر وتجلى ذلك في أسرة أذينة زوج زنوبيا الذي كان من منبت عربي وكانت الأسماء العربية في تدمر لها الغالبية العظمى.

والجدير ذكره هنا هو أن الكتابة الآرامية تتآلف من 22 حرفاً وتكتب من اليمين إلى اليسار وحروفها هي نفس حروف اللغة العربية.

أما في مجال العمارة التدمرية فيذكر خالد الأسعد أن 99 % من عمارتها ذات مخطط معماري سوري بينما يؤكد الدكتور سليم عبد الحق أن عمران تدمر ليس هلنستياً ولا رومانياً بل مزيجاً من العمرانين مع أصالة سورية سائدة بوضوح وقد حاول بعض الباحثين في مجال تاريخ العمارة أن يجرد تدمر من كل إبداع معماري أصيل ويلقيه على العمارة الرومانية.

لكن تاريخ كمبردج يذكر أن بعض العلماء يعتقدون أن سورية في مجال العمارة كانت متقدمة على روما لا بل كانت بالنسبة لها النموذج الذي احتذته وأن سورية تقدمت على روما في عبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها. [32]

وخير مثال على ذلك هو أبو لودور الدمشقي 60 ــ 125 م الذي كان صديقاً للإمبراطور تراجان والذي استدعي إلى روما لبناء أهم وأكبر عمائرها ومنها السوق والميدان التراجاني والجسر العملاق على الدانوب وقوس النصر ودار العدل وعمود تراجان وما زالت بعض آثار إبداعاته موجودة في إيطاليا.

يقول بيانكي باندينيللي: «إن أكثر الدفعات الثقافية الحيوية كانت تأتي غالباً من مقاطعات الشرق سواء في الفكر أم من الفن ومنها يأتي أنشط رجال السياسية وأكفأ الموظفين والقادة العسكريين» [33].

ويشير د. عبد الحق إلى فضل تدمر في إشاعة التاج الكورنثي الكلاسيكي على منافسيه التيجــان الأيونيــة والطوسكانية في جميع أنحاء العالم آنذاك في أوربا وآسيا وأفريقيا بعد أن ابتدع في معبد بل بتدمر. [34]

أما في مجال المعتقدات الدينية:

فكما أسلفنا أن تدمر كانت واحة للتسامح والتعددية الدينية، فثمة 60 إلهاً وكافة أتباعهم يحيون حياة هانئة وولائهم لم يكن لجهة تدمر ولاءً دينياً بل ولاءً للمدينة ودولتها.

غير أن ما يلفت النظــر في هذا المجال هو العثور في نفق نبع أفقا على نقوش وكتابات تكرّم إلهاً يحمل لقب «الرب الرحمن الرحيم» وقد ورد بالتدمرية (لبريك شمه عالما) الرب الذي بورك اسمه إلى الأبد الرحمن الرحيم، حيث يؤكد شيفمان أن هذا الرب ومنذ منتصف القرن الثاني ميلادي عظمت شعبيته على أي رب آخر ويعتقد أنه كان مؤشراً لاتجاه نحو التوحيد.

والذي نعتقده أن هذا الاتجاه نحو التوحيد كان انعكاساً لوحدة المجتمع التدمري وانصهاره في وحدة حياة واحدة. ويذكر الباحث الفرنسي رينيه دوسو في هذا المجال أن الأنباط كانوا يعبدون الله كما عند التدمريين ويتحدث عن نقش عثر عليه في تدمر يعود إلى عام 200 ميلادي يقول: «اهداء للرب الواحد الأحد الرحمن الرحيم». [35]

النحت التدمري:

يعتبر النحت التدمري بمثابة مدرسة فنية قائمة بحد ذاتها ويمكننا أن نطلق عليها تعبير مدرسة الحياة. فالمعلوم أن أغلب هذه المنحوتات هي منحوتات جنائزية مصدرها المدافن ومع هذا فالتعابير التي توشحها هي تعابير تضج بالحياة. ويؤكد الباحثون على أن النحت التدمري كان فناً ناضجاً وواضحاً وقائماً بذاته منذ القرن الأول قبل الميلاد لابل يؤكد الدكتور البني على أن الفن التدمري لا يخرج عن التقاليد المعروفة للفن السوري في القرون الميلادية الأولى وغيره من الفنون الشقيقة ويركّز العالم الفرنسي سيريغ على ذلك بقوله: لم يتمكّن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل ما رافقه من احتكاك مع الغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الأشكال المنحوتة ذلك النحو الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيين. [36]

أما في مجال التأثيرات الفنية للثقافات الأخرى المعاصرة فلا بد أن نؤكد على فعل المثاقفة بين تدمر وبين المراكز الثقافية في العالم آنذاك مع التركيز على مبدأ الأصالة الذي يعتبر خصيصة رئيسية من خصائص الحضارة السورية بعامة.

يقول العالم سيريغ: ان التأثير الغربي في الفن التدمري سطحي بوجه الإجمال وهذا يدل على عدم الاستعداد للتأثر ليس بأسلوب أجنبي وانما بعقلية أجنبية. وهذا الأمر يرد أيضاً عند جان شارل بالتي حيث لوحظ أن التدمريين يبدون مقاومة ثقافية نحو روما. ولدى دراسة اللقى التدمرية التدمرية ولاسيما في بانونيا على نهر الدانوب لوحظ أن البيئة التحتية المحلية المشرقية ظاهرة بقوة وحيوية ولاسيما في اللباس الوطني التدمري وفي ارتداء اللباس المحلي ويصل للقول على أن هذه الظاهرة هي شاهد على المقاومة لظاهرة الاندماج (37).

ولا تبتعد الباحثة ماري موريهات عن المضمون العام الذي ذكرناه بقولها:

إن أقرب الأساليب الفنية شبهاً بالأسلوب الفني التدمري نجدها في الأساليب التي ازدهرت في القرون الثلاثة الميلادية الأولى في سورية الداخلية والنحت النبطي في الأردن وجنوب سورية. [38]

أما لجهة الحياة اليومية في تدمر: فتنبغي الإشارة إلى أن العيد السنوي عند التدمريين كان في 6 نيسان وهو يوم مقدس أطلقوا عليه اسم «اليوم الطيب».

ولم يحفل التدمريون بالموت كثيراً وتخلو المدافن من المرفقات الجنائزية الثمينة لغلبة العقلية التجارية على الاعتقادات الماورائية فمن العبث وضع أشياء ثمينة مع الميت الذاهب إلى بيت عالما أي بيت الأبدية.

وتحوي الشواهد التدمرية على كلمة «حبل» أي «أسف» على الميت.

ويبدو أنه لم يكن لديهم اعتقاد بحياة مادية بعد الموت بدليل استخدامهم للمدافن البرجية في معارك الدفاع عن تدمر لابل وكانوا اذا فتحت ثغرة في سور

تدمر أثناء الحروب فسرعان ما يغلقونها بالقبور الحجرية.

وكانت التدمريات يتمتعن بملكية خاصة ويقدن القوافل التجارية كما دلت المنحوتات. وكان اسم تدمر يستخدم كاسم علم مثل تدمر بنت حسان[39] وكانت حكومة تدمر تشرك الفقراء في بعض أرباح القوافل.[40]

وجاء في كتاب تدمر لستاركي والمنجد أن سكان تدمر كان تعدادهم حوالي 30 ألف نسمة موزعين على حوالي 10 كيلومتراً مربعاً في حين كان عدد سكان بلاد الشام في القرن الثاني ميلادي حوالي 7 مليون نسمة.[41]

اليهود وتدمر:

جاء في التلمود: «يا لسعادة من سوف يرى نهاية تدمر فقد اشتركت في هدم المعبد الأول والثاني.. ففي المرة الأولى قدمت 80 ألفاً من الرماة!!؟ ولهدم المعبد الثاني 8 آلاف».

ففي عام 70 للميلاد قام القائد الروماني تيطس الروماني بمهاجمة القدس وكعادتهم كان الرومان يستعينون بالرماة التدامرة المشهورين في العالم آنذاك. ولا نعتقد أن عدد الرماة الوارد في التلمود صحيحاً فهذه المبالغات ألغناها في المرويات اليهودية ونعتقد أن غايتها استدرار شفقة الأمم عليهم كونهم واقعون تحت ضروب عقدة الاضطهاد.

وفي عام 137 للميلاد يساهم التدمريون مع الجيش الروماني في الهجوم على اليهود ولسنا هنا في وارد البحث عن أسباب هذا الهجوم وما يعنينا هنا هو أن اسهام تدمر في هذا المجال كان استجابة لظروف سياسية دولية أملتها مصالح روما السياسية مع الأخذ بعين الاعتبار أن مدينة دورا أوروبوس حوت في القرن الثالث الميلادي على كنيس يهودي وجالية يهودية ولم تقترب منهم حكومة تدمر بأي سوء طالما أكدوا تفاعلهم مع الهيئة الاجتماعية حيث كانت ترابض في المدينة حامية عسكرية تدمرية.

ولكن الأغرب أن يلجأ كاتب التوراة إلى تلفيق وتزوير /كما العادة/

حيث يرد في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني على أن «سليمان بنى تدمر في البرية»!!؟. علماً أن بين سليمان /إن وجد أصلاً/ وبين عصر تدمر الذهبي حوالي ألف عام!؟.

وكنا أجرينا سبراً لآراء عدد من الباحثين والعلماء السوريين والعرب والأجانب حول هذه النقطة ونشرناها في إحدى المجلات اللبنانية [42] ولأهمية هذا السبر فقد أرفقناه في نهاية الكتاب مع الانتباه إلى أجوبة بعض العلماء الأجانب، الذين هربوا في إجابتهم من الموضوعية عبر التفلسف واستخدام عبارات مطاطة ومبهمة لا مكان لها في نطاق الأبحاث العلمية الرصينة.

الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى:

كان العالم القديم في عصر تدمر يتألف من أربع إمبراطوريات: ففي الشرق كانت بلاد فارس التي حكمها الفارثيون (247 ق. م ــ 226 م) ثم الساسانيون (226 م ــ 651 م). وفي الهند كانت المملكة الكوشانية أما في الصين فكانت تحكم سلالة هان. وفي الغرب كانت روما التي امتدت إمبراطوريتها من الأطلسي وبحر الشمال غرباً إلى الفرات شرقاً ومن الراين والدانوب شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً.

وفي حين أن مملكة كوشان وهان لاتهمنا لجهة البحث بتاريخ تدمر فاننا سنحصر اهتمامنا ببلاد فارس والرومان وانعكاس ذلك على تدمر التي كانت حدودها /حسب شلومبرجيه/ بعد دراسته لنقوش تدمر في القرن الثاني ميلادي تمتد من الشمال والشمال الشرقي وعلى امتداد الفرات ثم عبر منطقة سهل الرصافة في الجنوب حتى خربة بلعاس ومن هناك إلى خربة الفي وعبر قصر الحير وسهل الضو. [43]

1ــ الدولة الفرثية ثم الساسانية في بلاد فارس:

في عام 247 ق. م انفصلت دولة الفرثيين عن الدولة السلوقية، ومع دخول الرومان إلى سورية والأناضول احتدم الصراع بين الفرثيين وروما وكان الفرات فاصلاً بينهما ونظراً لوقوع تدمر على الخط الفاصل فقد لعبت

دوراً حاسماً في التوازن الدولي القائم آنذاك، ويبدو أن الصراع الفرثي ـ الروماني كان على الخطوط التجارية الدولية ولا سيما خط الهند والصين وكان الفرثيون كلما سنحت الفرصة لهم يغلقون هذا الخط في وجه الرومان وبالتالي في وجه تدمر والتجارة التدمرية وهذا ما كان يدفع بتدمر كي تستخدم الفرات في نقل بضائعها إلى الخليج العربي وهذا ما دفع الرومان أيضاً في عهد تراجان إلى اجتياح عاصمتهم طيسفون بالقرب من بغداد عام 114 م ثم في عهد سبتيم سفير عام 197م ثم عام 233م على الساسانيين ورثة الفرثيين.

كانت حدود الدولة الفرثية تمتد من أقصى شرق إيران إلى نهر الفرات غرباً ومن أرمينيا شمالاً إلى إقليم كابل في الجنوب الشرقي وكانت حدودها تنكمش أو تتبدل تبعاً للظروف الدولية.

عام 226 م تقوم دولة الساسانيين على أنقاض الدولة الفرثية وكحيوية أي دولة جديدة تمتد إلى الهند وتصل إلى ماوراء النهر وإلى الغرب تصل حتى أنطاكية وتواجه الجيش الروماني وتأسر امبراطوره وجيشه وتنهي مملكة الحضر العربية وعام 228 م يحتل الساسانيون مصبات الفرات ودجلة ومملكة ميسان (ميناء تدمر) على شط العرب ما أدى إلى قطع خط التجارة في وجه تدمر وسبب خنقاً لنشاطها التجاري وعام 253 م يستولي الساسانيون على أنطاكية وعام 256 م يستولون على دورا أوربوس.

إن وقوع تدمر بين الإمبراطوريتين سوف يؤدي إلى محاولة إيجاد موطئ قدم لها وسط صراع الأقوياء للمحافظة على خطوط تجارتها وهذا ما كان ليتحقق إلاّ بعدة عوامل:

الأول: الاقتصاد القوي والذي منح تدمر بنشاطها التجاري قوة ومنعة.

الثاني: وجود قيادة وطنية تصون كرامة وحدود وشعب تدمر وهذا ما تحقق في أسرة أذينة وزنوبيا في القرن الثالث ميلادي.

الثالث: ضعف إحدى القوتين، الكبيرتين وهذا ما حصل لروما بدءاً من سقوط حكم السلالة السفيرية 235 م وإنهاء أذينة للقوة الساسانية حين

احتل عاصمتها طيسفون 267 م.

2 ــ الإمبراطورية الرومانية:

يعود الفضل إلى أغسطوس (27 ق. م ــ 14 م) في وضع القواعد الأساسية التي قام عليها النظام الامبراطوري الروماني في كافة أوجهه ثم توالى على عرش روما الأسرة اليوليانية (نسبة إلى يوليوس قيصر) من 14 م ــ 69 م ثم الأسرة الفلافية 69 ــ 96 م. [44]

ثم تأتي مرحلة حكم فيها أباطرة أطلق عليهم لقب الأباطرة الصالحين وذلك من 96 م ــ 180م.

وفي عام 193 م ونتيجة لضعف الأباطرة وتدخل الجيش في الإدارة قام الحرس الامبراطوري بعرض الامبراطورية للبيع في المزاد ورسا المزاد على أحد أعضاء مجلس الشيوخ «د يدوس يوليانوس» حيث اشترى العرش بـــ 25 ألف سترسة وهنا تدخّل سبتيم سفير اللبدي من مدينة لبدة الفينيقية في ليبيا زوج الحمصية جوليا دومنا لينقذ الامبراطورية من الانهيار ولتبدأ فترة حكم الأسرة السفيرية من 193 ــ 235 م

ولا يمكن فهم الاعتبارات التي قادت سبتيم سفير لاعتلاء عرش روما سوى سعيه لإعادة الاعتبار لمفهوم العرش كونه رجلاً عسكرياً ومن ثم اعتبار إحساسه بالانتماء إلى العروبة بمفهومها الحضاري وهذا ما جعله في نظر الكثيرين [45] منتقماً من الاجتياح الروماني للشرق ولقرطاج حيث أن أول ما فعله عند اعتلائه العرش أن أعاد الاعتبار إلى قبر هانيبعل حيث بنى له تمثالاً من المرمر وأهداه إلى «أكبر رجل حرب بين قدماء الرجال» ويتأكد هذا الأمر أكثر في منح تدمر في عهد كركلا عام 212 م لقب مستعمرة وجعلها تابعة لولاية «فينيقية» وعاصمتها حمص.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن فترة حكم الامبراطور فيليب العربي 244 ــ 249 م لعرش روما لم تشهد أي اهتمـــام بتدمر واقتصر اهتمامه على مدينته شهبا في حوران.

وبعد انقضاء حكم الأسرة السفيرية عام 235 م دخلت الامبراطورية

الرومانية حقبة من الفوضى السياسية امتدت من 235 م وحتى 284 م فقد دمر الاقتصاد وأصبحت قيمة النقد منخفضة إلى درجة الصفر وتعرضت بلاد الإمبراطورية إلى هجمات من وراء الحدود.

ففي عام 250 م انتصر القوط على الإمبراطور داسيوس وقتلوه وفي عام 260 م انتصر الساسانييون على الإمبراطور فاليريان وأسروه واستطاعوا احتلال المناطق الواقعة إلى غرب الفرات وهذا ما سوف يؤثر على تدمر وتجارتها وسوف يدفع تدمر كي تدافع عن نفسها في غياب الجيش الروماني المتهالك.

يقول جميس برستد أنه وبانتهاء حكم الأسرة السفيرية حدث الانفجار العظيم في الإمبراطورية الرومانية وهذا ما جعل الجيش يتدخل في تعيين الأباطرة حتى أنه وخلال تسعين سنة بلغ عدد الأباطرة الذين اغتيلوا ثمانين امبراطوراً معظمهم من غير الإيطاليين. (46)

ومقابل هذه الفترة كان عصر الملوك التدامرة (حسب هورست كلينغل) قد بدأ يصعد.. وبدأت تدمر تقطف ثمار وجود اقتصاد متين وتجارة ناشطة وقيادة واعية في وقت تبدّل على عرش روما من 235ـــ270م 37 إمبراطورا وبالإضافة إلى ذلك كانت تدمر قد أعدّت جيشاً مكنّها من الدفاع عن نفسها، ونتيجة لكل هذه الحيوية التدمرية أخذ دور تدمر يكبر ويتعاظم في وقت كانت الأوبئة تجتاح روما عامي 260 ــ 265م وتذكر المراجع التاريخية أنّ الملاريا فتكت بسكان روما وتذكر المصادر التاريخية أن خمسة آلاف إنسان كانوا يقضون يومياً واستمرت هذه الحال لعدة أسابيع.

ووسط هذه الحال كان نجم تدمر يلمع ويتعالى لتجد لها مكاناً جديراً بما تستحق بين الأمم ولتبدأ بلعب الدور القوي والحاسم في الحياة السياسية السورية وفي عالم المتوسط وشرقه بشكل عام.

تدمر وعصر الملوك التدامرة:

اعتباراً من منتصف القرن الثالث الميلادي سوف يكون لتدمر شأن

على الساحة السياسية العالمية آنذاك وذلك لعدة اعتبارات:

أولاً: حكم تدمر من قبل أسرة أذينة منذ عام 253 م وهذا ما وطد دعائم النظام السياسي في تدمر الذي أخذ يدرس المعطيات الدولية والإقليمية والمحلية ويوّظفها لمصلحته.

ثانياً: الانهيار في مؤسسات الإمبراطورية الرومانية وتكالب الأباطرة على بعضهم البعض.

ثالثاً: ثمة محرض من جهة الدولة الساسانية حيث كانت هذه الدولة تطمع بسد منافذ التجارة في الخليج العربي مستغلة ضعف روما ما جعل تدمر تتنكب هذه المهمة وتصد الساسانيين عن ذلك.

لقد كان حكم دولة أذينة زنوبيا نموذجاً واقعياً للإمبراطورية الرومانية في الشرق.

ففي عام 262 م وعام 267 يشن أذينة /وكانت زنوبيا زوجته تشاركه في معاركه/ حملة على الساسانيين ويصل عاصمتهم طيسفون واستطاع أن يسيطر على معظم مدن سورية والرافدين بما فيها أنطاكية وقد بقيت أنطاكية تحت سيادة تدمر حتى سقوط تدمر عام 273 م.

وبذا أصبح أذينة ملكاً على سورية بما فيها كليكياو بلاد العرب وكبادوكيا وأرمينيا.

وبحكم التقاليد العسكرية الرومانية أعلن أذينة نفسه إمبراطورا وكذلك ابنه وهذا يعني أنه أصبح على قدم المساواة مع الإمبراطور الروماني. وتشير المعطيات حسب شيفمان إلى أن أذينة كان يحظى بدعم السوريين خارج تدمر أيضاً.

وقد كانت ألقابه «كاهن الشمس» و«أسد الشمس المروع المخيف» أما ألقابه الإمبراطورية فكانت «امبراطور الرومان استراتيجي الرومان» و«رئيس القناصل» و«الملك القدسي» «ملك الملوك ومجدد الشرق كله». (47)

لقد استغل أذينة فترة ضعف الإمبراطورية الرومانية ليعيد الفاعلية المشرقية العربية ضد الرومنة واستطاع أن يكون صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا حتى جزيرة العرب.

والجدير ذكره هنا هو أن أذينة ومنذ 225 م كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني وعندما وضع حداً للتمدد الساساني بدا وكأنه أنقذ روما من الانهيار لكنه كان يسعى كما يبدو إلى أمرين:

أولهما: إظهار الفاعلية العسكرية والسياسية لتدمر وضمان مصالحها الحيوية.

ثانيهما: الشروع في اعتلاء العرش الروماني بعد القضاء على الخطر الساساني.

ولكن هذا لم يحصل بسبب تعرضه للقتل مع ابنه من زوجته /غير زنوبيا/ في عام 267 م.

وكالعـــادة يشير بعض المؤرخين إلى دور زنوبيـــا في قتله وقتل ابنه كي تأخذ سدة الحكم بعـــده، غافلين أن من له مصلحة في قتله بالدرجة الأولى هم الساسانيون كانتقـــام منه والرومان كخـــوف، من «مقوم الشرق كله» و«القائد العام للجيوش الرومانية في سورية» حسب الألقاب الرومانية ولم يخطئ مومسون حين قال: إن المؤرخين الرومان كانوا يدونون ما هو حري بالحذف ويحذفون ما هو جدير الأهمية بالتدوين.(48)

وثمة شيء آخر نلاحظه في تكتيك أذينة كرجل دولة وقد يدفع هذا ببعض التحاليل غير الموضوعية حول استراتيجيته ففي عام 260 م وفي عهد الإمبراطور غاليانوس قام أحد السوريين واتخذ من مدينة حمص مقراً له وأخذ يطالب بعرش روما وأمر بسكّ نقود عليها صورة إله الشمس، لكن أذينة مضى إلى حمص وقضى على هذا التمرد.

إن تحليل هذه الحادثة السطحي يقول: أن أذينة كان يدافع بذلك عن العرش الروماني غير أن خصائص وروحية الحضارة السورية عبر التاريخ تؤكد أن أذينة لم يشأ أن يقف أحد أمامه حجر عثرة في طريق اعتلاء عرش

روما وباللحظة المناسبة ويبدو أن هذا المشروع انتقل إلى زوجته زنوبيا.

والذي يبدو من كل ذلك هو أن عجز الأباطرة الرومانيين من القضاء على تدمر آنذاك دفعهم إلى عمل كل ما من شأنه أن يبقيها ولو شكلياً في إطار الإمبراطورية الرومانية ويكسب ود حكامها.

بعد مقتل أذينة وابنه تقام في تدمر النصب التذكارية التي تخلده [49] ويرث ابنه وهب اللات ألقاب والده ولكونه دون السن القانوني فقد أدارت زنوبيا دفة الحكم في تدمر. ويبدو أنها كانت تكمل مشروع زوجها.

يشير شيفمان إلى أن زنوبيا كانت ترغب أن تكون سلطتها مماثلة في وضعها لسلطة جوليا دومنا بعد موت زوجها سبتيم سفير وهذه كانت وجهة نظر الأعراف القانونية الرومانية.

وهذا ــ إن صحّ ــ يشير بدلالة قاطعة إلى تطلع زنوبيا لاعتلاء عرش روما حيث تذكر المعطيات بنائها لعربة إمبراطورية أمرت بصنعها آملة أن تدخل روما بها.[50]

واستطاعت زنوبيا استغلال أحوال الإمبراطورية المنهارة لمصلحة تدمر ومصلحة مشروعها ذي البعد الإمبراطوري.

فحين أرسل الإمبراطور غاليان القائد الروماني هيركليانوس لحرب الفرس، تعقبتّه زنوبيا حتى نجا بصعوبة بالغة منها. وحين هزم توطد نفوذ زنوبيا في سورية وبلاد الرافدين. ولم تكن تميل لعقد تحالف مع الرومان. وفي عهد الإمبراطور كلاوديوس الذي اهتم بإصلاح أحوال شعبه استغلت زنوبيا هذا الوضع واحتلت مصر عام 270 م ثم احتلت الأناضول وصولاً إلى أنقره وبذلك أصبح كامل القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية تحت سلطة تدمر ويعتقد أن الجيش التدمري توجه إلى مصر عبر سيناء مروراً بالبتراء.

وباكتمال دائرة الفتوحات التدمرية أصبحت إمبراطورية تدمر تمتد من البوسفور إلى دجلة إلى النيل شاملة كامل مصر وقسم كبير من الجزيرة العربية وبلاد الشام.

ويبدو أن احتلال مصر لم يكن ذا مغزى عسكري فقط بقدر ما كان يؤمل منه بقطع الغلال والتموين عن روما فالمعلوم أن بلاد الشام ومصر كانتا سلة الغلال للإمبراطورية الرومانية.

بالإضافة إلى ذلك فإن احتلال مصر كان يعني احتلال أكبر مرافئ الشرق وهو الإسكندرية وبذا تستطيع تدمر أن تحول تجارة هذا المرفأ لصالحها حيث أنه ومنذ عهد أغسطس قيصر كانت الإسكندرية تجهز ما لا يقل عن 120 سفينة للوصول إلى الموانئ الهندية وهذه نقطة لم تكن في صالح تجارة تدمر. [51]

ويبدو أن قطع الغلال عن روما كان غايته إنهاك روما المتهالكة من أجل اعتلاء زنوبيا لعرشها. ففي عام 271 م تعلن زنوبيا استقلال تدمر ويؤكد ول ديورانت على أن انتصارات زنوبيا لم تكن إلا فصلاً من مسرحية واسعة النطاق هي مسرحية انهيار روما. [52]

وفي موازاة مشروع زنوبيا الإمبراطوري كانت روما المنهكة تسعى إلى لملمة أشلائها وقد حصل لها ذلك عبر استلام العرش مجموعة من الأباطرة الالليريين الذين ينتسبون إلى البلدان الواقعة جنوب نهر الدانوب وقد عرفت شعوب هذه المنطقة الواقعة تحت السيادة الرومانية أن توفق بين أصلها وميلها إلى الطبيـــعة الرومانية ودليل ذلك أن موقف الأباطرة الالليرين الذين حكموا عرش روما لم يتغير من الإمبراطورية الرومانية وثقافتها. فقد بذلوا جهودهم في سبيل الحفاظ على التقاليد الرومانية ــ وكان أورليان /خصم زنوبيا/ أحد هؤلاء الأباطرة ويعتقد أنه نشأ في مستوطنة رومانية في يوغسلافيا (بنونيا السفلى).

يقول فرانتس إلتهايم: كان القيصر الاليري أورليان 270 ــ 275 م يعارض ما لم يكن له لون روماني في الفلسفة والأدب السياسي وأخذ يحارب تقلب السوريين وأحلام ملكة تدمر. [53]

بالإضافة إلى هذا فقد أمر ببناء سور حول روما لدرء الأخطار عنها وفي وقت كانت تدمر محاطة بسور مدعم بأبراج مربعة.

وبعد أن وطّد أورليان أحوال الإمبراطورية الرومانية على الدانوب من هجمات البرابرة واستقرت أموره توجه بنظره إلى الشرق حيث تدمر التي قطعت الخطوط التجارية عن روما وسحبت المؤن والغلال لصالحها فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يصرخوا عالياً نجّنا أيها الإمبراطور من زنوبيا.

فقد أدخلت زنوبيا شبح الفقر إلى كل بيت في روما. [54]

وتوجه أورليان بجيشه إلى الأناضول واستعادها وأرسل جيشاً رومانياً لاستعادة مصر وتمّ له ذلك. وفي النصف الأول من عام 272 م يتواجه أورليان مع زنوبيا في أنطاكية عاصمة سورية آنذاك.

أورليان الذي يريد المحافظة على عرش روما والذي لقب بـــ «يد على سيف» مقابل زنوبيا الحالمة أيضاً بعرش الإمبراطورية والتي تحمل لقب (أوغستا).

ويعود الجيش التدمري إلى حمص ويتواجه مع الجيش الروماني ثم يعود الجيش التدمري إلى تدمر ويتحصن خلف أســوارها آملاً بأن يتدخل الأعــراب في إلحاق الهزيمة بجيش أورليان ولكنهم حاولوا ولم يفلحوا بذلك فحاصر أورليان تدمر وقطع خطوط الإمدادات عنها و التي كانت ترد من العــرب البدو أو من الساسانيين أو الأرمن.

وحصلت مراسلات بين أورليان وزنوبيا في وقت كان الرومان يسخرون من أورليان الذي يحارب امرأة حيث قال لهم: «ليتكم تعرفون من هي هذه المرأة وأي امرأة أقاتل وليتكم يا من تعتبرون أنفسكم رجالاً تشبهون زنوبيا في أي صفة من صفاتها، وماذا سيقول التاريخ إذا غلبتني زنوبيا..؟»

وأجهد أورليان حصار تدمر وفشل في اقتحام أسوارها فقرر التفاوض مع زنوبيا ويبدو أنه صاغ رسالة آمرة لزنوبيا بأن تستلم وتسلم المدينة له.

غير أن زنوبيا أجابته:

«لم يجرؤ أحد من قبلك أن يطلب مني ما طلبته أنت... في الحرب كل شيء يحسم بالشجاعة.... إنك تطلب مني الاستسلام.. إن الأعراب قد قهروا جيشك وإذا ما جاءتني الإمدادات فإنك ستتخلص من غرورك وتتوقف عن طلب استسلامي... أيها الإمبراطور.. الأرجوان هو لباس الملوك ولكن بالنسبة لي سيكون خير الأكفان.».

فما كان من أورليان إلا أن أمر بالهجوم حيث عزز الحصار وأسر بعض عملائها من الفرس وقام بشراء ضمائر البعض من الأعراب البدو لتسقط تدمر تحت سلطة الجيش الروماني وتروي المصادر أن زنوبيا اتجهت بنفسها نحو الفرات كي تطلب مساعدة الساسانيين فتم إلقاء القبض عليها وفتحت أسوار تدمر أمام الجيش الروماني.(55)

لتسقط تدمر عام 272 م وتترك فيها حامية مؤلفة من 600 عسكري روماني.

وما أن قفل أورليان راجعاً نحو رومـــا حتى قامت ثورة في تدمـــر قضت على الحامية ــ فما كان من أورليان إلا أن عـــاد إليها حيث قتل الشـــيوخ والأطفال والنساء وهدمت البيوت والمعابـــد على رؤوس ساكنيها، حصل ذلك في ربيع عام 273 م.

والجدير ذكره هنا هو أنه حين ثارت تدمر على الحامية الرومانية قامت ثورة في مصر تعترف بتدمر مرة ثانية، وهددت روما بالمجاعة لانقطاع طرق الإمداد. (56)

بالإضافة إلى ذلك فحين سقوط تدمر أضربت البتراء، وقام سكانها بتدمير المعبد الرئيسي الذي أصبح مركزاً لعبادة الإمبراطور الروماني.(57)

وعام 274 م يعود أورليان إلى روما وقد لقّب بأنه «مرجّع العالم» غير أنه في عام 275 م يتم اغتياله على يد جماعة من ضباطه. والجدير ذكره هنا هو أنه أمر ببناء معبد لاله الشمس الحمصي في روما إبّان عودته إلى روما (58) ما يؤكد قوة الروح السورية العربية مقابل الخواء الروحي لروما.

مصير زنوبيا:

تضاربت الآراء حول مصير زنوبيا، فمن قائل أنها أسرت في طريقها في طلب الإمدادات من الساسانيين، ومنهم من يقول أنهّا انتحرت بالسمّ، وبعض الآراء تذكر أنهّا أخذت إلى روما حيث شوهدت في موكب النصر للامبراطور أورليان، لا بل أعطت أوصاف المركبات التي رافقت الحفل كمركبة أذينة ومركبة زنوبيا (59) إلخ وثمة رأي يقول أنّه أطيح برأسها بعد موكب النصر.

أمّا التاريخ الأوغستي فيذكر أن زنوبيا أنهت حياتها بهدوء كسيدة رومانية حيث تزوجها أحد أعضاء مجلس الروماني وأنجبت أولاداً منه.

لكننا ولأننا بدأنا بحثنا هذا بخصائص وروحية الحضارة السورية، فإننا نرى حسب الخط الحضاري التاريخي الاجتماعي لسورية من جهة، ولأن مشروع زنوبيا وممارستها للصراع الحضاري ضد الرومنة، لا يمكن أن يجعل زنوبيا تستسلم للذل ولحياة السكينة بعد دمار مدينتها. وبذا نكون أميَل في رأينا إلى أن زنوبيا أسرت ولكن الذي حصل فيما بعد إمّا أنها أضربت عن الطعام حتى الموت أو تجرّعت السم وهي في طريقها إلى روما.

وأخيراً وللإضاءة على هذا الأمر بشكل آخر وأعمق لا بأس من أن نحلل شخصية ونمط وتفكير زنوبيا وانعكاس ذلك على مصيرها.

اسم زنوبيا التدمري هو «بت زبّاي» أي ابنة العطاء أو العطية، أما زنوبيا فهو اسم يوناني ـــ لاتيني أطلق على ملكة تدمر وهو مؤنث زنوبيوس وتعني هذه (قوة زيوس الحيوية) كانت تتكلم المصرية واليونانية، علّمها مستشارها لونجين الآداب اليونانية حيث كان استناداً للفلسفة في أثينا قبل مجيئه إلى تدمر.

قرأت زنوبيا تاريخ روما باليونانية (وهذا على قاعدة أعرف عدوك).

وكتبت كتاباً حول تاريخ الشرق ومصر، يقول عنها خصمها أورليان: لو تعلمون أناتها في المجالس، وثباتها في القرارات، وحزمها مع الجنود،

وتسامحها عند الضرورة. إن أذينة مدين لها بنصره على الفرس.

أما مواقفها الفكرية فنلاحظ أنه بالإضافة إلى لونجين، ضمت إليها الأسقف بولص السميساطي أسقف أنطاكية. وبعد موت الامبراطور غاليانوس وعودة الأباطرة الالليريين تجّمع أتباع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ومعظمهم سوريون، أمثال فورفوريوس وكلينيكوس ولونجين وغيرهم في سورية، وكان أملهم أن تكون زنوبيا ملكة تدمر دعماً لهم ويصبح بلاطها مركزهم الفكري. وهذا ما كان، حيث وضع لونجين في البلاط التدمري وأصبح موجهاً لسياسة تدمر.

يقول فيليب حتي: أنه في القرن الثالث للميلاد أصبحت أفامية مركز مدرسة الأفلاطونية الحديثة وتتمتع ببعض الأهمية وقد أسسها أمبيلوس تحت رعاية زنوبيا. (60)

أمّا اشبنجلر فيقول في كتابه تدهور الحضارة الغربية: إن الأفلاطونية الحديــثة تمتّ إلى الحضارة العربــية ولا يدخلها في ســياق الحضارة اليونانية بينما يلاحظ فرانتس إلتهايم أن معظم أتباع أفلوطين كانــوا من أصل سوري. (61)

فكما كانت الرواقية ذات بعد مشرقي في وجه المتضادات الفلسفية اليونانية كانت الأفلاطونية الحديثة التي تبنّتها زنوبيا تمتلك البعد المشرقي والسوري في القرن الثالث الميلادي الذي شهد أحياء قوياً للهلنستية في نواحي الفلسفة.

وللإيضاح ولفهم خلفية زنوبيا الفكرية فإن الأفلاطونية الحديثة نشأت على يد أفلوطين 205 ــ 270 م وكان لها فروع في الاسكندرية وسورية وأثيناو ترتكز على أنّ أول شيء انبثق من الواحد هو العقل وهذا العقل له وظيفتان وظيفة التفكير في الله ووظيفة التفكير في نفسه ومن هذا العقل انبثقت نفس العالم التي لها ميلان، ميل علوي نحو الله وميل سفلي نحو الطبيعة.

ويلاحظ أنّ الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة هي نفس الأخلاق في

الرواقية وكذلك علم ما بعد الطبيعة، ولم يكن ثمة صراع بين المادة والروح بل ثمة صلة. (62)

وفي هذه الصـــلة تكمن روح المشرق العربي عبر تاريـــخه وفي هذا التاريخ المستند على التـــوازن المادي ــ الروحي، كانت تدمر، وكانت زنوبيا المعبرّ عن جوهر الحضارة السورية العربية.

الهوامش

(1) مجلة البناء اللبنانية ــ العدد 837 ــ تاريخ 5/23 /1992 ــ من حوار أجريناه مع الباحث خالد الأسعد أمين متحف وآثار تدمر.

(2) د. عدنان البني ــ تدمر والتدمريون ــ وزارة الثقافة ــ دمشق 1978

(3) جان بابليون ــ امبراطورات سوريات ــ ترجمة: يوسف شلب الشام ــ دار العربي ــ دمشق 1987

(4) اسحق شيفمان ــ المجتمع السوري القديم ــ ت: د حسان اسحاق ــ مؤسسة الوحدة ــ دمشق 1987

(5) المرجع السابق.

(6) المرجع السابق.

(7) رينيه دوسو ــ الديانات السورية القديمة ــ ت: موسى الخوري ــ دار الأبجدية ــ دمشق 1996

(8) شيفمان ــ مرجع سابق.

(9) خ. تيكسيدور ــ ب. كانيفه ــ الحياة الدينية في سورية قبل الاسلام ــ ت: موسى خوري ــ الأبجدية ــ دمشق ــ 1996

(10) فرانتس التهايم ــ اله الشمس الحمصي ــ ت: ايرينا داوود ــ العربي ــ دمشق ــ 1990

(11) الحوليات الأثرية السورية ــ مجلد 42 ــ 1996 ــ ندوة طريق الحرير ــ تدمر.

(12) تيكسيدور ــ مرجع سابق.

(13) شيفمان ــ مرجع سابق.

(14) الحوليات ــ مرجع سابق.

(15) د. علي أبو عساف ــ آثار الممالك القديمة في سورية ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ 1988

(16) الحوليات ــ مرجع سابق.

(17) أرنولد توينبي ــ تاريخ البشرية ــ ج1+ج2 ــ ت: نقولا زيادة ــ دار الأهلية ــ بيروت ــ 1982

(18) ي. بيكرمان ــ الدولة السلوقية ــ ت: حسان اسحاق ــ الأبجدية ــ 1993
(19) المرجع السابق.
(20) عدنان البني ــ المرجع السابق.
(21) بيكرمان ــ مرجع سابق.
(22) الحوليات ــ مرجع سابق.
(23) البني ــ مرجع سابق.
(24) شيفمان ــ مرجع سابق.
(25) شيفمان ــ مرجع سابق.
(26) مجلة البناء ــ مرجع سابق.
(27) الحوليات ــ مرجع سابق.
(28) جيمس بريستد ــ العصور القديمة ــ ت: داوود قربان ــ مؤسسة عز الدين ــ بيروت ــ 1983
(29) هورست كلينغل ــ آثار سورية القديمة ــ ت: قاسم طوير ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ 1985
(30) شيفمان ــ مرجع سابق.
(31) شيفمان ــ مرجع سابق.
(32) عدنان البني ــ أبولودور الدمشقي ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ 1990
(33) المرجع السابق.
(34) الحوليات ــ مرجع سابق.
(35) رينيه دوسو ــ مرجع سابق.
(36) تدمر والتدمريون ــ
(37) الحوليات ــ مرجع سلبق.
(38) الحوليات ــ مرجع سابق.
(39) تدمر والتدمريون.
(40) الحوليات ــ مرجع سابق.
(41) جان ستاركي ــ صلاح الدين منجد ــ تدمر ــ مديرية الآثار ــ 1947
(42) مجلة البناء اللبنانية ــ العددان ــ 835 ــ 836 ــ تاريخ: 5. 9 ــ 5.

1992/16

(43) الحوليات ــ مرجع سابق.

(44) د. نقولا زيادة ــ المسيحية والعرب. دار قدمس ــ دمشق 2000

(45) جان بابليون ــ مرجع سابق.

(46) جيمس بريستد ــ مرجع سابق.

(47) شيفمان ــ مرجع سابق.

(48) اشبنغلر ــ سقوط الحضارة الغربية ــ ت: أحمد الشيباني ــ دار مكتبة الحياة ــ ج1.

(49) شيفمان ــ مرجع سابق.

(50) شيفمان ــ مرجع سابق.

(51) بريستد ــ مرجع سابق.

(52) ول ديورانت ــ قصة الحضارة ــ الحضارة الرومانية ــ ت: محمد بدران ــ جامعة الدول العربية.

(53) فرانتس التهايم ــ مرجع سابق.

(54) مجلة البناء ــ 837.

(55) تدمر والتدمريون ــ مرجع سابق.

(56) شيفمان ــ مرجع سابق.

(57) شيفمان ــ مرجع سابق.

(58) التهايم ــ مرجع سابق.

(59) شيفمان ــ مرجع سابق.

(60) فيليب حتي ــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ ج1 ــ ت: جبرائيل جبوروكمال يازجي ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ 1982

(61) التهايم ــ مرجع سابق.

(62) زكي نجيب محمود وأحمد أمين ــ قصة الفلسفة الحديثة ــ دار المكتبة المصرية ــ 1935.

مراجع البحث الأخرى

- هورست كلينغل ــ تاريخ سورية السياسي ــ ت: سيف الدين دياب ــ دار المتنبي ــ دمشق ــ 1998
- الفرد هالدر ــ العموريون ــ ت: د. شوقي شعث ــ دار الأبجدية ــ 1993 ــ دمشق.
- فيليب حتي ــ خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى. ج1 ــ الدار المتحدة ــ بيروت ــ 1982
- عدنان البني ــ الفن التدمري ــ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ــ دمشق.
- تاريخ الشرق الأدنى القديم، ايران والأناضول ــ د. سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي ــ وزارة التعليم ــ العراق.
- روبرت وود ــ أثار تدمر. ت: ابراهيم أسعد. دار المعارف ــ حمص ــ 1993
- مجلة دراسات تاريخية ــ عدد 39 ــ 140 ــ 1991 ــ ملف طريق الحرير.
- عبد الرحمن بدوي ــ ربيع الفكر اليوناني ــ مكتبة النهضة المصرية ــ 1979
- جلانفيل داوني ــ أنطاكية القديمة ــ ت: ابراهيم نصحي ــ دار النهضة ــ مصر ــ 1967
- كافين رايلي ــ الغرب والعالم ــ ت: عبدالوهاب المسيري وهدى حجازي ــ عالم المعرفة ــ الكويت ــ عدد 90

- مجموعة مقالات في مجلة ـــ syria ـــ اصدار المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى ــ ifapo.

مقاربة فكرية ــ تاريخية
للبعد الإنساني في الحضارة السورية

د. بشار خليف

«في المشرق القديم أرسيت الأسس التي حددت إلى أمد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ الإنساني».

كلوتشكوف ــ بونغارد ــ ليفين» (1)

يعنينا في مقاربتنا للبعد الإنساني في حضارة المشرق العربي القديم أن نؤسس لعدة ركائز سوف تشّكل العمود الفقري لبحثنا:

أولها: أن هذه المقاربة لا تعني بحال من الأحوال أن المجتمعات الإنسانية الأخرى لم تكن ذات بعد إنساني، ولكن في تقديرنا أنّ هذا البعد يتسع كما ينغلق تبعاً للخصائص الذاتية والشخصية لمطلق مجتمع، والذي يبدو أن الخصائص المجتمعية تلعب دوراً أساسياً في هذا المجال بالإضافة إلى الظروف الجغرافية والبيئية والموضوعية.

وما يعنينا في هذا المجال من بحثنا هو رصد مجمل المنجزات الحضارية للمشرق العربي القديم والتي ساهمت في التطور اللاحق للمجتمعات الإنسانية، ما شكّل نقاط انعطاف حاسمة في مجرى الوجود الإنساني وبالتالي تطوره وما انعكس على تطور الحياة الإنسانية إلى يومنا هذا.

ثانيها: تختلف وسيلة نقل المنجز الحضاري بين المجتمعات، فبين مثلاً أن يأتي أفلوطين إلى مصر والمشرق العربي ويستفيد من أفكار مينوس الأفامي ومن ثم يؤسس مذهبه في الأفلاطونية الحديثة كمنجز فكري في زمن ما، وبين أن يتم اختراع الكتابة مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في الشرق العربي ثم يبلورها المشرق أيضاً في الأبجدية الكنعانية ومن ثم ينقلها المشرقيون بأنفسهم إلى عالم المتوسط لتصبح كتابة العالم آنذاك بعد تكييف كل مجتمع لها بحسب خصائصه الذاتية الذهنية منها والألسنية وما إلى هنالك. فبين هذا وذاك تتسع الرؤية لتكشف عن حس إنساني عال تبدى لدى مجتمع

المشرق العربي القديم بكافة تنوعاته، فلم يكن يتم الاكتفاء بابتكار المنجز، لا بل والسعي لنقله للمجتمعات الأخرى ويشمل هذا مجمل المنجزات الحضارية إن لم يكن كلها.

ثالثها: يتأثر المنجز الحضاري الإنساني بالجغرافيا التاريخية إلى حدّ كبير، وتأسيساً على ذلك فالمنجز الحضاري المشرقي كان يمتلك مجاله الحيوي الممتد من إيران والأناضول وحتى عالم المتوسط وشمال أفريقيا والجزيرة العربية. وعبر انتقال هذا المنجز الإنساني إلى المجتمعات الأخرى، نصبح أمام اكتمال في شرطه الحضاري والوجودي، ولعل هذا الأمر يشكّل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة السورية.

رابعها: ثمة اختلاف بين الباحثين في تحديد أسباب أن يكون مجتمع ما ذا خصائص إنسانية ورسولية وإبداعية، في حين أن بعض المجتمعات تكتفي بنفسها ولنفسها.

وقد أعاد ابن خلدون هذه المسألة إلى عامل «الهواء»، أي المناخ والبيئة الطبيعية، ويبدو أنه انزلق في طرحه إلى بوادر عرقية من أن ثمة أجناساً متخصصة بالتحضر والتقدم، عنى بذلك سكان الأقاليم المعتدلة، في حين أن هناك أجناساً لاتقدم شيئاً، وبمعنىً آخر فهو ربط بين الخصائص الخلقية (بفتح الخاء) وبين الخصائص الخلقية (بضم الخاء).[(2)]

ولا نعتقد أن هذا الطرح تؤيده معطيات الاناسة والأثنولوجيا.

وباعتقادنا أنه وإن كان للبيئة الطبيعية دورها بما تقدّمه من امكانات، غير أن للبيئة الاجتماعية المتفاعلة بحدّ ذاتها والمنفتحة على البيئات الاجتماعية الأخرى، الدور الأساسي في ذلك وسوف يؤدي تفاعلها مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي الطبيعي إلى جملة من المنجزات والاختراعات الإنسانية الكبرى.

ويتضح التفاعل عبر التمازج البشري والغنى المختلف والمتنوع والذي يؤدي باطراد إلى تبلور خصائص مجتمعية متقاربة تشكّل شخصية الجماعة أو المجتمع المنفتح على التجارب والخبرات الإنسانية الأخرى. ويتضح هذا

في البنية الديمغرافية للمشرق العربي عبر التاريخ وصولاً إلى العصر الحديث، ولعل ما حصل مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، شاهد على ذلك، فقد هاجر مسلمو البلقان وكريت إلى دمشق بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وأقاموا على سفح جبل قاسيون وسمّي حيّهم بحي المهاجرين، والآن بعد مضي حوالي القرن انصهر هؤلاء في النسيج الاجتماعي الواحد ولم يبق من ذكراهم سوى اسم الحي.

هذا مثال حديث لما كان يحدث عبر مسار التاريخ المشرقي، سواء في تفاعل العموريين مع السومريين أو التفاعل الآشوري ــ الآرامي أوفي التفاعلات العمورية ــ الكنعانية ــ الآرامية ــ العربية في تدمر على سبيل المثال. ولعل هذا الأمر أوحى للمستشرقين بوجود صراعات أثنية أوعرقية بين سكان المشرق العربي القديم، لكن العالم الروسي بونغارد ــ ليفين أوضح ما نريد قوله حيث ورد في كتاب «الجديد حول الشرق القديم»: ان الشرق القديم لم يعرف الموقف العدائي من عادات وتقاليد وثقافات الشعوب المجاورة والبعيدة، ولم يعرف كذلك الخلافات والصراعات القائمة على أساس أثني أو الحقد العرقي والشعور بالتفوق على الشعوب الأخرى[3].

وطبعاً فنحن نذكر ذلك لأننا نرى أنه كي يكون لمجتمع ما بعد إنساني فلابد له أن يمتلك في شخصيته خصائص العدالة والتسامح والانفتاح وقيم الخير والحق والتي هي قيم إنسانية بالمطلق ومجتمعية في آن.

بناءً على كل هذا فلابد أن نؤكد على فلسفة التفاعل الاجتماعي والتي هي الضامن للتفاعل الإنساني المنفتح للحياة والكون.

خامسها: لن نقف في بحثنا أمام الإبداعات والمنجزات الحضارية المشرقية التي شكلت بعداً إنسانياً في عصر ما، ولم تستمر إلى العصور الحديثة. بمعنى آخر أن اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم هو اختراع حيّ حتى الآن وكذلك ابتكار الأبجدية السورية.

وما الوصول إلى المعلوماتية وعصر الاتصالات إلاّ إعادة لاختراع الكتابة وابتكار الأبجدية بزمن آخر ووسيلة أخرى أكثر تطوراً.

في حين أنّ انتشار عبادة إله الشمس الحمصي في العصر الروماني في أصقاع الإمبراطورية الرومانية يعتبر بعداً إنسانياً ابن عصره، ولم يؤد إلى استمرارية استفادت منها الحضارة الإنسانية، ويمكن النظر أيضا، إلى الفلسفة الرواقية ببعدها الإنساني، فصحيح أنها كانت ابنة عصرها ولكن في بعدها الأعمق شكلت الأرضية الفلسفية والفكرية للمسيحية وهذا ما جعلها ذات بعد إنساني أ رحب.

سادسها: لعل تاريخ المشرق العربي كما يدرسه المستشرقون يفهم منه أنه عبارة عن قبائل ومدن مختلفة ومتناحرة ومفككة.. غير أن واقع الأمر هو أن ثمة كتلتان أساسيتان شكلتا تاريخ المشرق العربي القديم هما: السومريون والعموريون ــ الأكاديون.

السومريون: طالما وجدوا على أرض المشرق وتفاعلوا معها ومع البيئة الاجتماعية أصبحوا مشرقيين بغض النظر عما يطرحه بعض الباحثين من الناحية اللغوية أو الأثنية.

العموريون: منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد بدأوا بالتنقل في أجزاء المشرق القديم حيث انطلقوا من منطقة جبل بشري في بادية الشام باتجاه الجناح الشرقي للمشرق العربي القديم وأسسوا مدناً وممالك وكان أهم حكامهم صارغون الأموري «الأكادي» 2350 ق. م الذي سعى لاحتواء الوعي المديني إلى وعي أعمّ عبر تأسيسه لإمبراطورية وصلت حتى البحر المتوسط وكذلك حمورابي وشمشي أدد ونارام سين.

ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد صار بإمكاننا النظر إلى المشرق العربي كوحدة اجتماعية متجانسة أساسها العموريين ومن تفاعل مع فاعليتهم التاريخية ــ الاجتماعية.

ويبدو من دراسة حركة التاريخ في المشرق العربي القديم ولا سيما في عصوره التاريخية أن الجناح الغربي للمشرق «بلاد الشام» كان دوماً يطمح بحيويته التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية أن يضم الجناح الشرقي للمشرق«الرافدين» إلى حركته وإيصاله نحو المتوسط وهذا

ما فعله صارغون الأكادي وحمورابي ومحاولات شمشي أدد، ولا تشذّ زنوبيا عن هذا الأمر.

وبالتدقيق في حركة التاريخ نلاحظ أن الجناح الغربي للمشرق العربي كان الرافعة التاريخية للبعد الإنساني لا سيما عبر الفاعلية الكنعانية ولا سيما البحرية منها، حيث عرف عن الكنعانيين أنهم تجار العالم القديم مستفيدين من الوجه البحري المشرقي المتجسد في البحر المتوسط.

سابعها: لعبت التجارة عبر التاريخ دوراً أساسياً ومهماً في التفاعل بين الشعوب والأمم، فإلى جانب التبادل التجاري كان يتم التعرف والتأثر والتأثير بين الثقافات في العالم القديم.

ويبدو أن أغلب مدن المشرق العربي كانت قائمة على خطوط التجارة العالمية مستفيدة من موقعها الاستراتيجي بين شرق العالم القديم وغربه وبين شماله وجنوبه.

لذا فإن التجارة لعبت دوراً أساسياً في تحقيق الانتشار الإنساني للمنجز الحضاري.

والجدير ذكره هنا مثلاً أن المسبحة التي نراها في أيدي المشرقيين والعرب والمسلمين أتت عبر التجارة إلى بلاد الشام من التجار البوذيين في حوالي 500 ق. م والآن يستخدمها المسلمون والمسيحيون في المشرق «د. حسني حداد 1990»[4] لا بل وتأتي الآن عبر موسم الحج عن طريق الحجاج المسلمين.

البعد الإنساني لحضارة المشرق العربي 40000 ــ 3500 ق. م:

في تقويمه لحضارة المشرق العربي القديم يقول هنري فرانكفورت:

«نحن نتعرف إلى الحضارة في الشرق المتوسطي القديم في الصفة الإنسانية التي تكون ذاتيتها وتعتبر طابعها المميز»[5]..

إن الأدلة الأثرية أثبتت أن الإنسان في المشرق العربي وجد قبل حوالي المليون سنة «د. سلطان محيسن 1990» في حين يعيده الدكتور زيدان كفافي إلى مليون ونصف مليون سنة[6]، وإن تطور هذا الإنسان

وتفاعله مع البيئة وتطور دماغه أدى كل ذلك إلى ظهور إنسان النيناندرتال المشرقي في حدود 100000 سنة والذي شكّل الإنسان العاقل في المشرق وريثه المباشر [7] وذلك في حوالي 35000 سنة.

أما في أوربا فإن النيناندرتال الأوروبي لم يتطور إلى الإنسان العاقل الأوربي بل تطور هذا الأخير عن الإنسان المنتصب «الهوموأركتوس» [8]

وقد اعتبر الإنسان العاقل جدنا المباشر، هو الذي صنع الحضارة الإنسانية بمفهومها البدئي والشامل مستنداً على ما ورثه من سابقه (النياندرتال أوالإنسان المنتصب؟) وهو الذي مازال ينجز حتى الآن.

ويبدو أنه ولأسباب مجهولة ــ ربما بيئية ــ هاجر الإنسان العاقل المشرقي شمالاً إلى أوربا حيث أسس هناك حضارة غنية ومميزة.

وهذا يعني أن الإنسان العاقل المشرقي وريث النيناندرتال المشرقي قد أمدّ أوربا قبل حوالي 40000 عام بأولويات الحضارة على قاعدة أن هذا الإنسان هو جدّنا أولاً وأنه صانع الحضارة الإنسانية ثانياً.. وهذا فيما يعنيه أن أصل الإنسان الأوربي يعود إلى المشرق العربي القديم.

والطريف في الأمر أن بعض العلماء الغربيين ولا سيما الألمان يرفضون هذه النظرية لأسباب عنصرية حيث لا يمكنهم الاقتناع أن أصولهم تعود إلى المشرق العربي ولو أكدت الحقائق العلمية ذلك [9].

وليس في الأمر غرابة.. حين نعلم أن بعض العلماء الغربيين اكتشفوا أن اللغات اللاتينية واليونانية والفارسية ولغات شمال الهند تتشابه في التركيب والنحو والصرف وهذا ما يعني أنها في مجموعها تعود إلى أصل هندو.. أوربي!! وهذا يعني أيضاً أن الجنس الآري الأصيل هو أصل الحضارة وهذا ما آمن به الألمان حيث حولّوا مصطلح الجنس الهندو ــ أوربي إلى هندو ــ جرماني وبلغ قمة ما وصلوا إليه أن أحد المأخوذين بهم من البريطانيين واسمه هيوستون ستيورات تشمبرلين ألّف كتاباً جعل عنوانه «أسس القرن التاسع عشر» حيث ضمّ فيه دانتي والمسيح إلى الآريين أي الهندو جرمانيين!!. [10]

وبعيداً عن أية تصورات عنصرية آرية أو غير آرية، فقد أكدت

الحقائق العلمية هجرة الإنسان العاقل المشرقي إلى أوروبا وتأسيسه هناك لحضارة مهمة وهذا يؤكد على:

1ـ أن أصل الإنسان الأوروبي يعود إلى المشرق العربي.

2ـ إن الإنسان العاقل المشرقي ـ جدنا المباشر ومبدع الحضارة الإنسانية ـ امتلك كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي.

ولعل هذا يشكل النواة الأولى لمكامن البعد الإنساني الشعوري واللاشعوري إن كان في المستوى الفردي أو في المستوى الجمعي للإنسان المشرقي.

ابتكار الزراعة منجز سورية الإنساني الحضاري:

يقول العالم غولايف: ان كل الباحثين تقريباً متفقون على المغزى الذي تنطوي عليه ثورة العصر الحجري الحديث التي اتسمت بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة البشر وهي: الزراعة وتربية الماشية والتجمعات المستقرة الدائمة وصناعة الفخار بالنسبة إلى تطور المجتمع البشري. (11)

فمع مطلع الألف التاسع قبل الميلاد بزغت إلى الوجود «الثورة الزراعية» في المشرق العربي، وقد عثر على أقدم دليل /حتى الآن/ لممارسة الزراعة وتدجين الحيوان في المنطقة الممتدة من حوض الفرات شمالاً مروراً بحوضة دمشق في الوسط وحتى حوض الأردن جنوباً، وهذه المنطقة تعتبر البؤرة الأقدم في العالم لظهور الزراعة والتدجين. (12)

وكما أشرنا في مقدمتنا إلى مجال المشرق العربي الحيوي، فلابد أن يتم انتقال هذا المنجز إلى مجاله، ففي حوالي7600 ـ 6000 ق. م وصلت الزراعة إلى الأناضول بواسطة السوريين، ومن ثم سوف ينتقل هذا المنجز إلى مناطق أخرى في العالم وفق ما يلي:

المرحلة الأولى: من نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس ق. م:

حيث وصلت الزراعة إلى جنوب أوروبا والبلقان واليونان، ويعتقد أن تأثيرات هذه المرحلة وصلت شرقاً إلى باكستان وغرباً حتى شمال أفريقيا.

المرحلة الثانية: من نهاية الألف السادس وبداية الألف الخامس ق. م:

حيث تحركت القرى الزراعية على امتداد السواحل ووديان الأنهار الكبرى كالدانوب، حتى وسط أوروبا وغربها.

المرحلة الثالثة: منتصف الألف الرابع قبل الميلاد:

وفيها وصلت الزراعة إلى شمال أوروبا واسكنديناڤيا. وبتأثيرات مباشرة من المشرق العربي نشأت الزراعة في وادي النيل في حوالي الألف الخامس قبل الميلاد، هذا ماأكدته تنقيبات ومكتشفات موقع الفيوم في مصر. (13)

إذن نحن أمام عدة حقائق تشكّل قيمة إنسانية وبعداً هو أيضاً إنساني:

1ــ أن المشرق العربي شهد أول ظهور للزراعة في العالم.

2ــ أن ثمة تأثيرات مباشرة عبر نقل هذا المنجز الحضاري الإنساني بواسطة مخترعيه «المشرقيين» مباشرة إلى الأناضول ومصر.

3ــ أن نقل هذا المنجز سوف يستتبع نشوء معايير جديدة تفرضها الثقافة الزراعية ولاسيما لجهة الاستقرار وتماسك البنى الاجتماعية وظهور المعتقدات وتطور الفنون والعمران والتجارة والاقتصاد، وهذا ما ينبغي الإشارة إليه في توسيع دائرة الرؤية لمفهوم المنجز الحضاري وتفاعلاته.

صناعة الفخار:

شهد المشرق العربي في حوالي 6500 ق. م بداية صناعة الفخار دلّ على ذلك مكتشفات موقع تل أسود في الجزيرة السورية. ومن ثم عمّ هذا الاختراع في منطقة المشرق، ومع حلول الألف السادس ق. م /مطلعه/ انتقل هذا المنجز إلى الأناضول ويبدو أن ظهوره هناك كان حصيلة مشتركة بين الأصول المحلية الأناضولية والتأثيرات المشرقية بالخاصة. (14)

المنجز الحضاري الإنساني المشرقي في العصور التاريخية 3500 ــ 333 ق. م:

إن ابتكار الزراعة أدى إلى انقلاب شامل في مجمل أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعتقدية والروحية، فقد تطور العمران وتطورت المفاهيم الذهنية الاجتماعية وزاد التراص الاجتماعي، ما أدى إلى نشوء المجتمعات الكبرى المستقرة، ولسوف يؤدي تراكم هذه المعطيات وباطراد إلى نشوء المدن الكبرى وهو ماعرف بثورة المدن.

وقدتم ذلك في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، فقد شهد المشرق العربي آنذاك نشوء مدن أولى مثل أوروك وحبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وتل براك وجبل عارودة. ولعل هذا المنجز في تحالفه مع التجارة والنشاط التجاري، سوف يولّد تبعاً لتطور الحياة الاقتصادية الاجتماعية والذهنية ابتكاراً مفصلياً هاماً يتجلى في اختراع الكتابة في حوالي 3200 ق. م.

وهنا أصبحنا أمام ظاهرة تحول مدن المعبد إلى مدن دول مشكلة بذلك انبثاق السلطة الزمنية إلى جانب السلطة الدينية في قيادة مجتمع مدن الدول، ومع مطلع الألف الثالث ق. م أصبحنا أمام ظاهرة المدن الكبيرة والمسورة مثل ترقا ــ شوباط انليل ــ تل براك ــ مجيدو ــ خربة الكرك ــ تل الفرح ــ جبيل ــ باب الضهرة ــ كيش ــ نيبور ــ تل فارا ــ أبو صلابيخ.

يقول كلوتشكوف وبونغارد ــ ليفين: في الشرق القديم أرسيت الأسس التي حددت إلى أمد بعيد المسيرة اللاحقة للتاريخ العالمي، فهناك تمت الاكتشافات الهامة جداً في مجال الحضارة، ونشأت المدن والمجتمعات وظهرت الكتابة والآداب والعلوم، وقد كان لحضارة الشرق القديم أعظم التأثير على الحضارة الإغريقية ــ الرومانية والحضارة الإسلامية، وأثرت أيضاً من خلالهما على الحضارة العالمية في العصور الحديثة. (15)

اختراع الكتابة:

شكلّ اختراع الكتابة ومن ثم ابتكار الأبجدية في المشرق العربي منعطفاً مفصلياً مهماً لجهة تعميق الوعي الإنساني في المستوى العالمي، ونظراً لدراستنا لهذا الموضوع في متن هذا الكتاب /راجع الدراسة الثانية/ فسوف نناقش هنا فقط البعد الإنساني لهذا المنجز الهام.

فعلى قبر زينون الرواقي الكنعاني ثمة نقش يقول: ألم يأتي قدموس من فينيقيا ومنح اليونان كتبها وعلّمها فن الكتابة؟.

فأن يتم اختراع الكتابة المسمارية في المشرق العربي، وأن يصل هذا المشرق لابتكار الأبجدية /التي أصبحت عالمية/ فهذا مفهوم، ولكن ممكنات النفسية المشرقية الرسولية حتمّت أن يتكفل أبناء هذا المشرق بنقل منجزهم إلى العالم ابتداءً من اليونان، فهاهو قدموس يتوجه إلى اليونان ويؤسس هناك مدينة طيبة ثم يعلّمهم الأبجدية المشرقية التي سوف تنتقل تباعاً إلى مجتمعات العالم القديم.

يقول فيليب حتي في معرض مناقشته لهذا الأمر: لقد انتقل حرف الهجاء /الكنعاني/ شرقاً إلى الآراميين الذين نقلوه إلى الفرس حيث أصبحت الآرامية لغة رسمية عندهم ومن ثم فقد أخذه العرب ليكتبوا به لغة القرآن.. وبعد ذلك انتقل إلى شعوب آسيوية أخرى.. وقد حصل الفرس والأرمن والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية، وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي، وقد حمل الكهنة البوذيون من الهند، الأبجدية والسنسكريتية إلى قلب الصين وكوريا. وهكذا وصلت الحروف الكنعانية شرقاً بطريق الآرامية إلى الشرق الأقصى وغرباً بطريق اليونانية إلى الأمريكيتين، مطوقة العالم كله. (16)

لقد شكلّ ابتكار الكتابة ومن ثم الأبجدية منجزاً حضارياً إنسانياً سوف تتولد عنه وباستمرار منجزات حضارية على الصعيد العالمي وليس أدلّ على ذلك من المعلوماتية التي تدين بنشوئها إلى منجز المشرق العربي الكتابي والأبجدي. وعلى هذا يؤكد العالم جاليلو جاليكي:

في الأبجدية الكنعانية تحقق تصور لطريقة يمكن بها تأكيد التواصل الفكري بين البشر مهما تباعد المكان وعبر كل زمان، وهي طريقة تصلح للتحدث إلى الذين لم يولدوا بعد والى من سيولدون بعد ألف أو آلاف السنين. (17)

العلوم الرياضية والفلك والـموسيقا:

يعنينا قبل الخوض في مجال هذا المنجز أن نؤكد على أن مطلق منجز حضاري مشرقي لم يكن الاّ انعكاساً للتفاعل المادي الروحي على مدى التاريخ المشرقي، لهذا فالبعد الأخلاقي للمنجز الحضاري شكلّ بعداً إنسانياً. وهذا ماجعل الحضارة المشرقية العربية ضرورة إنسانية.

ولو عدنا إلى حوالي 1800 سنة قبل الميلاد، فلسوف يكون بين أيدينا رقيم طيني يحوي مسألة رياضية تدلّ بشكل أكيد على جذور نظرية تالس /طاليس/ التي تؤرخ بحوالي 600 ق. م.

يؤكد العالم فريدريك بيلانشون «أن الرياضيات كانت في بابل (1800 ــ 1500) ق. م ولاسيما في زمن الملك (الأموري) حمورابي، فقد عثر في الألواح الطينية على أدلة تؤكد وجود أسس رياضية في الهندسة وحساب الكميات وحل مسائل من الدرجة الثانية، وحساب الجذر التربيعي». (18)

ويحدد هذا الباحث مميزات الريلضيات المشرقية بما يلي:

التجريد: الذي يعبّر عن تقدم في المعارف الرياضية.

حدة ذكاء جبري: حيث استطاع المشرقيون أن يحصلوا بالتحليل الصحيح لأشكال هندسية خاطئة على نتائج صحيحة وعلمية.

ويصل الباحث للقول: لقد دلت الآثار الرياضية البابلية على ثقافة حسابية كونتها علامات متقطعة جاءت من الحساب الرقمي وقياس المساحات والأحجام وعلم الفلك، وبالتالي كان لابد لليونان من ان يأخذوا هذه المعلومات وينسقونها يشكل جذري يربط بينها المنطق والعقل، وكان ذلك في عام 600 ق. م حيث أسس تالس أول عملية استنتاجية. (19)

وهنا نجد أنفسنا أمام اعادة قراءة لهذا المنجز وفق البعد الشمولي للحضارة السورية، وليس كما بدا للباحث بيلانشون. فالتداخل ضمن المشرق العربي /عبر تاريخه/، الاجتماعي ــ الاقتصادي ــ الروحي، ووحدة الحياة التي أكدتها الكشوفات الأثارية، تجعلنا نقرأ هذا المنجز ضمن اطاره المجتمعي التاريخي، فلا يمكن أن ننظر إليه ضمن الحيّز

الذي وضعه فيه بيلانشون، فهو ليس منجز حصل في جزيرة منعزلة اسمها بابل، وبالتالي فثمة سلسلة تاريخية اجتماعية تحكم ظهور وإبداع هذا المنجز، عنيت في ذلك التفاعل الديمغرافي الاجتماعي الحاصل في مسار التاريخ بين الأكاديين والسومريين والعموريين والبابليين والآشوريين والكنعانيين والآراميين، بحيث أدى إلى ظهور هذا المنجز وغيره من المنجزات.

لهذا فنحن أميل للأخذ بمبدأ الشمول في قراءة مطلق منجز مستندين على الواقع الاجتماعي التاريخي.

أيضاً، هناك مسألة مهمة طرحها الباحث وتتعلق بهوية تالس، فحسب بيلانشون أن تالس اليوناني!، هو الذي ربط المعلومات الرياضية البابلية بالمنطق والعقل وأسس أول عملية استنتاجية. لكن الحقائق العلمية التاريخية تدحض اعتبار تالس يونانياً وتعيده إلى هويته المشرقية الكنعانية، فقد ذكر هيرودوس أن تالس هو سوري، فينيقي، وأكّد ذلك فيثاغورس وأرسطو وأريستوكسان، وتؤكد المعطيات التاريخيةأن طاليس ولد في صيدا وهاجر إلى جزيرة ساموس اليونانية، ثم عاد إلى سورية واتصل بمدرسة موخوس في صور واعتزل في أحد الهياكل الكنعانية في فلسطين ثم هاجر إلى مصر وبابل حيث قضى عشر سنوات. وحين كان في 56 من العمر ذهب إلى ساموس وأسس مدرسته هناك. [20]

على كل هذا يمكننا فهم منجزنا الرياضي وفهم كيفية نقله إلى بعده الإنساني دونما تعصب ولكن بعصبية وعلمية، وعلى هذا يقول بيلانشون: «اننا مدينون للبابليين، هؤلاء المفكرون العظام الذين ساهموا في وضع أساسات العلم الرياضي في الحضارة الإنسانية». [21]

أما ول ديورانت فيشير إلى بابل في الألف الأول ق. م /وهي استمرارية لبابل في الألف الثاني ق. م/ بالقول: «من بابل جاء اليونان الجوالون إلى مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم الرياضيات والفلك والطب والنحو وفقه اللغة وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة، ومن المدن اليونانية

انتقلت هذه العلوم إلى روما ومنها إلى الأوروبيين والأمريكيين، وليست الأسماء التي وضعها اليونان للمعادن وأبراج النجوم والموازين والمقاييس والآلات الموسيقية والكثير من العقاقير، ليست هذه كلها إلا تراجم لأسمائها البابلية، بل إنها في بعض الأحيان لا تعدو أن تكون بديلاً لحروفها من الأحرف البابلية إلى اليونانية».

ويعقّب: «لقد انتقلت حضارة أرض النهرين من مهدها وأضحت عنصراً من التراث الثقافي للجنس البشري». (22)

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن الرياضيات خرجت من معطف التجارة والنشاط التجاري، لا بل أن علم الفلك انبثق من تحالف الرياضيات مع المعتقدات الماورائية.

يشير د. حربي عطيتو في مؤلفه «ملامح الفكر الفلسفي والديني في مدرسة الاسكندرية القديمة» إلى تقدم المشرقيين في الرياضيات، حيث يتحدث عن «تقدم علم الهندسة عندهم، هذا التقدم الكبير لدرجة أنه كان بمقدورهم أن يقدروا المساحات المعقدة ومساحات الأشكال غير المنتظمة، وأدركوا أن الزاوية المرسومة في نصف الدائرة هي زاوية قائمة».

أما عن مدى البعد الإنساني لهذا المنجز فيؤكد على «أن هذه العلوم المشرقية انتقلت إلى اليونان، ونلمس براعة المشرقيين في الجبر عند أرخميدس (القرن الثالث ق. م) وهيرون (القرون الأولى الميلادية) وديوفنتوس في منتصف القرن الثالث الميلادي». (23)

ويؤكد العالم البريطاني غوردون تشايلد أن «أسس علم الرياضيات وضعت في بلاد حوض النهرين، وأكثر الرياضيات الحديثة تطورت عن تلك الأصول عن طريق الرياضيات الهلنستية والعربية».

وهو ما يؤكده العالم هنري فان لون من أن معرفتنا العصرية بالفلك والرياضيات تقوم على مبادئ وضعها البابليون.

ويوضح فيليب حتي ماحققه المشرقيون في مجال الرياضيات بقوله: أصبح العدد60 وهو مركب العشرة، والعدد اثنا عشر وهو أحد الأرقام التي

ينقسم عليها عدد60، أساسين لنظامين حسابيين يعرف الأول بالنظام الستيني والثاني بالنظام الاثني عشري. ولا يزال النظام الستيني مستعملاً في تقسيم الساعة والدقيقة، وكذلك مركب الستين الذي استعمل في تقسيم الدائرة الـــ360 درجة. أما لجهة تواصلية هذا المنجز إنسانياً فيؤكد حتَّى انتقاله إلى العالم: «فالرياضيات عند الشعوب الإسلامية والهندية كانت متصلة الحلقات بالرياضيات في المشرق القديم عبر الكتابات الآرامية والإغريقية». [24]

ونحن نعلم أن فاعلية الآراميين الحضارية والتاريخية في الألف الأول قبل الميلاد استمدت أساساتها من الثقافات التي سبقتها من كنعانية وأكادية وغيرها.

أما في مجال فكرة الزمن وعلم الفلك: فقد قدر المشرقيون الزمن بالساعة المائية والمزولة، وقسموا الشهر إلى أربعة أسابيع كما قسموا أوجه الساعة إلى اثني عشر ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية، وكل هذا اتبع في كافة أوجه المعمورة إلى يومنا هذا.

يقول جورج كونتنو: نحن مدينون للشرق القديم بذلك العون الضخم والجبار الذي أمدنا به في كل ما يتعلق بالطب وعلم الفلك والرياضيات. [25]

الجدير ذكره أن المشرقيين قسّموا الزمن إلى سنين، وقسّموا السنة إلى 12 شهراً، وكل أسبوع إلى سبعة أيام.

ويورد حتّي أن السوريين نقلوا إلى اليونان تقسيم الزمن والساعات الشمسية.. ونظاماً للتنبؤ بالكسوف والخسوف، وأن علامات الأبراج الإثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً العلامات الآشورية نفسها بالإضافة إلى أنظمة الموازين والمقاييس. [26]

ويتفق الباحثون على أن علم الفلك في المشرق العربي كان المصدر الرئيس الذي استقت منه أوروبا فيما بعد. [27]

ولم تكن آلية نقل المنجز في خطوطه العامة، الاّ على يد المشرقيين

في الجناح الغربي للمشرق العربي ولاسيما الكنعانيين[28]، وعلى هذا يقول ول ديورانت: «نقل الكنعانيون العلوم والفنون من المشرق القديم ونشروها في اليونان وأفريقيا وإيطالي واسبانيا، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية» [29].

وهذا المنجز المشرقي في علم الفلك ولا سيما في علم الأرصاد البابلية استفاد منه العالم عبر نقله، فهذا العالم هبارفوس الفلكي والذي يعتبر واضع علم الفلك الحديث قد استفاد من الأرصاد البابلية التي اعتمد عليها والذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد... ثم بطليموس الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي والذي ظل نظاماه الجغرافي والفلكي مستعملان حتى القرن السادس عشر الميلادي، ومعلوم مبلغ اعتماده على علوم الفلك المشرقية واستفادته منها.

ولا بأس هنا أن نذكر أنه اكتشف في موقع مدينة نيبور لوحاً فخارياً يعود إلى حوالي 1500 ق. م مرسوم عليه مخطط لمدينة نيبور، يبين أهم معالم المدينة ويعتبر هذا اللوح وهذه الخريطة من أقدم الخرائط أو مخططات المدن في تاريخ البشرية.... وهذا ما أكده العالم الروسي غولايف. [30]

والجدير ذكره هنا هو أن التجارة ولا سيما البحرية فرضت إشراطاتها الإبداعية كما فرضت الرياضيات، وهذا ما جعل الكنعانيين يكتشفون نجم القطب الشمالي الذي أدى إلى نشاط التجارة البحرية الليلية وهذا ما دفع الإغريق لإطلاق تسمية «نجم الفينيقيين» على نجم القطب الشمالي.

ومن جهة أخرى فإن تقسيم الأسبوع إلى سبعة أيام عند المشرقيين القدماء كان يتبع ذهنيتهم الروحية وكان اعتقادهم أن ثمة إلهاً يقترن بكل نجم من النجوم السيارة السبعة (الشمس، القمر، المريخ عطارد، المشتري، الزهرة، زحل) وقرنـــوا أيام الأسبوع بهذه الآلهة فصار هناك يوم لإله الشمس «SUN DAY» ويوم لإله القمر «MOON DAY» ويوم لإله زحل «SATURDAY».

وهذا ما استمر حتى يومنا هذا في أسماء الأيام أو بعضها.

واعتماداً على هذا كله صار بإمكاننا أن نتفهم مقولة العالم الفرنسي جورج كونتنو من أن «مدنية الغرب مدينة للشرق القديم بالكثير الكثير»[31]، ومقولة الباحث روبيرت لاندا أن «الثقافة الكنعانية في شبه الجزيرة الايبرية (الإسبانية) لعبت دوراً عظيماً، فقد عاشت منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الأول ومثلت طرازاً مميزاً للحضارة التي انتقلت إلى الأراضي الواقعة إلى الجنوب من جبال البيرينيه» [32].

الموسيقا المشرقية:

إذا كان تأريخ أقدم رقيم موسيقي مشرقي يعود إلى حوالي 1800 ق.م عبر الفاعلية الأكادية فإن هذا المنجز كي يصل إلى التدوين على الرقيم لا بد أنه قد سبقته تفاعلات ومخاضات أدت إلى تدوينه وربما تعود هذه التفاعلات لألفي سنة سابقة.

ونحن نعتقد أنه مع نشوء المعبد والذهنية المعتقدية كان ثمة نشاط موسيقي مرافق، ومع الألف الثالث قبل الميلاد ونتيجة لانفصال المعبد عن المدينة ونشوء السلطة الزمنية بدأت الموسيقا المعتقدية تأخذ حيزها المعبدي في مقابل ظهور موسيقا مدنية تترافق مع نشاطات وفاعليات الحياة العامة اليومية.

وهذا ما أدى إلى تبلور المعطى الموسيقي الحضاري في تدوينه على الرقم سواء في 1800 ق. م أو بعد ذلك بحوالي 400 عام في أوغاريت.

يقول الباحث راؤول فيتالي: «عثر في جنوب العراق على عدة لوحات تعطي الكثير من المعلومات عن الموسيقا الأكادية.. وأن لوحة /رقيم أوغاريت ليست إلا تطبيقاً لهذه المعلومات./» [33]

وقد توصل هذا الباحث إلى أن الموسيقا الأكادية تشبه موسيقانا كما تشبهها الموسيقا الإغريقية.

وقد عثر في أوغاريت على ألواح طينية تحوي قطعاً موسيقية تعود إلى حوالي 1400 ق. م وتبين نتيجة الدراسة أن هذه الألواح هي الأساس

في علم الموسيقا الغربي الذي أقامه فيثاغورس عام 500 ق. م.

وقد أثبتت العالمة كيلمر أن موسيقا أوغاريت التي تقوم على السلم السباعي الدياتوني هي أساس الموسيقا الغربية. (34)

ويصل الباحث فيتالي إلى أن سلم فيثاغورس الإغريقي وسلم صفي الدين العربي ما هما إلا عبارة عن خلف للسلم الموسيقي الأكادي. (35)

وقد أمدتنا اللقى الأثرية والمدونات بمعلومات عن آلات موسيقية كانت تستعمل في المشرق العربي القديم مثل الناي والقانون ومزامير القرب والطبول وقرون ومزامير وأبواب وصنوج.

وتخبرنا الرقم من عدة مواقع مشرقية عن وجود فرق موسيقية وانتقالها بين مدن المشرق العربي وعن وجود مغنيين يعزفون ويغنون في الهياكل والقصور والبيوت.

الجدير ذكره هنا أن خط التواصل الإنساني والذي مارسه الكنعانيون ومن ثم الآراميون والسريان أدى إلى تطور الموسيقا مع العصور وانتقالها إلى المجال الحيوي المتوسطي الأوربي.

ويشير المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي إلى أن الأسلوب البيزنطي في الموسيقا والشعر الابتهالي الذي أصبح الملك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الأرثوذكسية وضعه سوري مسيحي (خلقدوني) هو رومانس (480 ــ 550) م وقد كتب رومانس أشعاره بالكويني الاتيكية القديمة لكن تفاعيله وأناشيده كانت سوريّة، ويشير توينبي إلى أن هذه الخطوة بالنسبة إلى الموسيقا والشعر اليونايين كانت منطلقاً جديداً منعشاً (36).

المنجز الحضاري الإنساني المشرقي في العصر الهلنستي 333 ــ 69 ق. م:

مع تأسيس سلوقس نيكاتور للدولة السلوقية في المشرق العربي، أصبحنا أمام حالة من التمازج الإنساني والفكري بين عالم المشرق العربي وعالم المتوسط ولا سيما الغرب اليوناني.

ويؤكد فيليب حتي أن سورية كانت العمود الفقري للامبراطورية السلوقية فأنطاكية كانت رأسها السياسي أما مدينة سلوقية فكانت عاصمتها التجارية في حين كانت أفاميا مقرها الحربي (37).

وفي هذا العصر نحن أمام ظاهرة أصيلة في مجتمعنا، فالمعلوم أن السلوقيين أسسوا مدناً في سورية لم تكن من قبل أو ربما كانت بلدات صغيرة جرى تأسيسها من جديد وفق المنظور السلوقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعلى هذا تم تشييد مدن مثل اللاذقية (لاوديكية) وأنطاكية وأفاميا /أباميا/. وهذه المدن حافظت على أسمائها بعد زوال الحكم اليوناني مع تحريفها باللفظ العربي.

ولكن اليونان كانوا قد أجروا تبديلاً على أسماء المدن السورية الأصلية وأطلقوا عليها تسميات يونانية حيث أنه وبزوال الاحتلال اليوناني عادت المدن إلى أسمائها الحقيقية والأصلية، فعكّا مثلاً أصبحت بتوليماس، وعمّان فيلادلفيا وبيسان سكثيوبوليس وبيروت لاوديسه وحماه أبيغانيه. (38)

الرواقية: منجز فلسفي إنساني للمشرق العربي:

إذا كنا نوافق على أن كل مذهب فلسفي هو ابن عصره، فإن المذهب الرواقي يشكل بامتياز ابناً شرعياً للعصر الهلنستي ومن ثم الروماني وصولاً إلى المسيحية.

وقد حمل هذا المذهب بعداً إنسانياً ورؤيا إنسانية يستظل بها جميع البشر وأساسها التسامح والعدالة. وقد أسس هذا المذهب زينون الرواقي الكنعاني (333 ــ 261) ق. م وهو من مواليد مدينة كيتوم في قبرص.

ويبدو أن العصر الهلنسيتي قد شهد دعوات متمايزة بين تفوق مجتمعات على أخرى، بالإضافة إلى ازدهار العبودية وتجارتها، ما أدى إلى بلبلة فكرية وسياسية واجتماعية أدت إلى تنازع بين المذاهب الفلسفية والاجتماعية. وهذا ما دفع زينون الرواقي /ابن المشرق العربي/ إلى أن يحاول الاسهام في وضع أساسات لفكر إنساني جديد أساسه التسامح والمساواة والعدل. وبذا يكون زينون المعبرّ عن شخصية مجتمعه

وخصائصه الإنسانية.

فقد تأسست الفلسفة أو المذهب الرواقي على وحدة الجنس البشري والمساواة بين الناس وعدالة الدولة والمساواة بين الرجال والنساء واحترام حقوق الزوجة والتسامح والإحسان إلى الآخرين، والشعور الإنساني في حالات الضرورة القصوى للمعاقبة. [39]

ولتبيان أهمية هذه الفلسفة /برأينا/ ينبغي دراستها وفق عصرها أولاً وضمن دراسات مقارنة مع ما قبلها وما بعدها من مذاهب وفلسفات.

عام 302 ق. م بدأ زينون يعلم مذهبه في أثينا، وقد أبانت فلسفته عن صلة مباشرة بالروحية المشرقية العربية ولا سيما في نظرتها الشمولية والإنسانية للأخوة البشرية، ويبدو أنّ زينون كان المبشر الأول لظهور المسيحية.

وقد علّم مذهبه باللغة اليونانية /لغة العصر آنذاك/ وكان له أتباع من اليونانيين والرومان. وقد كتب أحد شعراء اليونان على شاهدة قبره:

«إذا كانت بلادك الأصلية هي فينيقية

فهل يجب أن يضيرك هذا بشيء..؟؟

ألم يأت قدموس من هناك

الذي أعطى لليونان كتبها وكتابها؟؟»

وامتد تأثير الفلسفة الرواقية حتى ظهور المسيحية، وقد أشار حتيّ إلى أن أول وسيط بين المسيحية والفلسفة الرواقية، كان بولص الرسول. وأن كثيراً من مضامين رسائله والأسلوب الذي يعبر به عن ذلك المضمون هو تفكير رواقي إلى حد بعيد، ولا سيما رسائله إلى أهل كورنثه وورومية وكولوسي وكورنثوس. [40]

حتى أنه في زمن الإمبراطورية الرومانية شهد عرش روما أباطرة آمنوا بالمذهب الرواقي حيث كان يأخذ بعداً دينياً ولا سيما عند الإمبراطور ماركوس أوريليوس /توفي في 180 م/ حيث كان رواقياً.

ويبدو أنه بداية القرن الثالث الميلادي نجحت المسيحية في التوفيق بين الرواقية وبينها، حسب فيليب حتي. (41)

وما يعنينا في هذا المجال هو أن الفلسفة الرواقية انتمت بقوة إلى الخط الفكري المشرقي العربي، الذي نجد بواكيره في الأساطير المشرقية في العصور التاريخية ثم تالياً في العصور اللاحقة وصولاً إلى المسيحية والتي تؤكد على البعد الإنساني لا بل في نشر القيم الإنسانية عبر الرسل وتلاميذ المسيح إلى العالم.

وكما أسلفنا فإن هذا يعتبر خصيصة من خصائص النفسية المشرقية العربية.

وعلى كل هذا ولطبيعة التواصل بين بواكير الفكر في المشرق عبر الأساطير الأولى وصولاً إلى الرواقية فالمسيحية، فإن هذا يثبت أن المسيح مشرقي وينتمي إلى مجتمعه المشرقي وليس يهودياً كما توحي الدوائر اليهودية الصهيبونية والمتهودة في الغرب المسيحي.

وفي سياق البعد الإنساني المشرقي العربي تنبغي الإشارة إلى الدور المشرقي في ردف وتوسيع قاعدة الرسالة الإسلامية، لا بل إن المؤرخ أرنولد توينبي يتحدث على أنه: «قبل أيام محمد بنحو ألفي سنة أصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازه من مكان إلى آخر. وقد أخذت الآراء والتنظيمات تتغلغل إلى شبه الجزيرة من الهلال الخصيب الذي يحاذيها في الشمال. وهذا التغلغل كان أثره تراكمياً وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الإنفجار. وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب إذ تلقّى هذه الشحنة فأحسن استعمالها وذلك برؤيته النيرة وتصميمه وحكمته» (42).

وبرأينا فإن انتشار الرسالة الإسلامية إلى سورية والمشرق بعامة كان يدخل ضمن الإطار الطبيعي للبعد الإنساني المشرقي لا بل إن دمشق أصبحت عاصمة للإمبراطورية الأموية.

المنجز الإنساني المشرقي في العصر الروماني 64 ق. م:

مع دخول الرومان إلى سورية سوف تتغير بعض المعطيات على صعيد الجغرافيا التاريخية والسياسية. وقبل ذلك تنبغي الإشارة إلى أن الاحتلال الروماني لسورية /بلاد الشام/ كان تعبيراً عن وجود فائض حيوي عسكري لا أكثر لدى روما.. وهذا في الأساس هو الدافع الحقيقي للصراع المشرقي مع روما ناهيك عن معاني الاحتلال والاستعمار.

لهذا ومع كل جبروت روما وطغيانها فإن كاتباً رومياً (جوفنال) في القرن الثاني الميلادي يضع يده على الجرح الروماني بقوله:

«منذ زمن بعيد ونهر العاصي السوري يصب ماءه في نهر التيبر جالباً معه لغته وعاداته وعوده وقيثارته بأوتارها المائلة».

فقد كانت سورية /الموغلة في القدم/ تجاه روما التي لم يمض عليها سوى 800 عام.

هي الأصالة مقابل القوة الفارغة الرأس، ناهيك على أن نهر الفرات في عصور ما قبل الرومان لم يكن يشكّل حاجزاً طبيعياً بين جناحي المشرق العربي القديم، أما الآن فبتنا أمام حاجز يفصل الجناح الغربي /بلاد الشام/ عن الجناح الشرقي /الرافدين/ حيث قبعت حدود الإمبراطورية الرومانية في الشرق عند نهر الفرات.

ويبدو أن ما فعلته زنوبيا (بت زبّاي) في ضمها للعراق آنذاك إلى إمبراطوريتها هو محاولة إعادة الجناح إلى أخيه بعيداً عن الصراعات الرومانية ــ الفارسية.

ولعل أهم التأثيرات المشرقية في العالم خلال العصر الروماني تتوضح ضمن جملة من المنجزات الإنسانية:

في التشريع والحقوق:

مع مطلع القرن الثالث الميلادي سوف تصبح بيروت مركزاً لمدرسة الحقوق والتي بقيت حتى منتصف القرن السادس أشهر مدرسة من مدارس الولايات في الامبراطورية الرومانية.

ويشير الباحثون إلى أن مؤسس هذه المدرسة هو الإمبراطور سبتيم سفير 193 ــ 211 م ثم تعهدها خلفاؤه السوريون من بعده.

ونتيجة لريـــادة هذه المدرســـة المشرقية أطلق الإمبراطور جوستنيان على بيروت اسم «أم القوانين ومرضعتها». [43]

وطبعاً، نحن هنا ليس أمام منجز حضاري لزمن معين وعصر معين.. ولا بد أن ننظر بشكل شمولي ضمن دائرة الحقوق حيث أن المشرق العربي شهد أولى الشرائع والقوانين.. من لبت عشتار إلى أور نمو إلى حمورابي إلى القوانين الآشورية وصولاً إلى مدرسة بيروت للحقوق التي كانت نواة الفكر القانوني.

يقول بول كولينيت: «في بيروت كان يتم إعداد الحقوق الرومانية الجديدة.. وإلى جماعة من الفنيقيين السوريين هم عائلة سبتموس سفيروس ومستشاروه، لا تزال الحقوق الرومانية الجديدة مدينة ببلوغها أوج الكمال». [44]

ففي فترة حكم السلالة السورية لعرش روما (193 ــ 235 م) يبدو أنه تم تطوير الشرع الروماني ونقله من الطور الابتدائي إلى مرحلة متقدمة عبر مؤلفات الفقهاء السوريين الخمسة والذي أحاط بعضهم بالامبراطور سبتيم سفير كمستشارين له مثل بابنيان وألبيان. وبالإضافة إلى هذين الفقيهين كان هناك غايوس وبولس وموديستنوس.

والجدير ذكره هنا هو أنهم كتبوا مؤلفاتهم الحقوقية باللاتينية وهذا ما جعل بعض المؤرخين يطلق عليهم اسم الفقهاء الرومانيين، وهذا ما انسحب على التشريع الذي وضعوه فأطلق عليه اسم التشريع الروماني.

تبين الأبحاث أن ما قدمه هؤلاء الفقهاء السوريين للتشريع الروماني يتعدى الــ 80 % منه، وهذا ما دفع بعض الباحثين للقول: في القرن الثالث الميلادي كانت سورية تعكس على العالم تقاليدها الحقوقية التي تعد مصدر الحقوق الرومانية وأصلها. [45]

ويمكننا استعراض مؤلفات هؤلاء الفقهاء:

الفقيه غايوس: 130 ــ 180 م

اعتبرت مؤلفاته مرجعاً يلتزم به القضاة، بنتيجة الموقف الايجابي للامبراطور فالنتين منها، وهذا ما أضفى عليها صفة رسمية.

وقد اعتبر المؤرخون الرومان مؤلفاته القانونية، مصدراً أساسياً لمدونات الامبراطور جوستنيان.

وتشمل مؤلفات غايوس على أربعة أجزاء تبحث في الأصول والأشكال وحقوق الأسرة والميراث والملكية. والجدير ذكره هنا هو أن هذه المدونات اعتمدت /لأهميتها/ كمادة تدريبية في المعاهد والجامعات الأوروبية. (46)

الفقيه بابنيان: 140م

لقّب بأمير الفقهاء، عمل مستشاراً للإمبراطور سبتيم سيفير، ودرّس مؤلفه «الأسئلة والأجوبة» في مدارس الحقوق الرومانية. ومن الأحداث التي تؤكد إنسانيته وتصالحه مع نفسه وأصالته، انه بعد مقتل جيتا على يد كركلا أخيه، غضب الرأي العام ومجلس الشيوخ على كركلا القاتل من أجل العرش،

فما كان من الإمبراطور القاتل /كركلا/ الا أن يطلب من بابنيان الفقيه أن يوجد له مخرجاً وتبرئتة من فعلته بقتل أخيه، غير أن بابنيان يرفض ويقول لكركلا: إن ارتكاب جريمة القتل أيسر من تبرئة المجرم منها، واتهام البريء القتيل بعد مقتله هو قتل آخر وجرم ثان.

وهذا الموقف أدى إلى أن يدفع بابنيان حياته ثمناً له، بأمر من كركلا. علماً أن الأخير تتلمذ في يفاعته على يد بابنيان.

والجدير ذكره في هذا المجال أن الإمبراطور اسكندر سفيروس /آخر أباطرة السلالة السورية في روما/ (222 ــ 235)م أحاط نفسه بالفقهاء السوريين ألبيان، موديستينوس، وبولس، وفي عهده بنيت أول كنيسة وأعاد الحجر الأسود المقدس إلى حمص، وأقام بدلاً منه ثلاثة تماثيل نصفية لزارادشت وابراهيم والمسيح.

ولتبيان أهمية ما قدمه الفقهاء السوريين للتشريع الروماني تنبغي الاشارة إلى أن الإمبراطور تيودور الثاني، أصدر مرسوماً بتاريخ 426م، عرف بقانون المرافعات حيث صنّف الفقهاء إلى صنفين وحظر على القضاة اعتماد سواهم في جميع الأحكام التي يصدرونها:

الصنف الأول: ويشمل الفقهاء السوريين الخمسة.

الصنف الثاني: ويشمل الفقهاء الذين اعتمدهم الفقهاء السوريين الخمسة.

وقد جاء في المرسوم الإمبراطوري أنه إذا اختلف القضاة على رأي ولم يجمعوا عليه فعلى القاضي أن يأخذ برأي الأكثرية، وإذا تساوت الآراء فعليه أن يأخذ برأي الجانب الذي فيه بابنيان.

كما أن ما يسمى بمدونات جوستنيان في القانون، استمدت موادها بشكل رئيسي من مواد الفقهاء السوريين الخمسة، ومدرسة بيروت الحقوقية بحيث تشكّل نسبة ثمانين بالمئة منها [47]

علماً أن ما يسمى بمدونات جوستنيان في القانون تتألف من خمسين كتاباً، وقد تضمنت حوالي 2462 فقرة قانونية أخذت من الفقيه ألبيان لوحده. وشكلت اكتمال الشرع الروماني. وتعتبر هذه المجموعة أساس الحقوق الشرعية في القرون الوسطى والعصور الحديثة

وقد أصبحت هذه المجموعة المصدر الرئيس الذي استمدت منه الدول الأوروبية الحديثة قوانينها، ولاسيما، فرنسا، ألمانيا، ايطاليا، اسبانيا.

ويعتقد أن الفقهاء الخمسة كانوا رواقيين، وهذا ما يبعث على الاعتقاد من أن روحيتهم المشرقية الرواقية ساهمت في تخليص التشريع الروماني من القسوة والفظاظة.

في الأدب:

حفل العصر الروماني بأدباء ومفكرين مشرقيين ساهموا عبر نتاجاتهم، في تخصيب حقول المعرفة الإنسانية وأثروا إلى حد بعيد في

مجاري الفكر الإنساني.. ويستوقفنا في هذا المجال الكاتب الساخر لوقيان السميساطي(125)م، الذي كتب باليونانية آنذاك /لغة العصر/ وكان يتكلم الآرامية. وقد الّف ما يتعدى ثمانين كتاباً، وقد اثّر اسلوبه الأدبي الساخر على العديد من الأدباء والكتاب في العالم، منهم:

سويفت الايرلندي وتوماس مور البريطاني وسيرانو دو برجراك ورابليه وفولتير ورينان وأناتول فرانس وبرناردشو.

في العمران والعمارة:

كما ركزنا سابقاً على الناحية التراكمية ــ النوعية للمنجز الحضاري الإنساني للمشرق العربي، فلابد أن نؤكد من جديد على أن العمران والعملرة المشرقية في العصر الروماني، لم تكن وليدة وقتها فقط ومعلوم أن نشوء المدن الأولى كان سمة حضارية من سمات المشرق العربي، وبالتالي فعمارته في العصر الروماني تستند بالحقيقة على ارث نوعي وتراكمي، موغل في القدم. [48]

ولا نعتقد أنه يمكننا العبور في العصر الروماني لجهة العمارة والعمران، دون أن نعرّج على مبدع مشرقي دمشقي عبّر بمنجزه العمراني والمعماري عن خصائص العمارة المشرقية وروحيتها، وهو أبولودور الدمشقي.

وبداءة، يتحدث تاريخ كمبردج عن أن سورية كانت متقدمة على روما في مجال العمارة، لا بل كانت بالنسبة لها النموذج الذي احتذته، ويتابع المرجع المذكور فيضيف: لقد تفوقت سورية على روما بعبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها.

أما أبولودور الدمشقي (60 ــ 125)م، فقد كان قريباً من الإمبراطور الروماني تراجان، وقد أوكلت له مهمات عمرانية وإنشائية وفنية، قدم من خلالها جلّ عبقريته المجتمعية والفردية.

فقد أنشأ الميدان التراجاني في روما، ويعتقد العالم بيانكي بانديللي في كتابه «أبولودور الدمشقي» أن الفكرة المعمارية لهذا الميدان، ولاسيما لجهة

ساحته مستمدة مما كان حول معبد جوبيتير في دمشق ويؤكد على أن هذه الفكرة المعمارية هي فكرة شرقية أكثر مما هي رومانية.

وثمة منجز لأبولودور أخذ بعداً إنسانياً تمثّل في العمود التراجاني الذي حوى تحت قاعه قبر الإمبراطور تراجان، حيث شيّد العمود بارتفاع 33 متراً، يلتفّ حول جذعه شريط حلزوني منحوت وملون سشمل تسجيلاً فنياً لمنجزات الإمبراطور وفي داخل العمود درج دوار.

ويتفق الباحثون على أن أسلوب هذا العمود فنياً، يحاكي أسلوب المنحوتات الآشورية المشرقية. وقد أثرّ هذا العمل لأزمان لاحقة في التصاميم التذكارية في عدة بلدان أوروبية، ويؤكد د. عدنان البني أن هذا العمود أثر تأثيراً عميقاً على العمارة حتى العصر الحديث، ففي عام 408 م بني عمود مماثل في عهد الإمبراطور أركاديوس في مدينة القسطنطينية.

وفي ألمانيا عام 1022 م، شيد عمود من البرونز يحاكي عمود تراجان وذلك في كاتدرائية هيلدسهايم في مدينة هانوفر.

وعام 1806 ــ 1810 م انشئ في فرنسا عمود الفاندوم تخليداً لحروب نابوليون، وكان ثمة تشابه كبير بين نقوشه البارزة ونقوش عمود أبولودور. (49)

يقول جيروم كاركوبينو في كتابه «الحياة اليومية في روما في أوج الإمبراطورية»:

إن ميدان تراجان وسوقه هما قمة من قمم الفن، يتلاقى فيها خيرة بنائي أفضل العصور ويسمون إليها تلامذة متحمسين أو مقلدّين، مثل ميكيل أنجيلو، الذي ينقل شيئاً من هذا التنسيق المتقشف والقوي إلى واجهة قصر فارنيزة، ومعماريو نابوليون الذين يذوّبون مدافع أوسترلينز ليضعوا عمود فاندوم.

أيضاً لابد أن نشير إلى ابداع تدمري، تجلى في التاج الكورنثي التدمري والذي شاع في العالم آنذاك انطلاقاً من ابتكاره الأول في تدمر، عبر إنشاءه في معبد بل. (50)

إسهام السريان المشرقيون في الحضارة الإنسانية:

يقول توينبي: «منذ أن بدأ اعتناق سكان المشرق التدريجي للمسيحية، كانت المدنية السريانية تؤثر في المدنية اليونانية، ولم يحس الناطقون باليونانية من المسيحيين أنهم أكثر ثقافة من المسيحيين الناطقين بالسريانية، والواضح أن أولئك قد أفادوا نفحات حضارية دائمة من هؤلاء». (51)

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد ساهم السريان بعد الفتح الإسلامي للمشرق العربي، في دفع العرب نحو نهضة علمية، بلاغية، فكرية. ولاسيما في العصر العباسي، حيث استفاد العرب من القاع الثقافية للمشرق العربي والتي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ.

وقد استطاع السريان عبر ترجماتهم للمؤلفات اليونانية، أن يمدوا المسلمين بعون معرفي كبير، سوف يكون له أبلغ التأثير في مساق الحضارة الإنسانية. ولعل من أهم الترجمات التي قاموا بها:

مؤلفات أرسطو، وشروح أفلوطين، ومؤلفات أبقراط وجالينوس الطبية، وكتب اقليدس الرياضية، وأعمال بطليموس الجغرافية، إلى ما هنالك من كثير الترجمات.

ولا يمكن في هذا المجال من تجاهل ما قام به صائبة حران الذين يعتبروا الوارثين للعلوم البابلية والمطلعين على العلوم والأفكار اليونانية، في مد العرب بوسائل المعرفة النظرية والعلمية.

تقول الباحثة نينا بيغوليفسكايا في كتابها «ثقافة السريان في القرون الوسطى»: (52)

لقد استوعب العرب عن طريق السريان، العلوم اليونانية والأساليب الدقيقة للترجمة، مستفيدين بمهارة عالية من المعارف القيمة في مجالات الفلسفة والطب والكيمياء والفلك وجغرافية الأرض التي استطاعوا أن يطلعوا عليها، بفضل استفادتهم من الترجمات السريانية الأقرب إليهم من الأصول اليونانية.

وتضيف: إن الثقافة السريانية في القرون الوسطى حصلت على انتشار

عريض وأظهرت تأثيراً كبيراً في تطور الثقافة العالمية.

إذن نحن أمام الثقافة السربانية في منحيين:

المنحى الأول: أنها استمدت في الأساس خصائصها من العمق الحضاري التاريخي ــ الاجتماعي للمشرق العربي بإنجازاته واختراعاته.

المنحى الثاني: المثاقفة والتفاعل الفكري مع العالم اليوناني، ما أدى إلى ليس النظر للسريان كناقلين عن الآخرين، لا بل وقد أسهموا في مناحي الفكر والفلسفة والعلوم.

على كل هذا نشير لقول العالمة بيغو ليفسكايا:

«إنّ عدداً كبيراً من العلماء العرب كانت أسماؤهم وتآليفهم حتى القرن الثالث عشر ميلادي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلوم السريان، ولم يقتصر كثير منهم على قراءة المؤلفات السريانية فقط وإنما كتبوا وألفوا باللغتين السريانية والعربية في آن واحد.».

وتصل للقول: «إن العلوم اليونانية عبرت من خلال السريان أولاً، فتلاقت مع الفكر العربي وامتزجت فيه. ومن أيدي العرب تسلّم الغرب اللاتيني الثروة العلمية التي تراكمت على مدى قرون طويلة».

وأخيراً.. إن الإشارة إلى البعد الإنساني في الشخصية المشرقية العربية، يمنحنا فرصة أن نعرف أو نعي التاريخ... فوعي تاريخنا سوف يؤدي إلى وعي حقيقة من نحن.. التي تعني بشكل رئيسي أننا ضرورة إنسانية.. دلّ على ذلك ما ذكرناه.. ولا سيما أن البعد الإنساني الحقيقي يجب أن يستند على خصائص مجتمعية أخلاقية. وهذا هو سر المشرق العربي. ألم يقل العالم الفرنسي بيير روسي:

لقد آن الأوان الذي ينبغي للعالم الشرقي أن يبدأ فيه اكتشاف حقيقة تاربخه وثقافته، اللتين لولاهما لغدا الغرب فارغاً. [53]

الهوامش

(1) الجديد حول الشرق القديم ــ مجموعة باحثين ــ دار التقدم ــ موسكو ــ 1988.
(2) ابن خلدون ــ المقدّمة ــ المقدمة الثالثة، في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم.
(3) الجديد حول الشرق القديم ــ مرجع سابق.
(4) مجلة البناء اللبنانية ــ 16/714 ــ 1989/2 ــ من حوار أجريناه مع
د. حسني حداد.
(5) هنري فرانكفورت ــ فجر الحضارة في الشرق الأدنى القديم ــ ت: ميخائيل خوري ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت.
(6) الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية ــ وزارة الثقافة السورية ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ 2000.
(7) د. سلطان محيسن ــ الصيادون الأوائل ــ دار الأبجدية ــ 1989 ــ دمشق.
(8) المرجع السابق.
(9) المرجع السابق.
(10) د. حسين مؤنس ــ الحضارة ــ عالم المعرفة ــ الكويت ــ 237 ــ 1998.
(11) غولايف ــ المدن الأولى ــ دار التقدم ــ موسكو ــ 1989.
(12) د. سلطان محيسن ــ المزارعون الأوائل ــ دار الأبجدية ــ دمشق ــ 1994.
(13) المرجع السابق.
(14) المرجع السابق.
(15) الجديد حول الشرق القديم ــ مرجع سابق.
(16) فيليب حتي ــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ 1983. وكتابه: خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى ــ بيروت ــ 1982.

(17) د. محمد حرب فرزات ــ مجلة المعرفة السورية ــ 298 ــ 299.
(18) مجلة البناء اللبنانية ــ 729 ــ 734 ــ محاضرات الرياضيات في حوض المتوسط، 1990/3/31 ــ 1990/5/5.
(19) المرجع السابق.
(20) المرجع السابق.
(21) المرجع السابق.
(22) ول ديورانت ــ قصة الحضارة ــ 1965 ــ ج1+ج2 ــ الجامعة العربية.
(23) د. حربي عطيتو ــ ملامح الفكر الفلسفي والديني في مدرسة الاسكندرية القديمة. دار العلوم ــ بيروت 1992.
(24) فيليب حتي ــ مرجع سابق.
(25) جورج كونتنو ــ المدنيات القديمة في الشرق الأدنى ــ ت: متري شماس ــ سلسلة QUESAIS - JE
(26) المرجع السابق.
(27) يمكن الرجوع للمزيد حول هذا الموضوع، لكتاب فيليب حتي المذكور أعلاه، بالاضافة لكتاب قصة الحضارة. ول ديورانت.
(28) كون أن للكنعانيين الباع الطويل والأول في ركوب البحار واستكشاف العالم.
(29) ديورانت ــ مرجع سابق.
(30) غولايف ــ مرجع سابق.
(31) كونتنو. مرجع سابق.
(32) الثقافة العربية ــ الاسبانية عبر التاريخ. مجموعة باحثين ــ وزارة الثقافة ــ سورية ــ 1991.
(33) الحوليات الأثرية السورية. مجلد29 ــ 30 ــ 1979 ــ 1980.
(34) المرجع السابق.
(35) المرجع السابق.
(36) أرنولد توينبي. تاريخ البشرية. ت: نقولا زيادة ــ الأهلية للنشر ــ بيروت ــ 1981.
(37) فيليب حتي. مرجع سابق.
(38) فيليب حتي. مرجع سابق.
(39) جان بران. الفلسفة الرواقية. ت: جورج أبو كسم ــ دار الأبجدية ــ دمشق ــ

.1990

(40) فيليب حتي. مرجع سابق.

(41) المرجع السابق.

(42) أرنولد توينبي. مرجع سابق.

(43) فيليب حتي. مرجع سابق.

(44) عيسى يازجي. مآثر سوريّة من العصر الروماني ــ دار فكر ــ بيروت ــ 1990

(45) المرجع السابق.

(46) المرجع السابق.

(47) المرجع السابق.

(48) كثيراً مايرد في معرض البحوث التي تعنى بتاريخ وعمارة العصر الروماني، تعبير العمارة الرومانية في سورية. والحقيقة أن هذا التعبير يخالف الأسس العلمية والتاريخية، ونقترح أن يصبح العمارة السورية في العصر الروماني.

(49) د. عدنان البني. أبولودور الدمشقي. وزارة الثقافة ــ سورية. 1990.

(50) المرجع السابق.

(51) أرنولد توينبي. مرجع سابق.

(52) نينا بيغوليفسكايا ــ ثقافة السريان في القرون الوسطى. ت: د. خلف الجراد. دار الحصاد. 1990. دمشق.

(53) ببير روسي. التاريخ الحقيقي للعرب. ت: فريد جحا. وزارة التعليم. سورية.

مراجع أخرى

- أندريه بارو. سومر. ت: د. عيسى سلمان ــ سليم التكريتي. بغداد ــ 1979
- نقولا زيادة. المسيحية والعرب. دار قدمس. دمشق. 2000
- الحوليات الأثرية السورية. مجلد 33 ــ ج2 ــ 1983
- هورست كلينغل. آثار سورية القديمة. ت. قاسم طوير. وزارة الثقافة. سورية1985
- د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة ــ 1988
- syrie :terre de civilisations , — 2001 quebec - canada
- en syrie aux origines de l;ecriture — 1997 — brepols
- g: contenau —les civilisations anciennes du proche — orient

الدراسة الخامسة

شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم

ثمة شيئان لا يمكن للمرء أن يحدق فيهما، الشمس والموت، والموت ضمن المنظور الإنساني يبدو أنه غير محبذ، لا بل يتم تجاهله كونه يشكل مصدر الخوف من المجهول. ومعلوم أن للخوف أذنين كبيرتين وعينين أيضاً.

ولعل أول صدمة جابهت الإنسان في وجوده على الأرض /لاسيما حين تطور القشرة الدماغية والقسم الطرفي من الدماغ/، هي صدمة الموت، ولم يكن هذا ليتحقق لولا توافر مجموعة من الاشراطات والمعادلات الفيزيولوجية والبيولوجية، على صعيد الدماغ الإنساني والجسد البشري، ثم تداخلات المناخ والبيئة الطبيعية.

والموت همّ فردي، وتجمّع الهموم الفردية أدى إلى نشوء هموم للتجمعات الإنسانية القديمة، ولكن مع تقدم عمل الدماغ وتطوره ومن ثم نشوء المجتمعات الأولى، لم يكن ثمة هم مجتمعي من الموت، لأن المجتمعات تبقى بينما الأفراد يزولون. وبذا صار المقياس الأوحد في دراسة المجتمعات وظواهرها، هو مدى انعكاس حياة الفرد في الجماعة، ومدى انتمائه لها، وبذا يستمر المجتمع ويزول الأفراد، ولا يبقى منهم إلا ما قدّموه للمجتمع من تطوير وإبداع. ولعل قمة الإبداع تكمن في التضحية من أجل المجتمع.

وبهذا يصير الموت في المستوى الاجتماعي، ليس نقيضاً للحياة بل جزءاً منها. ولعل الانشغال بظاهرة الموت، اقتضى مرور ملايين السنين من الوجود البشري على الأرض، حتى غدا دماغ الإنسان قادراً على وعي هذه الظاهرة، واستنباط الحلول التعويضية /لا شعورياً/ تجاهها. وهذا ما سنحاول رصده من خلال تاريخ الوجود البشري في المشرق العربي القديم، والذي

يرقى إلى حوالي المليون سنة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الوثائق هنا /لعدم وجود الكتابة بعد/ تعتمد على اللقى والأدوات التي تركها ذلك الإنسان القديم، بالإضافة إلى بعض البنى والكثير من المدافن والقبور ومحتوياتها، ولاسيما مع ظهور إنسان النياندرتال (100000) سنة.

ظهور الإنسان على الأرض وفي المشرق العربي القديم:

حددت دراسات علوم ما قبل التاريخ وجود الإنسان على الأرض بحدود ثلاثة ملايين سنة من الآن. وذلك في أفريقيا «هذا حتى الآن». أما في المشرق العربي فدلائل أول وجود إنساني تعود إلى حوالي مليون عام «سلطان محيسن» [1] وبعضهم يعيدها إلى مليون ونصف المليون عام «زيدان كفافي» [2] وأيضاً هذا حتى الآن.

وتذكر الدراسات أن الإنسان القديم الذي أتى إلى المشرق العربي جاء عبر طريقين من أفريقيا:

الأولى: ساحلية على امتداد البحر المتوسط.

الثانية: على طول الإنهدام السوري ــ الافريقي الممتد من جنوب وشرق أفريقيا مروراً بالبحر الأحمر ثم وادي عربة ثم وادي الليطاني فوادي العاصي شمالاً. [3]

وحتى الان يبدو أن أقدم آثار لإنسان ماقبل التاريخ خارج أفريقيا عثر عليها في سورية، في موقع «ست مرخو» قرب اللاذقية. كما عثر على آثار لهذا الإنسان في موقع خطاب قرب حماة على العاصي وموقع العبيدية في فلسطين الذي يؤرخ بحدود 700.000 سنة حيث عثر هنا على أجزاء من هياكل عظمية إنسانية هي الأقدم في المشرق العربي.

كانت حياة ذلك الإنسان تعتمد على الصيد والتقاط الثمار، وكان يتنقل خلف مصادر غذائه الحيواني والنباتي. ولم يكن ثمة خصوصية حضارية، بل أن صفات إنسان تلك المرحلة كانت متقاربة في كل أنحاء العالم. وفي موقع اللطامنة في سورية والذي يؤرخ بحدود 500.000 سنة عثر على دلائل مبكرة لاستعمال النار والشروع في البناء. وباطراد كانت تلك

التجمعات الإنسانية تتطور، وكانت تعتبر نفسها جزءاً لايتجزأ من الطبيعة، لا بل أن إنسان تلك المرحلة كان يظن نفسه أنه واحد من خصائص الطبيعة، وهذا لم يكن إلا نتيجة لعدم تطور الدماغ لديه ولاسيما قشرته الدماغية. ما اقتضى مرور مليونين وتسعمئة ألف سنة على صعيد الإنسان الأفريقي، وتسعمئة ألف سنة على إنسان المشرق العربي كي تحصل طفرة في بنيته الدماغية تدفعه نحو الأمام في وعي ظاهرة الموت لأول مرة منذ وجوده على الأرض. وما قبل لم يقدم الدماغ له أوليات الدفاع عن موتاه فتركهم نهباً للوحوش المفترسة والجوارح، حتى كان تطور الإنسان القديم المنتصب إلى إنسان النياندرتال، وذلك في حوالي 100.000 سنة حيث يؤكد فرنسيس أور «أن بلاد الشام تشكل مكاناً أصيلاً لإنسان النياندرتال». (4)

النياندرتال المشرقي 100.000 ــ 40.000 سنة: مقاربة أنثروبولوجية:

تدل الأبحاث العلمية البيولوجية والفيزيولوجية، على أن دماغ الإنسان يتألف من ثلاثة أقسام: القشرة الدماغية والقسم الحوفي والدماغ الزواحفي. أما المظاهر العاطفية والدينية فهي من اختصاص القسم الحوفي، في حين أن القشرة الدماغية تعنى بفعل الإدراك، ومعلوم أن القشرة الدماغية تؤلف ــ حسب كارل ساغان ــ حوالي 90% من دماغ الكائنات الحية. (5)

لهذا فحين نرصد ظاهرة وعي الموت عند مجتمع النياندرتال، فإننا لابد واقعون على حقيقة أن ثمة تطوراً حصل في القسم الحوفي والقشرة الدماغية. ويؤكد ساغان على أن حياة الصيد والالتقاط لدى الإنسان القديم والحضارة التكنولوجية لدى الإنسان المعاصر هما من نتاج القشرة الدماغية(6). وقد دلت الأبحاث العلمية أيضاً لدى دراسة الجانب الداخلي لجمجمة إنسان النياندرتال، إلى أن التناسب القائم بين مختلف أجزاء المخ يجعل الإمكانات العقلية عنده قريبة من مثيلتها عند الإنسان العاقل، الذي تطور في المشرق العربي حوالي 40.000 سنة عن سلفه النياندرتال(7). والمعلوم أن الإنسان العاقل السوري هو جدنا المباشر أما الجد البعيد فهو إنسان النياندرتال. وعلى هذا يمكننا القول

مع ساغان أن سلوكنا نحن الآن لا يزال واقعاً إلى حد كبير تحت سيطرة ماورثناه عن أسلافنا.[8]

لا بل أن كارل غوستاف يونغ رائد علم النفس التحليلي يركز في طروحاته على «أن لاشيء يدل على أن ذلك الإنسان يفكر أو يشعر أو يدرك بطريقة تختلف اختلافاً أساسياً عن طريقتنا في التفكير أو الشعور أو الإدراك،[9] فأداؤه النفسي هو جوهرياً أداؤنا نفسه ولا يختلف عنا إلا في مسلّماته الأولية».

ويؤكد أيضاً أن ذلك الإنسان /النياندرتال ثم العاقل/ ليس وحده الذي يمتلك سياقات نفسية قديمة، وإنما إنسان عالم اليوم المتمدن الذي بدوره يكشف عن هذه السياقات النفسية القديمة، دون أن تكون هذه السياقات مجرد ارتدادات متفرقة أتت على الإنسان الحديث من صعيد الحياة الاجتماعية.

ويصل يونغ للقول: كل إنسان متمدن مهما بلغت درجة نمو وعيه، لم يزل إنساناً قديماً في الطبقات السفلى من كيانه النفسي. فكما أن الجسم البشري يوصلنا بالثدييات ويكشف لنا عن بقايا كثيرة من تطور مراحل أولية ترجع إلى عصر الزواحف، فكذلك النفس البشرية نتاج تطور إن تابعنا أصوله تكشّف لنا عن عدد لاحصر له من السمات القديمة.

مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم 100000 سنة خلت:

عاش النياندرتاليون في المشرق العربي في الكهوف والمغائر واستطاعوا أن يكيفوها حسب احتياجاتهم وحوائجهم، كما استخدموا النار وصنعوا الأسلحة الصوانية ومارسوا الصيد عبر رجالهم، أما نساؤهم فكن يلتقطن لبذور والثمار والجذور الصالحة للطعام، كما كن يصنعن الملابس من جلود الحيوانات.

وقد أدى تطور البنية الدماغية لديهم إلى وعي لظاهرة الموت، لا بل أضحى مشهد موت إنسان يدهشهم عبر انتقاله المفاجئ من كائن مدرك وواعٍ، دافئ وممتلئ بالحيوية، إلى جثة ساكنة وباردة وشاحبة وقابلة

للتعفن، مما أصابهم بالصدمة الأولى، وهذا ما دفعهم إلى مواراة الجثة في التراب، وإجراء الدفن المتعمد والإرادي، لأول مرة في تاريخ الوجود البشري. وقد بدا أن التطور الروحي الذي بلغه إنسان النياندرتال تجاوز ما بلغه في الحياة الاقتصادية (10). وأدت التنقيبات الأثرية إلى العثور على مواقع نياندرتالية عدة في المشرق العربي ولعل أهمها:

موقع مغارة الديدرية قرب حلب:

يؤرخ هذا الموقع بحدود 100.000 سنة حيث عثر فيه على حوالي 70 قطعة عظمية بشرية تعود لهياكل نياندرتالية مختلفة.

وفي مطلع التسعينيات، تم العثور على هيكل عظمي لطفل عمره سنتان وطوله 82 سم حيث دفن في حفرة مستلقياً على ظهره، أما يداه فممدودتان وقدماه مثنيتان وعثر تحت رأسه على بلاطة حجرية كما على صدره فوق قلبه ويعود تأريخه إلى حوالي 100000 سنة. وفي عام 1997 عثر على هيكل عظمي لطفل ثانٍ بالعمر نفسه، وقد دلت طرق الدفن على أسلوب منظم ومدروس ويرقى إلى حوالي 80000 سنة، وهذا الكشف المهم يمثل حتى الآن أقدم عملية دفن للموتى في التاريخ البشري. وفي فلسطين عثر في مغارة قفزة على مقبرة بشرية تحوي 12 جثة نياندرتالية أرّخت بحدود 50.000 سنة وكانت الجثث لــ 6 أموات كبار و7 أطفال. وأهم ما عثر عليه فيها، والذي يعني دلالة لها معناها الاجتماعي والروحي، هو قبر امرأة شابة مستلقية على جنبها الأيسر ومثنية الرجلين والى جانبها طفلها الواضع رأسه على صدرها في حين كان بين يديه غزال /رمز الخصب/.

ويبدو أن هذا يدل على وجود مفهوم للأسرة عند النياندرتاليين وهذا ما سيتوضح أكثر في موقع سبق هذا الموقع بحوالي عشرة آلاف سنة، أقصد موقع شانيدار في العراق والذي يؤرخ بحدود60.000 سنة فقد عثر في الكهف على هيكل عظمي لرجل نياندرتالي في الأربعين من عمره، وبدا من الفحص العلمي أنه يعاني منذ طفولته من شلل نصفي كما أنه أعور ويعاني من التهاب في المفاصل، ويبدو أنه مات في شهر حزيران.

والطريف في الأمر أن أمراضه لم تمته، ولكن الذي قتله سقوط صخرة من سقف الكهف عليه.

إن الدلالة الروحية ــ الاجتماعية لدى هذا الإنسان تشير إلى مبلغ العناية التي أحيط بها وهو المشلول والأعور. ويتبدى ذلك أكثر في أن أهله فرشوا قبره بالورود، دلّ على ذلك تحليل حبات الطلع.

وفي كهف السخول في فلسطين عثر على هياكل عظمية في مقبرة جماعية تراوحت أعمار موتاها بين 3 ــ 50 سنة. ولوحظ أنه لم يوجد مرفقات جنائزية مع الموتى إلامع أكبرهم سناً، حيث كان يقبض بيده على عظم فك علوي لخنزير بري. /وربما يدل هذا على وجود أو تبلور بداية مفهوم للسلطة أو القيادة عند النياندرتاليين/. ولوحظ أن مدافن الرجال والأطفال عندهم تفوق مدافن النساء.

ويعج المشرق العربي بمواقع نياندرتالية مثل موقع الكبارا، وعدلون ويبرود وكهف الدوارة وجرف العجلة وأم التلال ومغارة العصفورية شمال بيروت.

ويبدو أن بنية الدماغ كانت آخذة بالتطور، ما دفع الإنسان النياندرتالي في أواخر عهده يتجه في المشرق العربي نحو التطور إلى الإنسان العاقل /لا سيما في فلسطين/، جدنا المباشر، وذلك في حدود 40.000 سنة. (11)

الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم 40.000 سنة خلت:

نحن الآن أمام جدّنا المباشر وجهاً لوجه، فهو يمتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي. فطرداً مع تطور بنيته الدماغيه، وحجم دماغه، تطورت أساليب عيشه، وتطورت حياته الروحية والاجتماعية والاقتصادية. ويبدو أنه صار يفهم الطبيعة أكثر، فهو جزء منها ويحاول الانفكاك عنها عبر السيطرة عليها.

كل هذا أدى إلى تطور في مناحيه الروحية وبالتالي المعتقدية والفنية، وبقي صياداً ولاقطاً مع تبلور إحساس اجتماعي أقوى من سلفه.

أما شعائر الموت لديه فقد استمرت على ما كانت عليه عند سابقه، مع

ميل للعناية بشكل واضح بالموتى، دلّ على ذلك أن المرفقات الجنائزية ازدادت وطرق الدفن أصبحت أكثر تعقيداً، فقد بقي يدفن موتاه داخل الكهوف، في وضعية القرفصاء، ويبدو أنه اتجه لدفن الأموات قرب المواقد «كما كان يفعل النياندرتال»، /ربما لأن برودة الجثة دفعته لتدفئتها عسى أن تعود إلى الحياة/. كما أن طريقة الدفن كما /وضعية الجنين/، ذكرّت بعض الباحثين أن لدى الإنسان العاقل ميل روحي، لاعتبار أن الدفن الجنيني هذا ربما يعيد الميت إلى الحياة كون أن الأرض رحم!!.

لكننا نستبعد مثل هذا الاعتقاد لدى الإنسان العاقل.. ونميل للأخذ باعتبارات أن مساحة الكهف هي التي حددت وضعية الدفن الجنيني، أو أخذ جثة الميت هذه الوضعية بشكل طبيعي، ربما نتيجة لموت طبيعي وما إلى ذلك.

ولوحظ أيضاً أن الجثث بدأت تطلى بالمغرة الحمراء، ونعتقد أن هذا يدخل في مجال التعويض عن الشحوب الذي يعتري الجثة. وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية على قبائل بدائية تعيش في أفريقيا حتى الآن حيث ظهر أنهم مازالوا يصبغون الجثث بهذه المغرة لاعتقادهم أنها علامة الحياة. (12)

ولوحظ أيضاً أن لدى الإنسان العاقل بدأ يتشكل إحساس الرهبة من الموت، وقد دل على ذلك أنهم كانوا يضعون أحجاراً ضخمة على أيدي الميت وأقدامه وصدره، ربما كي لا يستطيع القيام والعودة إلى الحياة وبالتالي إيذاء الأحياء. وهذا ما أكدته الأبحاث الأنثربولوجية التي جرت على قبائل بوبواس في غينيا الجديدة، حيث لوحظ أنهم كانوا يضعون الحجارة الكبيرة على رأس الميت وصدره وأقدامه.

ومن مواقع الإنسان العاقل في المشرق العربي هناك كهف الواد ــ قفزة ــ عرق الحمر ــ الكبارا ــ مصطبة الخيام ــ كهف الأميرة ــ كسار عقيل ــ انطلياس ــ يبرود ــ الكوم ــ وتدمر.

وفي حوالي 12000 تعتدل البيئة والمناخ بشكل يتماشى مع تطور

مجتمعات الإنسان العاقل، ويزداد مردود الثروات الطبيعية، وتبدأ تلك المجتمعات تبني قراها نصف المستقرة ومع هذا فلم تغادرالكهوف نهائياً. وبقيت أساليب الدفن متواصلة على ما كانت عليه، مع ميل نحو ظهور مظاهر دفنية، معمارية تمثلت بصفّين من الحجارة للمدافن. وتغيرت أدوات المرفقات الجنائزية مع الحفاظ على ماسبق حيث، عثر في أحد القبور في موقع الكبارا على ثلاثة حجارة طحن، إحداها مدقة موضوعة فوق الرأس. كما عثر على زبدية بازلتية بجانب الرقبة وجزء من حجر الطحن أيضاً. فهل هذا يدل على مهنة صاحب القبر وبالتالي الإيحاء بأن بعض الرجال في هذه الفترة مارسوا الحرف والمهن بديلاً عن الصيد؟. لأن هذه المرفقات «المهنية» سوف نجدها بغزارة في قبور العصور التاريخية مع أصحابها. وفي العراق في كهف شانيدار عثر على قبر لطفل في هذه الفترة حوت مرفقاته على مئات القطع من الخرز والأحجار المنوعة كما عثر على قبر امرأة حوى سكيناً بقبضة عظمية ونصلة صوانية.

ومع حلول الألف العاشر ونتيجة للتطور الآخذ صعداً في مجاري الحياة الاقتصادية الاجتماعية والروحية، بدأنا نلاحظ أننا أصبحنا أمام مجتمعات متجانسة تميزت بالسكن في البيوت وتحولت الجماعة إلى مرحلة القبيلة وبقيت تمارس الصيد والالتقاط ولم تغادر الكهوف نهائياً.

أما طرق وشعائر الدفن، فقد بنيت المقابر الكبيرة ومورست عملية الدفن الفردي والجماعي ويبدو أن المقابر انفصلت عن المساكن وبقيت إلى جوارها. وطليت الجثث بالمغرة الحمراء. وهذا لا يعني أن الدفن لم يجر في المساكن، فقد عثر على عمليات دفن تحت أرضيات البيوت. وهنا يبدو أنه قد حصل انعطاف في البنية الذهنية للإنسان، حيث تبدأ بواكير فصل الجمجمة عن الجسد، ودفنها منفردة. بما يوحي ببوادر نشوء اعتقاد «عبادة الأجداد»، والذي سوف يتوضح أكثر في العصور اللاحقة.

مواقع هذه الفترة: عين الملاحة ــ المريبط ــ الجرف الأحمر ــ أبو هريرة ــ نهر الحمر ــ الطيبة ــ جيرود ــ شقبة.

والملاحظ في هذا المجال أن الدفن كان يتم في قبور منتظمة، أما

المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أسلحة حجرية وأسنان ولؤلؤ وقرون غزال بالإضافة إلى سن حصان وأجزاء حيوانية أخرى. [13]

وفي الفترة بين 8300 ــ 6000 ق. م: تم ولوج البشرية منعطف جديد عبر الثورة الزراعية التي خرجت من المشرق العربي القديم إلى العالم.

ويبدو أن هذه الثورة العلمية ما كانت تتحقق، لولا تراكم مجمل المعطيات على مجرى العصور السابقة ما أدى إلى حصول هذا الابتكار المشرقي العربي، والذي سيعكس من الآن فصاعداً جملة من المعايير والاعتقادات، ويخلق بالتالي تحولات اقتصادية واجتماعية وروحية مهمة، إن كان على صعيد دورة الحياة أو على الصعيد الذهني البشري. فقد أدى هذا التحول إلى نشوء القرى الزراعية الثابتة والمستقرة. ويبدو أن الإنسان بدأ يهجر الكهوف والمغاور نهائياً، ولكن هذا لا يعني أنه لم يستمر في حياة الصيد والرعي، لا بل إن حياة المجتمعات آنذاك شملت عالم الزراعة، بالإضافة إلى عالم الصيد والرعي واللذين تعايشا جنباً إلى جنب في دورة اقتصادية اجتماعية واحدة سوف توثقه أساطير العصور التاريخية، ولاسيما أسطورة المزارع والمراعي، ووثائق المشرق العربي في الألفين الثالثة والثانية ق. م.

ومع ابتكار الزراعة، انتقل الإنسان بوصفه جزءاً من الطبيعة إلى الانفصال عنها، والسيطرة عليها. وهذا سوف يؤثر في بنيته الذهنية وفي تفاعله مع الطبيعة ونواميسها، والتي ترتكز في ظاهرة الموت /الموت الدوري للنبات ومن ثم انبعاثه في مواجهة الموت الخطي قبل الانفصال عن الطبيعة/. ولاسيما في نشوء ظواهر الاعتقادات الدفينة الخصبية التي تجلت في ميل اعتباري للثور /الظاهرة الأقدم/ وعبادة الأم الكبرى، وصولاً إلى الأرواحية أو عبادة الأجداد، التي يعبرّ عنها بعبادة الجماجم عبر فصلها عن الأجساد.

ففي حوالي منتصف الألف الثامن قبل الميلاد سوف تغدو الجماجم موضع اهتمام كبير وهذا ما توضح في مواقع هذه الفترة، ففي المريبط،

عثر على هياكل دفنت بلا رؤوس تحت أرضيات بيوت السكن. أما الجماجم فبعد فصلها عن الأجساد، كانت توضع على امتداد جدران المنازل لاعتبارات اعتقادية. كذلك عثر على نفس هذه الظاهرة في أريحا في فلسطين.

ولم تكن الجماجم لتترك بل أنهم كانوا يعالجونها كنوع من التعويض في المستوى النفسي الجمعي، ويحاولون إعادة تشكيلها من الجص، وصبغها بما يماثل لون البشر، ثم تنزل العيون بالصدف أو القواقع ويرسم على الجمجمة خيوط بنية كدلالة عل شعر الرأس.

وقد عثر على هذه الجماجم المقبولة في مواقع عدة في أريحا وبيسامون ووادي حمار وفي تل الرماد.

مقاربة نفسية ــ أنثربولوجية لظاهرة الأرواحية «عبادة الأجداد»:

تدل الأبحاث العلمية، والميدانية الأنثربولوجية، إلى وجود جماعات بدئية إلى الآن تعيش منعزلة في أماكن عدة من المعمورة، ولاسيما في أفريقيا وأستراليا والأسكيمو، مازالت تمارس الأرواحية التي مرت بها المجتمعات الإنسانية في أطوارها السالفة. وقد بينت هذه الدراسات الميدانية أن سكان هذه الأماكن يعتقدون أن الأجداد يستمرون بالتدخل في حياة الجماعة لا بل ويظهرون موافقتهم أو عدمها عبر مدلولات طبيعية /كون أنهم مازالوا جزءاً من الطبيعة وخاصية من خواصها/ ولعل الأحلام عند هؤلاء تلعب دوراً مهماً في ربط عالم الأموات مع عالم الأحياء [(14)]. ويبدو أن عبادة الأجداد تنزع فيما تنزع إليه، إلى تمتين أواصر اللحمة بين الجماعة واستمرارية تقاليدها وأخلاقها التي صاغها الأجداد وبذا تتوضح ظاهرة المعتقد هنا بأنها ظاهرة اجتماعية بحتة أوجبتها ظروف الصراع في الحياة من أجل البقاء.

فحسب تلك الجماعات إن الجد المدفون يجعل الأرض خصبة إذا عرفوا كيف يكسبون عطفه. لهذا فإذا أرادت جماعة ما أن تهاجر فينبغي أن تحمل جماجم أجدادها معها. فالأجداد إذاً هم جزء من المجتمع الإنساني الحي وعلى حد قول فرويليش فإن عبادة الأجداد هي عقدة من سلسلة طويلة اسمها الزمن.

[15] لهذا فإن معرفة الأنساب والحفاظ عليها لها فائدة كبرى في المجال الاجتماعي، حيث تمتّن الأواصر الاجتماعية بقيادة الأجداد، إذاً هي ظاهرة قبلية بامتياز. فالأجداد هم ضامنو النسب للقبيلة وعبادتهم تضمن استمرارية التقاليد والأخلاق الاجتماعية بين أفراد الجماعة، كما أن هذه العادة تؤدي إلى توازن في المستوى النفسي الجمعي بين عالم الأحياء وعالم الأموات بما يضمن استمرارية دورة الحياة للأجداد واستمرارية حياة الأموات في وجود الجماعة. وهذا ما يطلق عليه تعبير الأخلاق النفعية. ويختصر أحد شيوخ القبائل التي درست عبادة الأجداد بقوله: «إن الأموات يعيشون بقدر ما نفكر بهم وعلينا أن نطيعهم». [16]

ويشار أيضاً في هذا المجال إلى وجود ظاهرة أخرى هي ظاهرة الأقنعة والتي عثر عليها في موقع وادي حمار حيث أن هذه الأقنعة توحي بتظاهرات ذات طابع جمعي شعبي حيث كان القناع يصمم لكي يضعه أحد الأشخاص /كرمز إرواحي/، وتقام طقوس وشعائر ربما في عيد الأموات. ويشير جاك كوفان أنه ربما يحمل دلائل خصبية [17].

كانت الأقنعة تثقب بثقوب دائرية، أما الأنف فعبارة عن نتوء قليل البروز والفم نصف مفتوح، وثمة تلاوين بالأحمر والأخضر تشكل خطوطاً مشّعة من المركز باتجاه محيط الوجه، وتحمل هذه الأقنعة على طرفها صفاً من الثقوب من أجل تثبيتها مع وجود آثار حمر تدل على استخدام مادة لاصقة لشعر مستعار. ويشير كوفان إلى أن هذا الطقس إنما يعبر عن أصل المسرح المقدس في المشرق العربي ويعتقد أنه ربما يعود لعصور أقدم بكثير من زمنه. [18]

الفترة بين 6000 – 5000 ق. م:

استمر تطور المجتمعات الزراعية مع تعايشها مع مجتمعات الصيد والرعي، وقد بقيت طقوس الدفن تتم تحت أرضيات المساكن أو بقربها، وشملت المرفقات الجنائزية، أواني فخارية وحجرية ودمى نسائية وحيوانية مع ملاحظة أن هذه الفترة، لم يعثر في مواقعها على دلائل تشير إلى استمرار عقيدة عبادة الأجداد، كما لم يعثر /حتى الآن/ على جماجم مقولبة، مع اعتقادنا

أنها استمرت لأنها ستظهر في العصور اللاحقة.

أهم مواقعها: رأس شمرا والعمق والكوم وبقرص في سورية، ووادي اليرموك والحولة وأريحا ووادي رباح في فلسطين، أما في لبنان فأرض قليلة وجبيل، وفي العراق أم الدباغية وتل حسونة وسامراء.

الفترة بين 5000 – 3500 ق. م:

تطورت التقنية في مجال الزراعة إلى الري الصناعي والأقنية، وأصبحت الزراعة أكثر انتاجية. ومن المدافن يستنتج أنه ثمة تمايز اجتماعي يبدأ بالظهور بين الكهنة، ورجال الدين والسلطة والتجار من جهة، وبين بقية الناس من جهة أخرى. فقد حفلت قبور الأغنياء بالمعادن الثمينة، ولاسيما الذهب والفضة [19].

مجتمعات هذه الفترة مارسوا الدفن، ويبدو أنهم دفنوا الجماجم بمعزل عن الأجساد ما يشي بعبادة الأجداد، التي سوف تستمر حتى العصور التاريخية. حيث عثر على عبادة الأجداد في إيبلا عبر اكتشاف المقبرة الأمورية هناك والتي تعود للألف الثاني قبل الميلاد [20].

والجدير ذكره هنا، هو ظهور ظاهرة دفنية جديدة، تجلت في حرق الجثث ووضعها في جرار. وكان هذا يتم للكبار فقط أما الصغار فكانوا يدفنون بشكل اعتيادي. [21]

وأكثر الدفن داخل البيوت كان يتم للمواليد الجدد المتوفين، أما الكبار فقد دفنوا خارج البيوت. وقد عثر في بعض القبور على مرفقات جنائزية مثل التماثيل والأواني مع وجود سفن من طين. وهذه دلالة على نشوء مفاهيم جديدة في هذه الفترة لعالم ما وراء الموت، سوف يتوضح في العصور الكتابية حيث ثمة في العالم الآخر، نهر يعبره الإنسان بسفينة كي يصل إلى العالم السفلي. [22]

والذي يبدو كما هو واضح، في سياق البحث، أن وقفة الإنسان القديم تجاه ظاهرة الموت هي سلسلة واحدة تبدأ من إنسان النياندرتال، وصولاً /كما سنرى/ إلى الإنسان الحديث والمعاصر. مع فارق بسيط يوضحه عالم

النفس يونغ بقوله: «إن الإنسان القديم يفعل ما يفعل، لكن الإنسان المتمدن يعرف ماذا يفعل» [23]. وفي هذه النقطة تكمن وظيفة الدماغ ومدى الوعي الإنساني الذي لا حدود له.

استنتاجات تختص بالفترة التي امتدت
من حوالي 100000 سنة وحتى 3500 ق. م:

إن أقدم دليل أثري على وجود بشري في سورية يرقى إلى حوالي مليون سنة وبعضهم يعيد ذلك إلى مليون ونصف مليون سنة.

إن إنسان النياندرتال في المشرق العربي القديم، هو أول من وعى مسألة الموت متزامناً هذا مع تطور بنية الدماغ لديه ولاسيما القشرة الدماغية والقسم الحوفي من الدماغ.

إن عبادة الأجداد = الأرواحية تجلت منذ بواكيرها، في حوالي الألف العاشر قبل الميلاد. وهذا يشكّل انعكاساً لحالة النظام الاجتماعي القبلي نصف المستقر، والذي مارس الصيد والتقاط البذور. وهنا بدأت بواكير فصل الجمجمة عن الجسد لتتكرس وتتبلور مع الثورة الزراعية التي شهدها العالم آنذاك، انطلاقاً من سورية وذلك في حوالي منتصف الألف التاسع قبل الميلاد.

كان الدفن يتم تحت أرضيات الكهوف والمساكن. كما شهدت المنطقة بناء مقابر منتظمة ومعزولة عن المساكن في مواقع عديدة.

ظاهرة الموت ومعتقداته في العصور التاريخية 3200 ق. م:

نحن هنا مع استمرار لتقاليد وشعائر الدفن التي كانت سائدة سابقاً، مع ازدياد في التطور لجهة مناحي الحياة الدفينة، ولاسيما مع بداءات نشوء المدن، ومع فجر الكتابة والذي انطلق من المشرق العربي القديم

ولعلنا وفي مجال متابعة البحث، ولاسيما في العصور التاريخية /الكتابية/ نجد أنه ينبغي الإشارة إلى عدة مرتكزات:

أولها: أن العصور التاريخية في المشرق العربي تعد نقطة اتصال أو حلقة بين العصور ما قبل التاريخية والعصر الحديث لجهة شعائر الموت

ومعتقداته، بمعنى أن ثمة استمرارية حضارية متواصلة مع الأخذ بعين الاعتبار ما قدمته الثورة المدينية = العمرانية من جهة، وما قدمه اختراع الكتابة من معايير وقيم جديدة على حياة المجتمع آنذاك والشعائر التي مارسها في مجال الموت من جهة أخرى. بالإضافة إلى بدء اعتمادنا، على ما خطه أجدادنا على الرقم الطينية، بما أدى إلى توسيع دائرة الرؤية، لجهة معرفة شعائرهم ومعتقداتهم، بشكل يبتعد عن الاعتقاد، إلى الجزم.

وسوف نجد أن ثمة شعائر ومعتقدات وحياة رمزية، مازالت موجودة إلى الآن في حياتنا تستمد جذورها من العصور القديمة.

ثانيها: كنا في مجال العصور ما قبل التاريخية نعتمد على اللقى وبقايا المباني والمقابر والمرفقات الجنائزية لتفسير موقف المجتمع من الموت، أما مع اختراع الكتابة فنحن الآن مع مسار يأخذ منحيين:

الأول: إرجاعي بما يفسر الرموز والبنى ماقبل التاريخية عبر الوثائق الكتابية المكتشفة.

الثاني: واقعي بما تقدمه الوثائق، وتدعم ذلك البنى الاثرية واللقى في حيز العصور التاريخية بهذا شكلت الوثائق الكتابية، حالة توثيق لمناحي المجتمع كلها ومنها مسألة الموت.

ثالثها: قدر الامكان ابتعدنا عن الاستعانة بالنصوص الأسطورية والأدبية، ليس لعدم أهميتها، بل لأننا شئنا البحث في موضوع الموت وشعائره وفق ما كان يجري، لا ما كان يتم تصوره [24]. فالأسطورة على أنواعها المختلفة تستند إلى ركائز رمزية وكون أن الرمز مشحون بانفعال، فلا نعتقد أن البحث العلمي يقوم على الانفعال، بل على الوقائع الحياتية /لجهة هذا البحث/. وسأعطي مثالاً عن الانفعال الذي ذكرت، فقد ورد في ملحمة جلجامش أنه بنى أسوار أوروك، تلك التي لم يشهد مثلها إنسان [25]، لكن الكشف الأثري في مدينة «موقع حبوبة» في سورية أثبت أن سور حبوبة الكبيرة يفوق ضخامة سور أوروك المعاصر له. [26]

وأيضاً، فمسألة الموت في الأسطورة المشرقية، صحيح أنه كان يعبرّ

عن موقف المجتمع من الموت لكنه يتضمن في الوقت نفسه خلفية للثقافة الزراعية، وصراعاً للرموز فيما بينها، على قاعدة ثنائية الموت ـــ الانبعاث. ومجالنا نحن هو ليس في التصور والتخيلات بقدر ما هو رصد الممارسات ومجمل السلوك الإنساني المجتمعي الواقعي والذي وثّقته كتابات ونصوص المشرق العربي، بعيداً عن التصورات والانفعالات. /هذا مع احتفاظنا بمقولة إن الفكر الفلسفي انبثق من الأسطورة/.

ومع عصر فجر التاريخ /حوالي 3500 ق. م/، نلاحظ أن شعائر الدفن في المشرق العربي القديم بقيت على حالها، واستمر الدفن تحت أرضيات المساكن /الظاهرة الأقدم/، مع ملاحظة هنا، أننا أصبحنا أمام ظاهرة دفن تتم في الجرار الفخارية، للأطفال أولاً ثم شملت الكبار أيضاً.

وفي هذه الفترة، وباطراد مع الزمن، لم يعثر على ظاهرة فصل الجماجم عن الأجساد. ما يعني أن عبادة الأجداد أو حتى ظاهرة الجماجم المقولبة لم تظهرها المواقع الأثرية حتى الآن. وربما الذي حصل ونتيجة للاتجاه الاجتماعي ـــ الاقتصادي ومع بداءة تأسيس المدن ونشوء الزعامة بشكل نظام سياسي، أن تحولت عبادة الأجداد /القبلية/ إلى عبادة للملوك وتأليههم بعد الموت، تبعاً للتطور الاجتماعي ـــ الاقتصادي الحاصل في المجتمعات. دون أن ننسى دور الكهنة في عامل الربط بين السماء والأرض.

ومن ناحية المرفقات الجنائزية /وهذه التسمية نعتقد أنها أفضل من الأثاث الجنائزي/، نلاحظ استمرارية لما كان سائداً من قبل.

مواقع هذه الفترة:

عثر في بيبلوس «جبيل» في لبنان على مقبرة تؤرخ بحدود 4000 ـــ 3100 قبل الميلاد حيث دفن الموتى داخل جرار كبيرة بعد أن تم قص أحد جوانب الجرة لادخال الجثة وتم الاستفادة من القسم المقصوص بأن أصبح غطاءاً للجرة. (27)

المرفقات الجنائزية كانت عبارة عن أوانٍ فخارية كانت تحوي طعاماً

وشراباً، وزود الموتى بالأسلحة الحجرية والنحاسية، وشملت قبور النساء على أدوات زينة وتبرج.

وفي جرة كبيرة عثر على هيكل عظمي لرجل، والى جانب هذه الجرة ثمة جرة صغيرة حوت هيكلاً عظمياً لكلب، /ما يشي باعتقاد أن الميت كان صياداً/. وفي أريحا في فلسطين عثر على قبور محفورة في المنحدرات الصخرية ويعتقد أن الدفن فيها استمر لأجيال متعاقبة ولمئات السنين.

وفي العراق عثر في موقع تل قاليج آغا على دفن تحت أرضيات البيوت بالإضافة إلى العثور على جرار تحوي هياكل أطفال. كانت جرار الأطفال ذات شكل كروي ولها فوهات واسعة حيث يدفن الطفل فيها بوضع جنيني. ويتم دفن الجرة في باطن الأرض بعمق يتراوح بين متر وأربعة أمتار.

وفي مواقع أخرى عثر في بعض القبور على نماذج فخارية لزوارق شراعية وهذا ما سنناقشه لاحقاً مستندين على النصوص المسمارية.

وفي موقع أور في العراق عثر على مقبرة تضم 16 قبراً ملكياً وتعود لحوالي 2900 ــ 2750 ق. م، والشيء اللافت هنا هو احتواء المقبرة على ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر وكأنه اعتقاد بأن الميت يحيا في القبر بانتظار انتقاله إلى العالم السفلي عبر نهر، فلا بد من وجود حاشيته معه للعناية به. ففي قبر عائد لملك أور (آ ــ كلام ــ دك) عثر على 40 مرافقاً من الحاشية وفي قبر عائد للملك (آ ــ بار ــ كي) عثر على ثلاث ضحايا بشرية في جزء منه وفي جزء آخر عثر في حفرة كبيرة على 62 جثة بينها 6 جثث لجنود وتسع لنساء.

والملاحظ أن أصحاب هذه الجثث دفنوا بكامل ملابسهم وزينتهم أما الحرس فكانوا يحملون أسلحتهم والموسيقيون قيثاراتهم وصنوجهم. وقد تقدم هذه الضحايا عربتان ربط إلى كل منهما ثلاثة ثيران وقد جلس في داخلها الحوذيون.

أما قبر الملكة «بور ــ آبي» فقد عثر على عدة جثث لنساء رتبت في

صفين، وفي آخر الصفين توجد قيثارة بالقرب منها هيكل امرأة امتدت عظام يديها عبر حطام القيثارة. وبلغ عدد الضحايا البشرية مع الملكة حوالي 25 ضحية.

كما عثر في قبر آخر على حوالي 74 ضحية بشرية منها 68 لنساء والبقية لرجال.. يبدو أنهم جنود حيث اتكأوا على الجدار مع أسلحتهم، في حين كانت أربع نساء يقفن أمام قيثاراتهن [28]. ولتفسير هذه الظاهرة الاستعبادية عبر وجود ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر. والتي تعتبر في رأينا ظاهرة مستوردة، لا تعبر عن ذهنية المشرق العربي بدليل عدم تواجدها سابقاً وعدم استمراريتها، رغم العثور على ما يدل أن مواقع مدينة كيش الرافدية قد شهد هذه الظاهرة (80 ضحية دفنت مع حكام). فنحن نعتقد أن هذه الظاهرة مستمدة من الطقوس المصرية فقد عثر حول قبر الفرعون (جير) خليفة (غور آخا) في أبيدوس على حوالي 388 قبراً معظمهم لنساء والذي يبدو أنه جرى تقديمهن كقرابين كي ترافق الفرعون إلى العالم الآخر.

وفي موقع آخر جرى دفن 269 ضحية بشرية إلى جانب الفرعون كما رافقت زوجة الفرعون «ميرنيت» (41) ضحية، في حين أن الفرعون (أوداجي) رافقه 174 ضحية.

والذي يلاحظ أن الضحايا يكونون من أصحاب الحرف كالخزافين والنجارين والحجارين والرسامين وصانعي السفن وكل مع أدواته وتعود هذه القبور لحوالي 3100 ــ 3000 ق. م. [29] وفي موقع أبو ضنّة في سورية، والذي يعود لمطلع الألف الثالث ق. م، عثر على عمليات دفن تحت أرضية البيوت تمت في جرار فخارية. [30]

أما في ماري في سورية، فقد لوحظ انه في الألف الثالث قبل الميلاد كان السكان يدفنون موتاهم تحت التراب دون أي تابوت. وكانت الجثة تحاط بطبقة من الجرار الصغيرة. أما المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أوانٍ فخارية تحوي الأطعمة والشراب بما يؤمن للميت قوت يومه في العالم الآخر. أما قبور الملوك فكانت ومنذ مطلع الألف الثالث عبارة عن قبور

ضخمة حجرية. [31]

الطقوس الجنائزية في العصور التاريخية:

كانت الطقوس الجنائزية تعتبر ذات أهمية لدى الناس في المشرق العربي، فقد ساد الاعتقاد أنه إذا لم تقدم القرابين للموتى سواء الطعام أو الماء أو إقامة الشعائر على الأموات في يوم الندب، فسوف تخرج أرواح هؤلاء الموتى المحرومين بهيئة أشباح، تعكر صفو حياة الأحياء وتعيث فساداً وشراً. فإحدى التعاويذ المقروءة على نص مسماري تقول على لسان إنسان يبدو إنه ضحية مرض أو شأن سلبي فهم منه أنه يعاني من شبح تقول:

«سواء كنت شبح شخص غير مدفون، أو كنت شبحاً لم يلق عناية لائقة، أو شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء..» [32].

كما أن أحد النصوص يتحدث عن «أن الأشباح الشريرة تخرج من القبر من أجل الحصول على الطعام والماء». [33]

ولقناعتنا الآن /في العصر الذي سوف تسود فيه الروح العلمية/، بأن حالة المرض أو الحمى أو كل ما كان يصيب الإنسان، كانت تفسر تبعاً لحالة البنية الدماغية لديه ومدى تطورها، لذا فان تعليله المعتمد على اعتقادات طقوسية، جعلته في حالة مرضه سواء العضوي أو النفسي، يلجأ إلى الإشارة بإصبع الاتهام إلى الأرواح الشريرة. وهذا ما استمر ولو بشكل أقـل حتى حياتنا المعاصرة وعند بعض شرائح المجتمع ولاسيما التي لا تملك المعرفة العلمية. وتتحدث النصوص أيضاً عن شخص ابتلي بمرض ما /وحسب اعتقاده بروح شريرة/ حيث يتضرع إلى أرواح الموتى من عائلته لينقذوه فيقول بحس وجداني عالٍ:

«يا أرواح عائلتي، يا أرواح أبي وأمي وأجدادي وأخي وأختي وكل أهلي وأقربائي.. كنت أقدم إليك القرابين الجنائزية وأسكب الماء لك وأبذل العناية لك وأبجلك.. ففي الآن أمام شمش وجلجامش واعرضي قضيتي واحصلي على قرار رأفة بحقي.. ليتسلم نمتار الروح الشريرة التي في

جسدي وأعصابي وليمنعها نيدو من العودة ثانية، خذي هذه الروح إلى أرض اللاعودة ودعيني أنا خادمك، حياً.. سأقدم الماء البارد لشربك فامنحيني الحياة لأغني بمديحك» (34). وثمة رسالة من حاكم ترقا «التابعة لماري» إلى ملك ماري زمري ليم، يشير فيها الأول إلى أن الإله دجن طلب بوساطة الكاهن /ماخو/ إقامة الشعائر الجنائزية لروح يخدون ليم والد زمري ليم، حيث يبدو أن زمري ليم انقطع عن إقامة الشعائر لوالده المتوفى(35). وهاهو آشور بانيبال يذكر في أحد نصوصه: «لقد قمت بإعادة الشعائر التي تشمل الطعام والشراب المقدم لأرواح الموتى الملوك، والتي كانت مهملة، وأنجزت كل ما هو حسن للإله والإنسان، للميت والحي» (36).

وكان موعد إقامة الشعائر والطقوس يختلف بين المدن، ففي بابل مثلاً، كان يتم في التاسع والعشرين من كل شهر، حيث يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم والقمر محاقاً. وكان هذا اليوم يوصف /بيوم سكب الماء. يوم القرابين الجنائزية، يوم الكآبة، يوم الندب/، وفي إيبلا كان يتم في الشهر الحادي عشر من السنة وهو شهر عشتار، أما العيد السنوي لإقامة الطقوس فكان يتم في شهر آب في بابل وفي آشور كان يتم تقديم الطقوس في شهر شباط. وينبغي الإشارة أيضاً إلى أن الطقوس الجنائزية كانت تقام أيضاً لإرضاء الآلهة ولاسيما آلهة العالم السفلي.

فقد جاء في أحد النصوص: «انك تقدم القرابين الجنائزية من أجل الحقل الذي لاينتج.. ومن أجل الأقنية التي لاتجلب الماء.. إنك تقدم القرابين لآلهة العالم السفلي» (37).

ومن طرائف الأمور أن إحدى الوثائق الأكادية التي تعود للألف الثالث ق. م تذكر أن من يُتبنى، عليه أن يلتزم بتقديم القرابين إلى روح متبنيه بعد موته حيث جاء في النص:

«في حياتي تقومين بإطعامي وحين أموت تقدمين لي القرابين الجنائزية». (38)

الحرمان من الدفن كعقاب مجتمعي ضد الأفراد في الحروب:

شكّل الحرمان من الدفن عقاباً لمن لا يمتثل للقانون في مدن الدول آنذاك، إضافة إلى أن الانتقام خلال الحروب، كان يركز على نبش أضرحة ملوك الأعداء. ففي الأدعية كان يقال: «عسى أن يتهاوى جسده ولا يدفنه أحد» (39).

«وعسى ألا يدفن جسده في التراب» (40). لا بل أن أحد القوانين الآشورية يذكر: «إذا أجهضت امرأة حامل نفسها فيجب أن يحاكموها وإن أدينت توضع على الخازوق ولا تدفن، وإذا ماتت أثناء الإجهاض فيجب أن توضع على الخازوق لا تدفن جثتها» (41).

وعلى مسلة تعود إلى أمير لجش آي ــ أناتم، وتؤرخ حوالي 2600 ق. م، ثمة صور منقوشة تصور انتصاراته على أهل مدينة «أوما»، حيث يظهر القتلى مكدسين على الأرض، وجنود أمير لجش يسيرون فوقها، وقد نقشت رسوم النسور على المسلة وهي تطير من ميدان المعركة، حاملة بمناقيرها ومخالبها رؤوس وأيدي القتلى من الأعداء (42). ويؤكد ذلك نص يصف فيه الأمير حربه وانتقامه فيقول: «بتصرف»:

«ذبحت جيش أوما في مدينتهم.. وتركت أجسادهم في السهل للطيور والوحوش، لتلتهمها ومن ثم كومت هياكلهم خمسة أكوام في خمسة مواضع منفصلة». (43)

وتذكر حوليات آشور بانيبال، أنه في حربه ضد العيلاميين، خرّب أضرحة ملوكهم، وأخرج عظامهم ونقلها معه إلى آشور كأسلوب انتقام: «لقد نبشت قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة آشور، والذين أقلقوا أسلافي من الملوك، لقد نبشتها وعرّضت هياكلهم للشمس وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور، لقد فرضت الإزعاج على أرواحهم وقطعت عنهم قرابين الطعام وسكب الماء». (44)

ومن الطريف في هذا المجال، ما فعله«مردوك ــ بلادان» حين تمرد على الملك سنحاريب، فعقب فشل تمرده، أخرج هياكل أسلافه وفر بها بعيداً، لخشيته من أن يلحق سنحاريب الأذى بها. (45)

التوابيت:

مع بداية العصور التاريخية، كانت الجثث تدفن بعد لفها بحصر من القصب. أو تدفن الجثة في قبر مبطن بالحصر، وهذا ما أكدته مواقع أور ــ تل صوان ــ كيش.

كما استعملت التوابيت الخشبية في كيش. وعثر على توابيت طينية في موقع خفاجة.

وشاع الدفن في الجرار الفخارية في المشرق العربي، كما استعملت السلال في دفن الأطفال. وعثر على توابيت فخارية تشبه «طشت الغسيل»، حيث كانت تغطى بجذوع النخيل أو أغطية فخارية أو طينية. ففي موقع الأنصاري قرب حلب «2400 ــ 1600 ق. م» عثر على مقبرة تشبه مقابر بلاد الشام من الناحية المعمارية، ومن ناحية المرفقات الجنائزية، ولاسيما مقابر قطنة والسلنكحية وتل برسيب وإيبلا.. وحوى أحد القبور، على هيكل عظمي لامرأة داخل جرة كبيرة لها فوهتان. [46]

وفي ماري شاع الدفن داخل الجرار الفخارية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وقد عثر على جرتين كبيرتين كانت فوهة كل منهما مقابلة للأخرى. وكان ممن أهم المرفقات الجنائزية، ثلاثة أقنعة لرجال مرد، مع زوائد متطاولة تمثل الأذنين وقد ثبّت القناع على صدر الميت[47]. والجدير ذكره أن الأقنعة هذه عثر عليها في مواقع عديدة في الجناح الشرقي للمشرق العربي وفي أوغاريت.

شعائر الموت في إيبلا:

تقول مرغريت يون: «من البحر المتوسط وحتى الفرات يلاحظ استمرار العديد من مظاهر الأثاث الجنائزي للمدافن». [48]

فإيبلا لا تشذ عن هذا الأمر. ويبدو بشكل عام أن شعائر الموت ومعتقداته وبدءاً من السيادة العمورية على مدن المشرق العربي القديم قد تجانست ضمن معايير معينة وضمن نظام واحد مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف البيئة الخاصة بين مدينة وأخرى.

فقد عثر في إيبلا على مقبرة ملكية أمورية تعود للألف الثاني قبل الميلاد، وحول هذا يقول باولو ماتييه: «إن هذا التقليد الإيبلائي يعود إلى فجر التاريخ وقد شاع هذا التقليد /ويقصد المقبرة الملكية تحت القصر الملكي وفي قلب المدينة/ في جنوب الرافدين منذ منتصف الألف الثالث ق. م، كما في أور». فقد ظهرت تحت أرضيات القصر الغربي مقبرة ملكية هي عبارة عن أربعة مدافن[49]، أهمها مدفن الأميرة ومدفن سيد الماعز ومدفن الخزانات.

مدفن الأميرة يعود لحوالي 1800 ق. م، أما مدفن سيد الماعز فيؤرخ 1750 ق. م، وفي هذا المدفن عثر على تميمتين من العاج إحداهما، تشي بطقس جنائزي، حيث أنها تتألف من سلسلتين من الصفائح العاجية الرقيقة، وقد حوى المشهد الأول منها على وليمة جنائزية مؤلفة من رجل عاري الرأس، يمسك بعصا، ويجلس رواء منضدة مليئة بأرغفة الخبز، ويقف أمامه عدد من الخدم ورجل وامرأة عاريين، أما المشهد الثاني فيتألف من قردين في حالة ابتهال أمام ثور، ومن شكل ثانوي لرجل يحمل فأساً. وقد فسر ماتييه هذا المشهد مستنداً على أبيات من شعر أوغاريتي تتعلق بالإله «كيريت»، حيث يتولى الابن الأكبر والإبنة الكبرى مهمة مراسم دفن والدهما الملك المتوفى. ففي المشهد الأول يكون الملك هو صاحب الوليمة الجنائزية، ومن ثم تنسخ روحه بعد الوفاة في شكل ثور يبتهل له القردان. ويشير ماتييه إلى تفسير هذه المشاهد وفق أسطورة تموز. [50]

الجدير ذكره أن مدافن تلك الفترة تتشابه مع مثيلاتها في أريحا في فلسطين وجبيل في لبنان.

وقد دلت المقبرة الأمورية في إيبلا على ظاهرة عبادة الأجداد أو عبادة الملوك /ماتييه/[51]، ونحن نعتقد أن الظاهرة هنا، لا تعبر عن عبادة الأجداد بالمعنى القبلي، لأن نظام إيبلا السياسي شهد ملوكاً مختلفين ولا يشكلون علاقة أسرية متوارثة، وبالتالي فنحن أميل للأخذ بتقديس الملوك بعد موتهم.

شعائر الموت في أوغاريت:

تم اكتشاف الكثير من المدافن في أوغاريت، حيث توضعت تحت أرضيات المساكن. فالبيت الأوغاريتي بشكل عام، يحتوي طابقه الأرضي على مركز للأعمال الحرفية أو المنزلية والمستودعات ويكون مفتوحاً على الشارع. وثمة طابق ثانٍ، مخصص لسكن العائلة، وربما يوجد طابق ثالث ثم السطح. أما تحت الطابق الأرضي فيتوضع مدفن العائلة ويكون لها باب إلى الشارع مباشرة إضافة إلى ارتباطها ببقية أجزاء المنزل.[52]

عثر في أحد المدافن ضمن المنازل، على مرفقات جنائزية تضم بيوض النعام، كانت تستورد من مدن المشرق العربي الأخرى. كما كانت القبور تحوي على الأسلحة والحلي. وعثر في القصر الملكي على مدافن ملكية كبيرة تعود لحوالي 1400 ق. م، وحوى أحد القبور على منحوتة لموسيقي يعزف على صنجين.[53]

وقد تم قراءة أحد النصوص الأوغاريتية التي تتحدث عن أرواح الموتى «الابوم»، ويبدو أنها مرتبطة بعبادة أو تأليه الموتى /ربما الملوك/، أو إقامة شعائر جنائزية في ما يسمى بالمرزح.

ويبدو أن المرزح كان على شكل مؤسسة اجتماعية، تعنى بالطقوس الجنائزية التي تقام في دار مرزح لبكاء الأموات، وربما استذكارهم. حيث يقتسم الخبز ويشرب النبيذ للتعازي بالأموات. وفعل رزح، يفيد بمعنى السقوط إلى الأرض. وقد افترض جوناس جرينفلد أن ثمة توافقاً بين المرزح وبين طقس كيسبو الرافدي، فالمدعوون إلى الوليمة يكونون الأجداد وأرواح الموتى[54]. ويبدو أن المرزح كان يشمل وليمة جنائزية، يتم عبرها دعوة أرواح الأجداد لذكراهم والتبرك بهم. وفيما يعاصر أوغاريت نميل نحو أريحا في فلسطين، حيث أدت المكتشفات الآثارية، إلى العثور على مدافن شبيهة ببقية مدافن بلاد الشام، ولكن الشيء الجديد هنا، هو أن المرفقات الجنائزية جديرة بأن نطلق عليها اسم أثاث جنائزي، فقد حوى أحد المدافن على أثاث «مناضد وطولات وكراسي خشبية» حيث استلقى الميت وسط الغرفة، على سرير بالقرب من طاولة، محملة بقطع من أدوات مهنية، استخدمها الميت في حياته /حيث كانت مستعملة/. ويبدو أن الأثاث الجنائزي هذا كان تشبهاً

بالمدافن المصرية. [55]

العالم السفلي عند المشرقيين القدماء:

يتألف العالم السفلي حسب أحد النصوص الآشورية، خلال فترة السيادة الأمورية على المشرق العربي 2000 ق. م، إلى أن الأرض تقسم إلى ثلاث طبقات:

الأرض العليا = أرصيتو إليتو «بالأكادية»، الأرض الوسطى = أرصيتو قبليتو، الأرض السفلى، /العالم السفلي/ = أرصيتو سبليتو.

أما مداخل العالم السفلي، فهي القبر وأيضاً مدخل يقع عند مغيب الشمس.

وفوق العالم السفلي /الذي يتوضع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض/ كانت تمتد مياه العمق، وثمة نهر يؤدي إلى العالم الأسفل يطلق عليه بالأكادية نهر /عبر/، وهو يحيط بالمدن. وباعتقاد أجدادنا آنذاك، أنه لا يمكن العبور للموتى بهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى، إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبر نهر عبر. لهذا كانت المرفقات الجنائزية ترفق بسفن ونماذج منها، إضافة إلى قطع نقود سوف يأخذها المسؤول عن عبور الموتى للعالم السفلي.

كان الاعتقاد بشكل عام في المشرق العربي، أن شهر شباط هو شهر لأخذ الأموات، حيث يكثر الموت /وهذا الاعتقاد مازال مستمراً في عصرنا الحديث/ وكان يسمى /بشهر نهر عبر/، حسب الوثائق الآشورية.

وورد في أحد النصوص المشرقية العائدة للألف الثاني ق. م: « دعهم يعبرون نهر العالم السفلي ولا يعودون» [56].

ومن أسماء العالم السفلي وصفاته، فإننا نلاحظ مدى تشابه الكلمات الأكادية مع الكلمات العربية، فالقبر في الأكادية: قبرو، وأرض الموتى = أرصيتو ميتوتي. وأناس سفليون «في العالم الأسفل» نجدها في الأكادية: نسي سبلاتي. وخربة أي مقبرة نجدها في الأكادية: خربو. [57]

شعائر الموت عند الآراميين:

دفن الآراميون موتاهم بطرق الدفن العادي، حيث دفنت الجثث داخل قبور مبنية على شكل غرف. كما كانوا يحرقون الجثث، والذي يبدو أنه تقليد لطقوس أناضولية لا تمت بصلة لذهنية الموت في المشرق العربي القديم.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن شواهد القبور هي ابتكار آرامي بامتياز، استمر إلى عصرنا الحاضر. ففي شمأل، عثر على شاهدة قبر ارتفاعها متر ونصف، وتمثل مشهد مائدة تجلس اليها سيدة ترتدي ثياب الاحتفالات، وأمامها طاولة تحوي أصنافاً من المأكولات، وخلف المرأة وقفت الوصيفة وبيدها الأولى مذبة، وبيدها الأخرى سكين. (58)

ويعتقد الدكتور علي أبو عساف بأن هذا المشهد يصف تصويراً لعقيدة الحياة في العالم السفلي. (59)

بالإضافة إلى شواهد القبور ظهر لدى الآراميين ابتكار التماثيل الجنائزية، حيث عثر عليها في عدة مدافن آرامية، ففي جوزن تم اكتشاف تمثالين لامرأتين جالستين وتمثال لرجل وامرأة يجلسان على مقعد واحد. وقد اتسمت هذه التماثيل بالتعبير الواقعي لحالة الموت، حيث العيون مغمضة وتوحي الشخوص بالجمود، دلالة على أنهم أموات.

وفي تل حلف عثر على تماثيل للموتى توضع كشاهدة قبر، وانتشرت الكتابة تحت قوس شاهدة القبر وعلى أسفل ثوب الميت. فمثلاً عثر على شاهدة قبر لكاهن /سن/ المتوفى، حيث نقرأ أسفل الثوب على الشاهدة:

«سن ـــ أرز ـــ ابني» كاهن سن هو متوفي وهذه صورته وقبره. وينتهي النص بلعن كل من يسيء إليه. (60)

وبشكل عام لم يظهر عند السوريين القدماء تفكير ما بوجود حياة بعد الموت، ولعل المرفقات الجنائزية من طعام وشراب وسفن ونقود إلخ، بالإضافة إلى الشعائر والطقوس الجنائزية، كانت تتم لتهدئة روح الميت، وجعله مطمئناً أولاً، وثانياً، من أجل ابتغاء مرضاة آلهة العالم الأسفل كي

تعتني بالميت في العالم الآخر / السفلي.

وهذا ما جعل السوريين القدماء يعملون للحياة ومن اجل الحياة والمجتمع أكثر ما كانوا يشغلون تفكيرهم بالموت وعالمه. وهذا ما تبدى معنا منذ ما قبل التاريخ مروراً بالعصور التاريخية وحتى مملكة تدمر في القرون الميلادية الأولى والتي سمت المدافن ببيت الأبدية.

ولعلنا نختم بحثنا هذا بمقولة العالمة الإيطالية غابرييلا ماتييه:

«لم يكن السوريون غير مهتمين بمسائل ما بعد الحياة أو الوجود وإنما كانوا أقل استعداداً ليوم الموت، وهذا ما عرفناه من بقاياقبور مدمرة في سورية مثل إيبلا.

السوريون يصورون مكان الموت والقبر وحياة العالم الأسفل كمكان حزين، مكان حداد، مكان دخاني رمادي.. الموت عند السوريين بشكل عام نهاية مفتوحة للحياة» [(61)].

الهوامش

(1) د. سلطان محيسن. الصيادون الأوائل. دار الأبجدية. دمشق. 1991
(2) الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم. مجموعة باحثين. وزارة الثقافة. دمشق. 2000
(3) محيسن. مرجع سابق.
(4) فرنسيس أور. حضارات العصر الحجري القديم. ت: سلطان محيسن. دمشق. 1989
(5) كارل ساغان. تنانين عدن. ت: نافع لبس. اتحاد الكتاب العرب. 1996
(6) المرجع السابق.
(7) تظهر بعض المعطيات الأثرية الحديثة، أن الإنسان العاقل ربما لم يتطور عن سلفه النيادرتال. /رغم أن المؤشرات تؤكد تطور الإنسان العاقل الفلسطيني عن سلفه النياندرتال/. ولكن ظهور دلائل عن وجود الإنسان العاقل، في جبل قفزة في فلسطين، بما يعود لحوالي 100000 سنه، ربما يعيد النظر في الكثير من المفاهيم السابقة. /راجع. محيسن. الصيادون الأوائل/.
(8) ساغان. مرجع سابق.
(9) كارل غوستاف يونغ. علم النفس التحليلي. ت: نهاد خياطة. دار الحوار. سورية. 1985
(10) محيسن. مرجع سابق.
(11) يمكن العودة للهامش رقم 7
(12) ه. فرويليش. ديانات الأرواح الوثنية. ت يوسف شلب الشام. دار المنارة. دمشق. 1988
(13) بورهارد برينتيس. نشوء الحضارات القديمة. ت: جبرائيل كباس. دار الأبجدية. دمشق. 1989
(14) فرويليش. مرجع سابق.
(15) المرجع السابق.
(16) المرجع السابق.
(17) جاك كوفان. الألوهية والزراعة. ت: موسى خوري. وزارة الثقافة.

دمشق. 1999

(18) المرجع السابق.

(19) برينتيس. مرجع سابق.

(20) ابلا. مجموعة باحثين. ت: قاسم طوير. دار يعرب. دمشق. 1984

(21) برينتيس. مرجع سابق.

(22) د. نائل حنون. عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة. وزارة الثقافة. بغداد. 1985

(23) يونغ. مرجع سابق.

(24) باعتقادنا، أن عقائد الموت وشعائره تتطلب حين دراستها، عدم الخلط بين الحقيقه التاريخية الموثقة، في الكتابات المسمارية وغيرها. وبين الأساطير والتي يناقشها البعض، وكأنها أحداث حقيقية. فالمعلوم أن الأساطير على أنواعها، هي ضرب من التصورات والتخيلات، لرموز وآلهة، والرمز بشكل عام، هو تصور مشحون بالانفعال، وبذا فلا يمكن تحقيق الغرض العلمي في بحثنا، اذا خلطنا الوقائع التاريخية المعاشة، مع التصورات والتخيلات الأسطورية. وربما يحتاج هذا، لبحث في الموت في الأسطورة لوحده، أو محاولة اجراء مقاربة للموت بين الوقائع التاريخية المعاشة، في مقابل الموت في الأساطير.

(25) طه باقر. ملحمة جلجامش. بغداد. 1962 وزارة الارشاد.

(26) ايفا شترومينغر. حبوبة. وزارة الثقافة. دمشق. 1984

(27) د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة. 1988 ــ دمشق

(28) حنون. مرجع سابق.

(29) برينتيس. مرجع سابق.

(30) الحوليات الأثرية السورية. 34 ــ 1983

(31) أندريه بارو. ماري. وزارة الثقافة. دمشق. 1979. ت: رباح نفاخ.

(32) حنون. مرجع سابق.

(33) المرجع السابق نفسه.

(34) المرجع السابق نفسه.

(35) المرجع السابق نفسه.
(36) المرجع السابق نفسه.
(37) المرجع السابق نفسه.
(38) المرجع السابق نفسه.
(39) المرجع السابق نفسه.
(40) المرجع السابق نفسه.
(41) المرجع السابق نفسه.
(42) أندريه بارو. سومر. ت: سليم التكريتي ــ عيسى سلمان. بغداد. وزارة الثقافة. 1978.
(43) حنون. مرجع سابق.
(44) المرجع السابق.
(45) المرجع السابق.
(46) الحوليات الأثرية السورية. مجلد 33 ــ 1983
(47) بارو. مرجع سابق.
(48) الحوليات الأثرية السورية. مجلد. 29 ــ 1979/30 ــ 1980
(49) ابلا. مرجع سابق.
(50) المرجع السابق.
(51) المرجع السابق.
(52) الحوليات. 92 ــ 30. مرجع سابق.
(53) المرجع السابق.
(54) المرجع السابق.
(55) برينتيس. مرجع سالق.
(56) حنون. مرجع سابق.
(57) المرجع السابق.
(58) د. علي أبو عساف. الآراميون. دار الأماني. 1988
(59) المرجع السابق.
(60) المرجع السابق.
(61) مجلة البناء اللبنانية. حوار مع غابرييلا ماتييه. 1989/10/21.

مراجع البحث الأخرى

- د. سلطان محيسن. المزارعون الأوائل. دار الأبجدية. 1994
- سيغموند فرويد. الطوطم والتابو. ت: بوعلي ياسين. دار الحوار. سورية. 1985
- بيتر فارب. بنو الإنسان. ت: زهير الكرمي. عالم المعرفة. 1983/67. الكويت.
- أشلي مونتاغيو. البدائية. ت: جابر عصفور. عالم المعرفة. 1982/53. الكويت.
- جاك كوفان. ديانات العصر الحجري الحديث. ت: سلطان محيسن. دار دمشق. 1989
- ايف كوبنز. افريقيا وقصة الإنسان. ت: سلطان محيسن. دار شمأل. دمشق. 1996
- الميثولوجيا ونشوء المعتقدات القديمة. مجموعة باحثين. ت: حسان اسحق. الأبجدية. 1993.
- د. خالد ــ أبو غنيمة. أساليب الدفن في العصور الحجرية. دراسة. جامعة اليرموك.
- Exposition syro - éuropeenne d’archéologie - Paris 1996.
- Syrie terre de civilisations .1999 .quebec.
- انطون مورتكات. تموز. ت: توفيق سليمان. دار المجد. سورية 1985.

ملحق الدراسة الثالثة

- بناء تدمر بين المرويات التوراتية والمعطيات العلمية التاريخية الآثارية.
- مجلة البناء اللبنانية. العدد 835 ــ تاريخ 1992/5/9 والعدد 836 ــ تاريخ 1992/5/16.

بين ما تطرحه المرويات التاريخية «الميعادية» من تلفيقات وتهويمات /استند عليها الاستشراق الغربي في بداياته، ومازالت مفاعيله تظهر بين الحين والآخر/. وما تطرحه الحقائق العلمية المستندة على المعطيات الآثارية، تتكشف لنا عدة نقاط أهمها: أن التوراة لم يعد كتاباً «تاريخياً» له الاعتبار في دراسة تاريخ «المشرق العربي»، بالإضافة إلى أن ما كشفته الحفريات الأثرية في هذا المشرق، حجّم إلى حد كبير «التوراة»، وجعله كتاباً قصصياً يخلو من الموضوعية والعلم في مجال التاريخ.

واستناداً على هذه الحقائق، أجرينا سبراً للآراء لعدد من الباحثين السوريين والعرب والأجانب، منطلقين من سؤال هو: «ورد في التوراة.. /في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني/ أن سليمان بنى تدمر في البرية». إلى أي حد يعتبر هذا القول «الزعم» حقيقة موضوعية وتاريخية تسندها المعطيات الآثارية؟

وكانت الإجابات في معظمها ــ كما سنقرأ ــ ترفض هذا الطرح، خلا بعض الآراء لباحثين أجانب يبدو أنهم تحسسوا من السؤال!! فجاءت إجاباتهم مبهمة!. ومنهم من رفض الإجابة لأنها ليست من اختصاصه /مع انه يحمل درجة البروفيسور!/.

أما **النقطة الثانية** والتي خشينا أن توصلنا بعض الإجابات اليها، فهو اتفاق عدد لابأس به من الباحثين على أن المقصود بالمدينة هو: تمار /تامار/، في فلسطين، وليس تدمر في بادية الشام، وهنا تدخلنا لعدم

الانجرار نحو إنكار بناء سليمان لتدمر، مقابل إثبات بنائه لتمار التي لم تثبت المعطيات الآثارية في فلسطين على أنه بناها، ناهيك عن عدم العثور عليها حتى الآن.

والنقطة الثالثة التي لابد من طرحها استناداً على نتائج هذا السبر، هو مايخص إجابات الباحثين والعلماء السوريين فالرفض لهذه المقولة اتفقوا عليه، لكن الوصول إلى هذا الرفض كان ــ إلى حد ما ــ مختلفاً عبر البراهين والأدلة، ومع هذا نرجو من خلال هذا السبر أن نقدم «مادة غنية» للحوار والبحث الجدي، تؤدي إلى إنهاء دور التوراة التاريخي الذي حكم تاريخنا وقراءته لفترة ليست بالقصيرة.

السؤال

(ورد في التوراة /في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني/ أن سليمان بنى تدمر في البرية إلى أي حد يشكل هذا القول /الزعم/، حقيقة موضوعية وعلمية تسندها المعطيات الآثارية؟

الإجـــابـــات

☆ **الدكتور ألبير نقاش ـ لبنان:**

لن أجيب مباشرة عن هذا السؤال، بل سأطرح مشكلة ثانية، حيث جرت هناك أبحاث أثرية في فلسطين منذ 150 سنة، وتمت على كل مساحة فلسطين، ولكن منذ عشر سنوات طرح تساؤل عندما اكتشفوا وجود شواهد أثرية عن وجود حضاري لمجتمعات ولظواهر سياسية مختلفة، ما عدا الفترة التي تسمى عادة بالمملكة الموحدة، أي مملكة داوود وسليمان بمعنى آخر، لدينا ثوابت أثرية آشورية ومصرية لوجود دولة إسرائيل ودولة يهوذا، ولكن حتى القرن العاشر قبل الميلاد التي هي فترة الدولة الموحدة، لم يستطع الآثار يون أن يكتشفوا أي دليل عن وجود هذه المملكة.

ومن ناحية ثانية تقول النظريات الحديثة أن كتابة التوراة بدأت في القرن الرابع قبل الميلاد، واكتملت في القرن العاشر الميلادي. أي بعد 600 سنة من عهد داوود وسليمان. فالاستنتاج الحالي أن داوود وسليمان

هما أسطورة شائعة، ليس فقط عند اليهود بل في كل الديانات السماوية، حتى في عمان هناك جبل اسمه جبل سليمان وثمة ظن أن سليمان قد بناه!! وسليمان أصبح شخصاً أسطورياً في كل المنطقة وقد ورد ذكره في القرآن أيضاً.

☆ **الأستاذ الدكتور محمد محفل ـ سورية:**

الكل يعرف بأن الأمر قد تم، أو وقع التباس بين تدمر ومدينة تامارا التي تقع في فلسطين. وليست في بادية الشام. ولا علاقة لتدمر من قريب ولا بعيد بسليمان ولا بجنّ سليمان. وأساساً لم يكن الطراز الذي بنيت فيه تدمر سائداً في أيام سليمان. بعض الأعمدة التي نجدها من الطراز الكورنثي نحن نعلم بأنها جاءت متأخرة بعد عصر سليمان بعدة قرون، ولم تكن حتى موجودة في المنطقة. إضافة لذلك نحن لا نعرف أنه إذا كان سليمان فعلاً، قد تمدد في أوج مملكته أو وسع حدوده ليصل إلى جزء من بادية الشام.

الخطأ وقع عندما نسب النابغة الذبياني إلى سليمان وجنّه بناء تدمر. وطبعاً أنت تعرف أن الإخباريين العرب، ولا أقول المؤرخين لا يمكننا أن نعتمد عليهم كثيراً فيما يتعلق بالتاريخ القديم ولا سيما أن أخبار اليمن القريبة منهم تتراوح بين الأسطورة والرواية، فكيف بمنطقة بعيدة عنهم. أقصد تدمر في البادية الشامية.

☆ **الأستاذ الدكتور علي أبو عساف ـ سورية:**

هذه العبارة حشيت فيما بعد في التوراة، وليس لها أي أساس من الصحة. ويبدو أن هناك بعض التوراتين الذين أرادوا نسب تدمر باعتبارها مدينة مدهشة وعجيبة إلى سليمان باعتبار أن الأمور العجائبية قد ألصقت به.

☆ **البرفيسور تاكويا إيزومي ـ اليابان:**

أنا لا أستطيع أن أجيبك.. لا أستطيع! فاليابانيون لا يعرفون بالضبط ما هي المشكلة لذلك صعب علي أن أجيبك.

☆ **الدكتور هورست كلينفل ـ ألمانيا:**

هذه العبارة وردت في سفر الأخبار بعد300 سنة للميلاد. وفي ذلك الوقت كانت تدمر مدينة عظيمة ومزدهرة وشهيرة. الكلمة في التوراة ليست تدمر وإنما تامار في فلسطين وبما أن تامار كانت مدينة بسيطة فقد حوروا التسمية إلى تدمر لأنها كانت مزدهرة وكبيرة وعجيبة.

☆ **الدكتور شوقي شعث ـ فلسطين / سورية:**

ليس لهذه الرواية أي سند تاريخي وإنما هي من روايات المؤرخين اللذين يتحدثون بدون دقة في هذا الموضوع.

☆ **الأستاذ خالد الأسعد:**

ما ورد في التوراة لا أساس له من الصحة، فالتوراة نزلت على موسى في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولم تسجل بشكل رسمي قبل القرن الثالث قبل الميلاد. هناك انقطاع لأكثر من ألف سنة. وعندما حاولوا كتابتها من جديد حاولوا أن يدخلوا كل الأماكن المهمة والمتطورة والعجيبة، ضمن الجغرافية التوراتية. وبما أن التوراة نزلت في منطقتنا، وبما أن موسى مصري وأحداث التوراة ليست بعيدة عن أرضنا، فإن كلمة تدمر اختلطت مع كلمة تامار الموجودة في فلسطين أو في شمال الحجاز. وحتى الآن لم يعثر لتامار على أي أثر. فليس هناك أية صحة للخلط بين تدمر وتامار. فاليهود حاولوا أن ينسبوا إلى أنفسهم ــ كالعادة ــ كل شيء عظيم وكبير. وحين قال النابغة الذبياني في شعره أن سليمان قد بنى تدمر، فهذا لا يعدو كونه نظرة بدوي في الصحراء. والتدمريون القدامى يقولون في كتاباتهم، أن تدمر هي بعد سليمان بألف سنة ولا علاقة لسليمان بها. وحسب ما نقرأه من الكتابات الجديدة عبر المكتشفات الحديثة، فليس لدينا أي كتابة في تدمر تعود إلى أكثر من القرن الأول قبل الميلاد. والأبنية التي تنسب إلى الأسطورة لا تزال قائمة وأسماء أصحابها الذين أقاموها منقوشة على الحجر وكلها أسماء تدمرية فلا صحة لهذا الزعم.

☆ **الدكتور انطون سليمان ـ سورية:**

هذا سؤال تعجيزي ولن أجاوبك!!

☆ **الأستاذ خالد الدايل ـ السعودية:**

لا أستطيع ان أجيبك فأنا من السعودية!!

☆ **الدكتورة هيلغا زيدن:**

لا.. لا.. هذا ليس صحيحاً.

☆ **الأستاذ الدكتور جورج تات ـ فرنسا:**

لا توجد أية معطيات أثرية تؤكد هذا القول.

☆ **الدكتورة منتهى صاغية ـ لبنان:**

هذا خطأ علمي، وبالمناسبة هناك عالم فرنسي ألقى محاضرة ونفى هذا الشيء، وكذلك العالم كلينفل. هناك التباس تاريخي بين كلمة تدمر وكلمة أخرى تشبهها تقع في فلسطين. ولا أظن أن هناك علاقة بين سليمان وإنشاء تدمر. أما عن وجود مدينة تامار كحقيقة أثرية فهذا يحتاج لشرح طويل والسؤال عنه صعب كثيراً في الوقت الحاضر.

☆ **الأستاذ الدكتور محمد حرب فرزات ـ سورية:**

لا يوجد أي إثبات موضوعي، أو أية وثيقة تاريخية، تؤيد مثل هذه الأخبار التي لها صفة أسطورية مما هو في كتابات توراتية خاصة بتقاليد مجتمع من المجتمعات القديمة. فالباحثون العلميون والآثاريون ودارسو التاريخ لهذه المنطقة الذين نعرفهم، لا يأخذون هذا الموضوع بأي اعتبار نهائياً. ولا نجده في أي مرجع من المراجع العلمية، وعن ما يشار إليه فإنما هو على سبيل الإشارة لما يروى من ثقافة الذين كانوا يتحدثون بالأمور التاريخية حول هذا الموضوع قبل الاكتشافات الأثرية الحديثة المتعلقة بتدمر. البحث الآن مبني على النصوص وعلى الشواهد التاريخية، وعلى الأدلة وعلى اللغة وهذا شيء بعيد تماماً عما ذكر في الأسفار التوراتية حول بناء سليمان لتدمر. فهذا الكلام ليس له أي سند.

☆ **الأستاذ الدكتور عدنان البني ـ سورية:**

الحقيقة أن تدمر الواردة في التوراة هي تامار الواقعة على حدود فلسطين وليس لها علاقة بتدمر. وكل المباني الموجودة الآن في تدمر هي بعد سليمان بـــ 1200 سنة فلا علاقة له بها، وهذا تحريف جرى حين إعادة طبع التوراة حيث حرفوا تامار إلى تدمر. وفي شعر لنابغة الذبياني ورد هذا الشيء لأن البدو كانوا يظنون أن كل بناء عظيم هو من بناء جن سليمان.

☆ **الدكتور فوزي زيادين ـ الأردن:**

الاسرائيليون تاهوا في سيناء وأتاهوا الناس في التاريخ وفي متاهات التاريخ.

إن رواية بناء سليمان لتدمر تتلخص فيما يلي: كانت تدمر مشهورة في الوقت الذي كانوا يكتبون ـــ أي اليهود ـــ فيه التوراة، فأضافوا إلى تمر حرف الدال حيث أن في العبرية ليس هناك حركات، فصارت تدمر عوضاً عن تامار أو تمر. ولم يضيفوا هذا الحرف لتصبح تدمر، إلا من أجل أن يصادروا تدمر لصالحهم. ولكن ليس هناك أي علاقة لسليمان بتدمر وإنما بتامار الموجودة في صحراء النقب. أما عن دليل وجود مدينة تامار فهذا معروف في تاريخ فلسطين حيث بنى سليمان خمس مدن في جنوب فلسطين منها تامار. فسليمان لم يبنِ تدمر وهذه خرافة إسرائيلية متأخرة طبعاً.

☆ **البروفيسور جان ماري لوتنسورير ـ سويسرا:**

أنا مهتم جداً بما قبل التاريخ لهذا لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال ـــ هذا أكيد أن تدمر بنيت في الصحراء.. وهذا نقطة بداية ثم صارت مركزاً للقوافل. أنا شخصياً لا أملك المعلومات الكافية لإجابتك لأني لا أعمل في المدينة نفسها.

☆ **البرفيسور كوين لوتشلينكو ـ روسيا:**

هذا الموضوع ليس موضوعي فاختصاصي هو في حضارات وسط آسيا وأنا جئت لأرى تأثير البارثيين على تدمر. أنا آسف.

☆ **الأستاذ نسيب الصليبي ـ سورية:**

ليست هذه سوى أقاويل، وإن الحفريات الأثرية التي جرت في تدمر أثبتت ذلك. فالتدمريون كانوا معماريين وفنانين مهرة حتى تمكنوا من بناء هذا الصرح الحضاري الكبير. ولكن قول إن سليمان وجنّه بنوا تدمر فليس هذا سوى أقاويل.. فالذي بنى تدمر، بناها من الفترة من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى الفترة التي هاجم فيها أورليان تدمر عام 273 م ودمرها.

☆ **الدكتورة يسرى الكجك ـ سورية:**

لا يمكننا الربط فعلياً بين الأمور التي وردت التوراة وبين علم الآثار. لأن التوراة كتبت وعدلت وأعيدت كتابتها وفق مقتضيات وحاجات الشعب الذي تهمه هذه الكتابات، الآثار حقيقة وواقع وليس هناك أي رابط حتى بين المقولات التاريخية وبين الآثار. والأثر لا يستطيع أحد أن ينفيه، أما المرحلة التي كان يقال فيها أن التوراة قال كذا والمؤرخون يقولون كذا.. بحيث يتوجه كل واحد بحسب توجهاته السياسية والاجتماعية فقد انتهت. فعلم التاريخ الحديث يعتمد على الآثار لهذا لا نستطيع أن نتحدث عن التوراة من خلال أن سليمان بنى تدمر، فاليهود لهم أهداف وأغراض حتى أكثر مما يتحدثون عنها. وهم يحاولون ذلك من أجل أن تكون لهم قواعد في «أرض الميعاد» التوراتية ليستطيعوا لم شمل اليهود في العالم. لهذا أقول لا رابط بين التاريخ والتوراة ولا بين الآثار والتاريخ القديم.

☆ **الدكتور بهجت قبيسي ـ سورية:**

قطعاً لا.. فالقرن الثالث الميلادي هو بداية نهوض تدمر المعماري، وسميت الأعجوبة، وكلمة الأعجوبة هي مدلول على شكلها فلا يمكن أن نسمي شيئاً أعجوبة قبل بنائه. لذلك نسب البعض بعد ذلك إلى جن سليمان وسليمان بناء تدمر ولا صحة لهذا الادعاء بتاتاً.

☆ **الأستاذ محمد وحيد خياطة ـ سورية:**

يجب أن نميز دائماً بين الخيال والواقع، بين الوهم والتاريخ. تاريخياً لم يثبت حتى الآن أن لسليمان لأية علاقة ببناء تدمر. وكل ما قيل عن هذه

العلاقة مجرد أوهام وتخيلات، لا علاقة لسليمان ولا لجنّه بها. وهذا محض خرافة ولا يمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة.

أما عن تامار في فلسطين فلقد بحثت كثيراً أن أجد لسليمان ذكر خارج أسفار التوراة فلم أجد له أي ذكر، حتى ولا لأبيه داوود. لا تاريخياً ولا أثرياً. واسم داوود ذكر في الكتابات البابلية وهو اسم يدل على زعيم عصابة أو متمردين، ولا صلة له بالملك داوود التوراتي، ولا يمت إلى سليمان بصلة كما تذكر ذلك أسفار التوراة. فلا صلة بين ما ذكر في التوراة مع المصادر التاريخية خارج أسفار التوراة.

☆ البروفيسور سليم عبد الحق ـ سورية:

من المعلوم أن تدمر بنيت اعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن الثالث بعد الميلاد ومن المعلوم أن سليمان أتى قبل عشرة قرون أي في فاتحة الألف الأول قبل الميلاد. فكيف يمكننا تصديق هذا الخبر؟ هذا الخبر لا علاقة له بالحقيقة العلمية والتاريخية.

☆ البروفيسور جان كلود مارغرون ـ فرنسا:

صدر مؤخراً كتاب حول تدمر ويبدو أنه قد درس هذا الموضوع بكثير من الجدية.

☆ البروفيسور ميشيل غافليكوفسكي ـ بولونيا:

ليست هناك أية علاقة.. أية علاقة بين سليمان وتدمر، ولا يوجد أي اتصال.. أي اتصال تاريخي وواقعي بينهما. ولا يوجد سوى الرواية أو الأسطورة. ففي القرون الوسطى كان كل شيء كبير وضخم ومدهش مرتبط بسليمان هنا. حيث نسي الناس في تلك المرحلة تاريخ هذه المدينة.. وهذا ليس فقط في تدمر بل في مدن أخرى. وبكل الأحوال هذه ليست حقيقة تاريخية مطلقاً. على كل في الفترة التي كان فيها سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد كانت تدمر موجودة على شكل قرية صغيرة. وهذا الملك الذي كان يعيش بعيداً، لا أرى أي داعٍ يدفعه للمجيء إلى هنا.. ولا أعتقد أنه كان لديه ما يثير الاهتمام ليأتي إلى تدمر.

☆ **الدكتور جودت شحادة ـ سورية:**

ما قصده التوراة هل هو تدمر في بلاد كنعان /فلسطين/ ام تدمر في بلاد فارس؟ أشك أن سليمان بنى تدمر هذه.

☆ **الأستاذ حميدو حمادة ـ سورية:**

في الواقع إن تدمر ذكرت قبل سليمان، ذكرت في النصوص الكبادوكية الآشورية التي تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وهذا قبل سليمان، فسليمان لم يبنِ تدمر ومملكة سليمان هي مملكة صغيرة وأعطيت حجما كبيراً لأغراض ربما تكون سياسية، تدمر ذكرت أيضاً في نصوص ماري ولكنها ازدهرت في القرن الأول والثاني بعد الميلاد ازدهاراً كبيراً، بسبب التجارة ووقوعها على طريق القوافل، أما أن سليمان بنى تدمر فهذا أمر من قبيل الخرافة.

☆ **الدكتور فرانسوا فيلنوف ـ فرنسا:**

هذا يتعلق بتاريخ كتابة النصوص التوراتية لأنه لا يتعلق بالواقع الذي نراه، خاصة فيما يتعلق بالتنقيبات الأثرية. من الممكن أن هذا يعود إلى تحويرات أجريت أثناء إعادة تدوين التوراة المتكرر، مما ادى إلى تغييرات في اسم المدينة. فحسب التنقيبات يبدو أنه لم يكن هناك سكن في هذه المنطقة في القرن العاشر قبل الميلاد ــ زمن سليمان.

يجب اعادة النظر، بأن تدمر، هل هي هذه المقصودة في التوراة؟ نحن الآن نظن بأن الأمر يتعلق بمدينة أخرى موجودة في فلسطين وهي تامار.

☆ **البروفيسور نقولا زيادة ـ لبنان:**

دوماً الأشياء الغريبة والعجيبة تنسب لواحد كبير.. تدمر عجيبة وغريبة فيجب ان تنسب لواحد كبير. مثلاً خزانة فرعون في البتراء لا علاقة لها بفرعون لماذا سميت كذلك؟. فالناس حين تجد مثل هذه الخزنة المحفورة بالصخر فلا بد أن تعزوها لواحد كبير، ومن كان في تلك الفترة أكبر اسم.. إنه فرعون.. وهكذا.. وهذا ينسحب على تدمر ولا بد أن يكون من بناها واحد عجيب وكبير له قدرات خاصة واستثنائية. فسليمان عنده

جن وبيحكي معهم.. فتدمر التي وسط الصحراء يجب أن يبنيها ويرفع هذه الأعمدة فيها هذا الكبير، وسليمان هو شيخ الجن فإذن يأتي النابغة الذبياني ويطرقه ببيتين شعر.. وهكذا لزقت تدمر بسليمان. ومشيت هذه الحكاية مثل ما بتمشي قصة «جيمس بوند». فبحسب رواية التوراة ـــ وهذا ليس تاريخياً ـــ هذا القول لا يمت للحقيقة العلمية وغير العلمية بصلة، وهو يعود للفكرة الأصلية أن الناس لما وجدوا هذه الأبنية الضخمة أرادوا أن يفسروا بناءها في هذا المكان.

☆ من هم الناس؟

أي ناس، ممكن يكونوا بدو الجاهلية، ويمكن قبلهم، لأن سليمان كان معتبراً عندهم شيء مهم، واختيار سليمان ناتج عن قصة متداولة بين الناس من أن له قدرات خارقة وسيطرة على الجن.

أليست لها خلفية سياسية ـــ توراتية؟

يجوز أن يكون لها خلفية.. ولكن أسطورية، اترك لي التوراتية.. بدها تكون خلفية أسطورية.. لو ما في أسطورة حولها «ما كانت اجت».

☆ الأستاذ الدكتور فيصل عبد الله ـ سورية:

أنا لا أجرؤ حتى ذكر هذا السؤال، لأنه قد يثبت لدى القارئ معلومة، وهي أن سليمان له يد في بناء تدمر. فالتاريخ والآثار شيء، والروايات التي مصدرها الكتب الدينية شيء آخر. كل الحفريات في تدمر لا تدل على أي شيء من هذا القبيل، وكل المعلومات التي وردت في التوراة، والتي تتعلق بالمدن حتى وهيكل سليمان ومملكته، تحتاج إلى إثبات من خارج التوراة، ولذلك كل هذا يبقى من باب الرواية الدينية التي تحتاج إلى تصديق من قبل شواهد أخرى من خارج التوراة وهذا ينطبق على كل ما جاء في التوراة، ونحن لا نقيم وزناً في مجال البحث العلمي، أو في مجال النقد التاريخي، لمثل هذه الأقوال إلا إذا توافرت الشواهد الأثرية.

☆ البروفيسور ديفيد غراف ـ الولايات المتحدة الاميركية:

لا أعرف أي شيء.. لا أعرف أي شيء عن هذه القصة!!

☆ **الدكتور عيد مرعي ـ سورية:**

هذا لا يتعلق بتدمر المدينة المعروفة في بادية الشام، والمقصود هو تامار المدينة الصغيرة التي تقع في شمال فلسطين. والتشابه اللفظي بين تدمر وتامار، هو الذي أوحى لبعض المؤرخين الذين اتوا فيما بعد أمثال يوسيفوس وغيره، إلى القول أن تدمر من بناء سليمان. يضاف إلى ذلك أن الحجارة الكبيرة والضخمة الموجودة حالياً، والتي يدل وجودها على قيام عمارة كبيرة، أوحى للبعض بأن بناءها يعود لجن سليمان كونه يتمتع بقدرات خارقة كما تذكره التوراة، ولكن الوثائق التاريخية تثبت عكس ذلك.

من ناحية أخرى فإن تاريخ مدينة تدمر يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، واقدم الوثائق التي تذكرها تعود إلى 1900 قبل الميلاد، فلو قارنا هذه الحقائق مع الخبر التوراتي الذي يقول أن سليمان بنى تدمر في القرن العاشر أو التاسع الميلادي، لوجدنا أن هناك تناقضاً واضحاً، فكيف يمكن أن يبني سليمان مدينة كانت موجودة قبله بآلاف السنين. لهذا فنسبة بناء تدمر إلى سليمان غير صحيحة وهو من الأخطاء الشائعة التي يتداولها الناس حالياً.

☆ **البروفيسور جان لوكلان ـ فرنسا:**

هذا صحيح ــ هكذا اعتبروا.. والسؤال ما هو تاريخ كتابة هذا النص؟ ربما هذا يحس! ولكن تاريخ تدوين هذا النص هو السؤال المطروح. وهذا ليس كما أعتقد من أجل رفض التوراة، ولكن الأمر ببساطة يتعلق بتاريخ كتابة هذا النص. على كل، الأبحاث حول تدمر ممكن أن تعود إلى 2000 ق. م وهذا نجده في المدونات الآشورية وماري وغيرها.. وهذا يفتح آفاقاً جديدة للمزيد من الدراسات. فالآثار الآن فقط ترينا تدمر في العصر الروماني وفي عصر زنوبيا. ولا نعرف أن هناك أموراً تتعلق بمطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

☆ **البروفيسورة أنـا سادورسكا ـ بولونيا:**

هذه فكرة مغلوطة تماماً، ونحن لا نعلم كيف ركّبت وألفت. فسليمان

ليس له علاقة بتدمر. ولم يعمرها. وأعتقد أن الآرامية التي كتبت بها التوراة، قصدت مدينة «داموررا» أو «تادمور». وفي اللغات السامية، من الصعب أن تجد الاسم الدقيق. أما أين تقع تامورا فلا نعرف، ولكن دون شك هي ليست تدمر هذه. وتدمر لا علاقة لها بسليمان ومثل هذا نجده حين قيل أن المعبد الكبير في بعلبك بناه سليمان أيضاً.

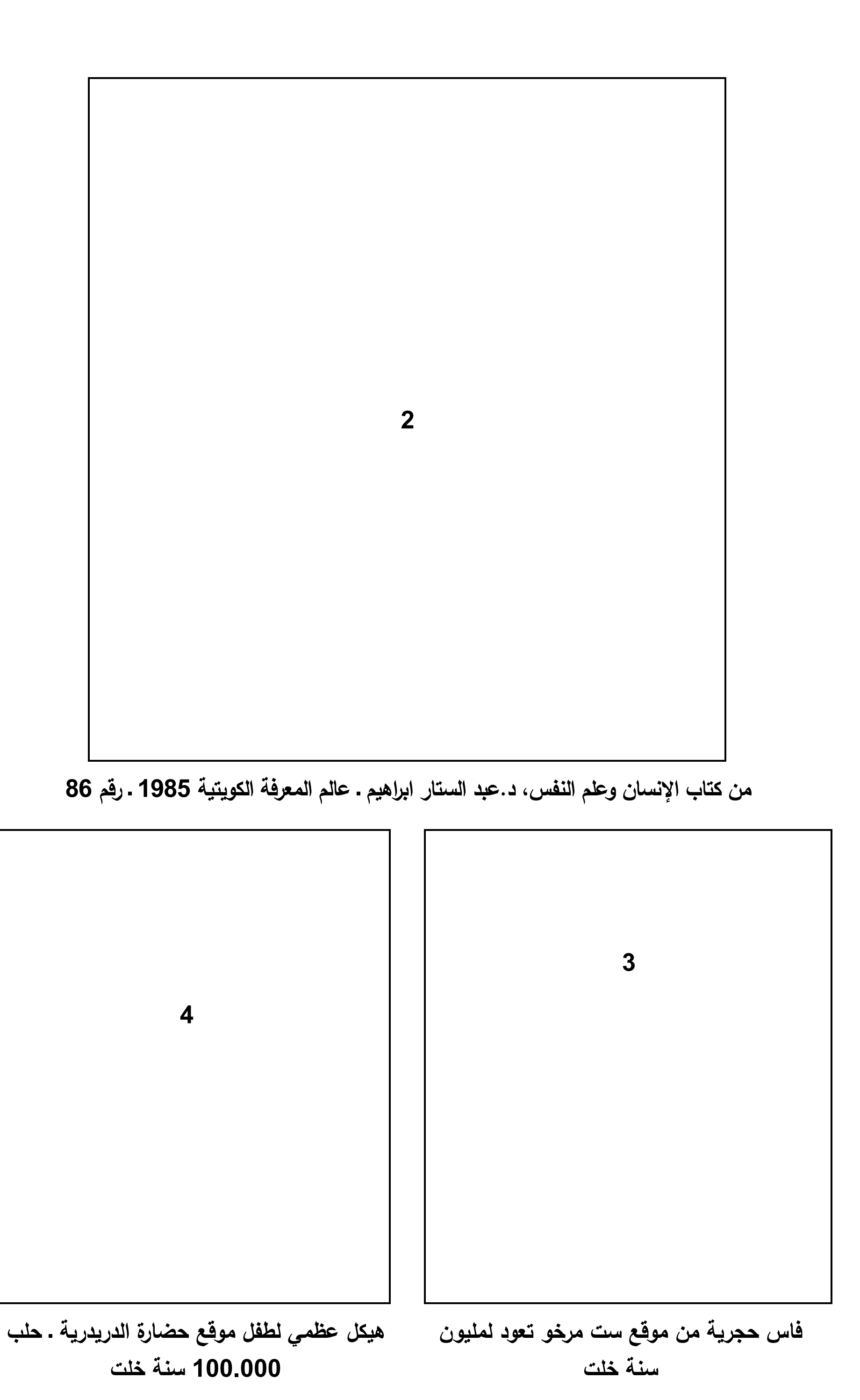
ملحق الصور

1

أهم مواقع العصر الحجري والحديث في المشرق

1ً

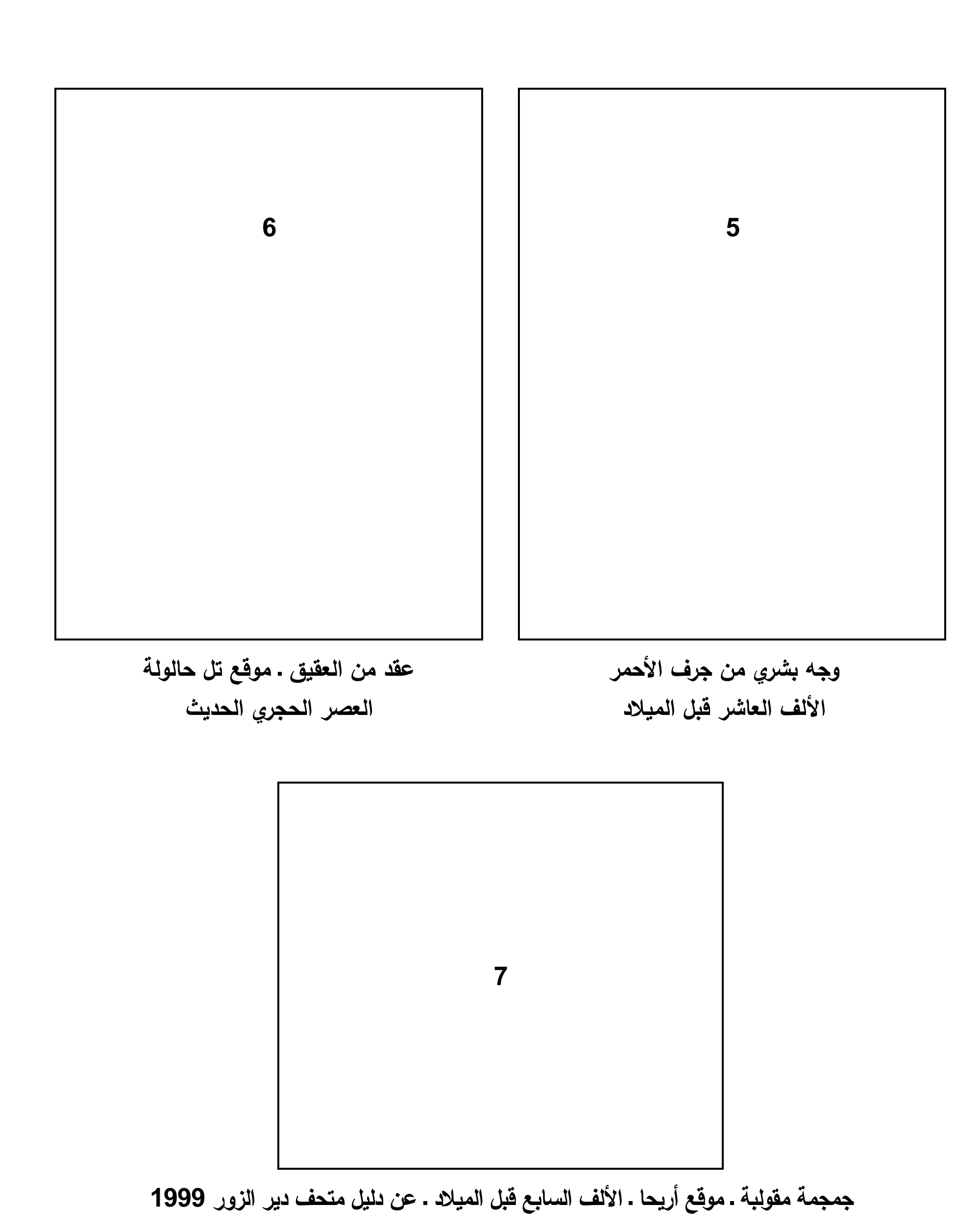
أهم مواقع العصر الحجري القديم في المشرق العربية . محمود سلطان عيسى 1989



من كتاب الإنسان وعلم النفس، د.عبد الستار ابراهيم . عالم المعرفة الكويتية 1985 . رقم 86

فاس حجرية من موقع ست مرخو تعود لمليون سنة خلت

هيكل عظمي لطفل موقع حضارة الدريدرية . حلب 100.000 سنة خلت


6

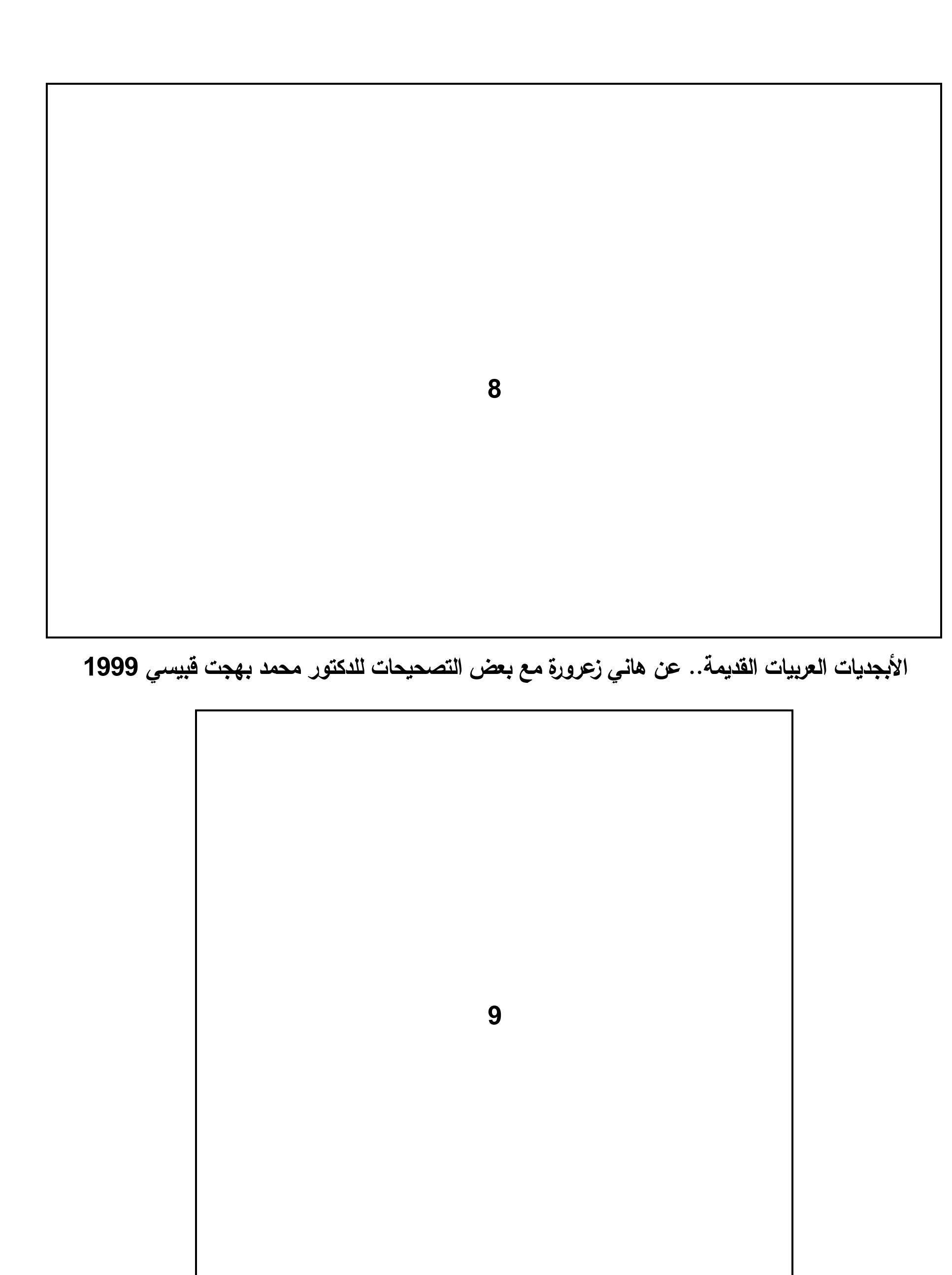
5

عقد من العقيق . موقع تل حالولة
العصر الحجري الحديث

وجه بشري من جرف الأحمر
الألف العاشر قبل الميلاد

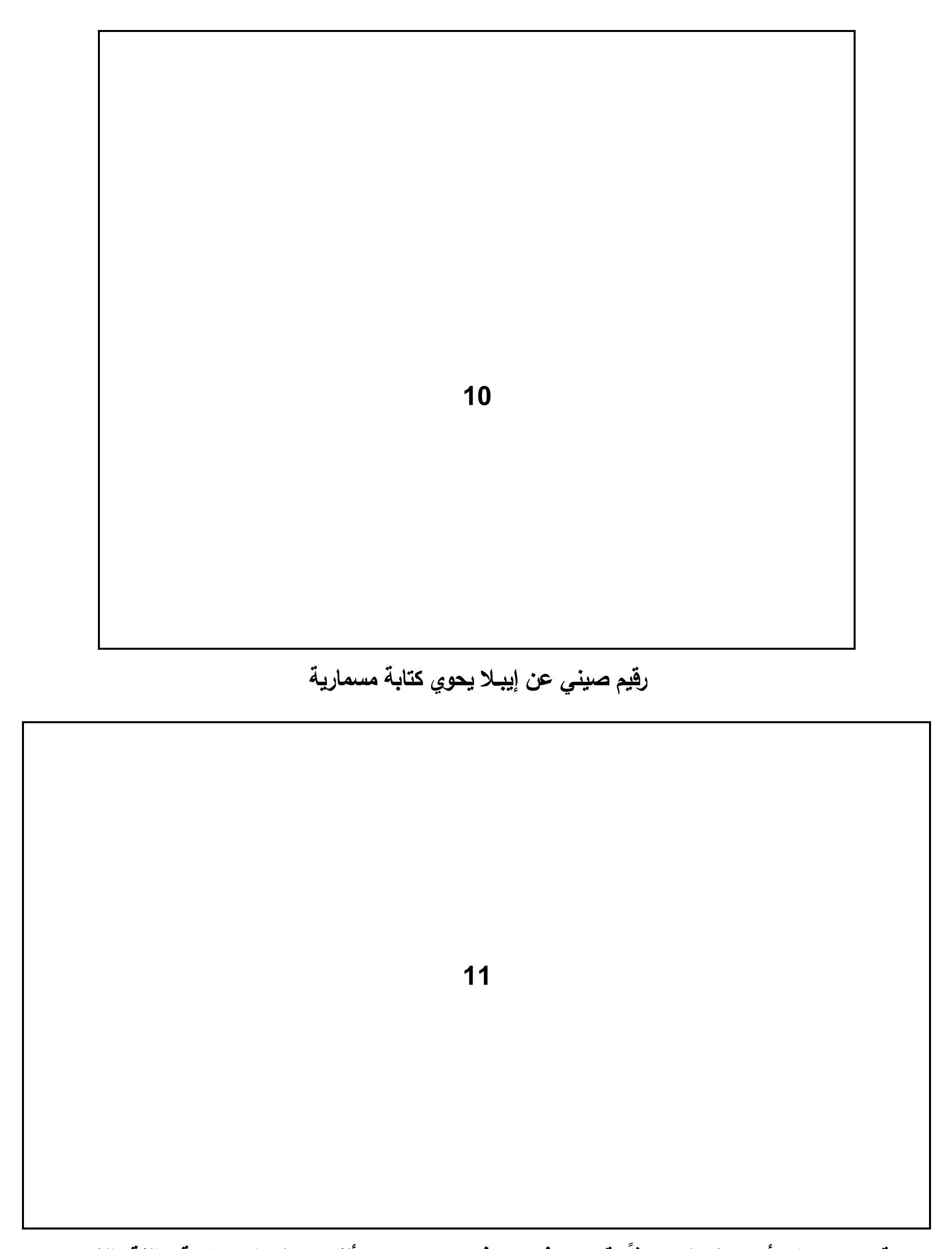
7

جمجمة مقولبة . موقع أريحا . الألف السابع قبل الميلاد . عن دليل متحف دير الزور 1999



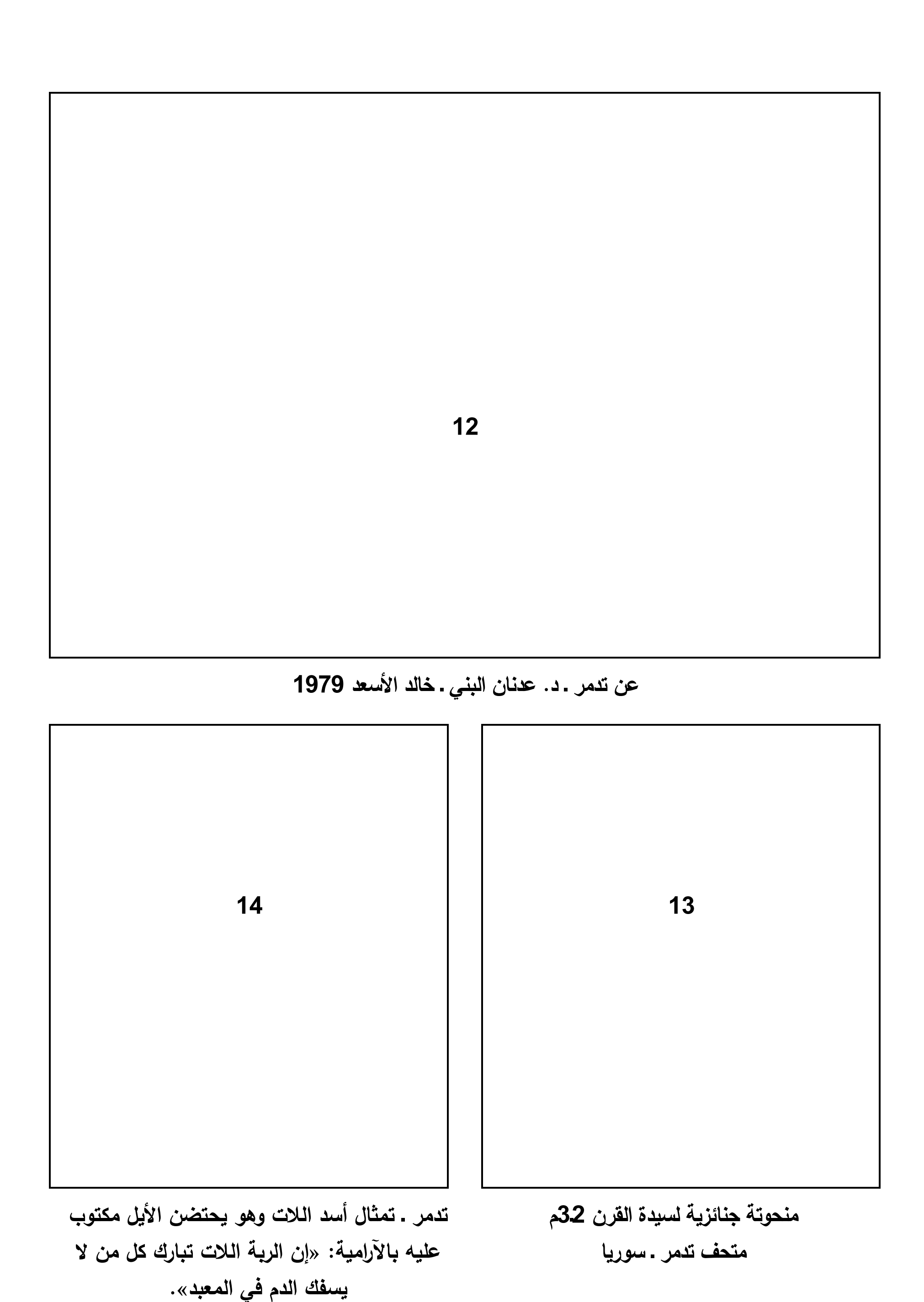
الأبجديات العربيات القديمة.. عن هاني زعرورة مع بعض التصحيحات للدكتور محمد بهجت قبيسي 1999

تطور الكتابة عبر العصور ـ عن د. سلطان محيسن 1994



رقيم صيني عن إيبـلا يحوي كتابة مسمارية

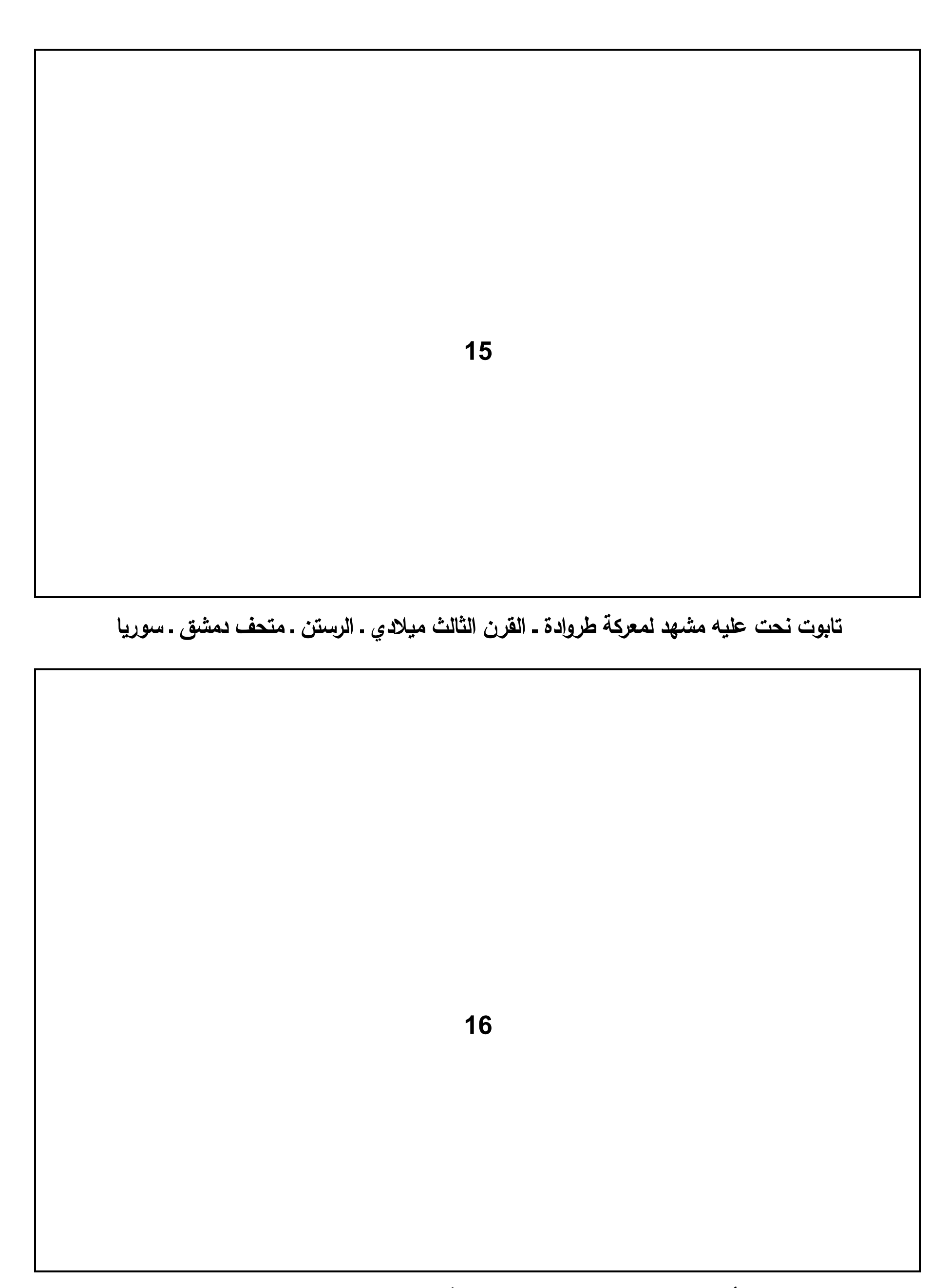
قسم من كتاب أعيد تشكيله حديثاً وقد وجد في بئر في نمرود وهو يتألف من لوحات عاجية مغلفة بالشمع ومزودة بمفاصل من أجل تحريك صفحاته. ولقد أعطي الشمع لوناً قاتماً لجعل القراءة أكثر سهولة. أبعاد كل لوح: (33.8×15.6) سم. (عن مالوان، 1966). عن آثار بلاد الرافدين 1993



عن تدمر . د. عدنان البني . خالد الأسعد 1979

منحوتة جنائزية لسيدة القرن 3.2م
متحف تدمر . سوريا

تدمر . تمثال أسد اللات وهو يحتضن الأيل مكتوب عليه بالآرامية: «إن الربة اللات تبارك كل من لا يسفك الدم في المعبد».



تابوت نحت عليه مشهد لمعركة طروادة ـ القرن الثالث ميلادي . الرستن . متحف دمشق . سوريا

نموذج طيني أثري يمثل البيت السوري القديم في الألف الثالث ق.م عثر عليه في ماري . سوريا

د. عفيف بهنسي 1987

17

أبجدية أوغاريت أول أبجدية في العالم
القرن 14 ق.م.
أوغاريت (رأس شمرا) متحف دمشق . سوريا

18

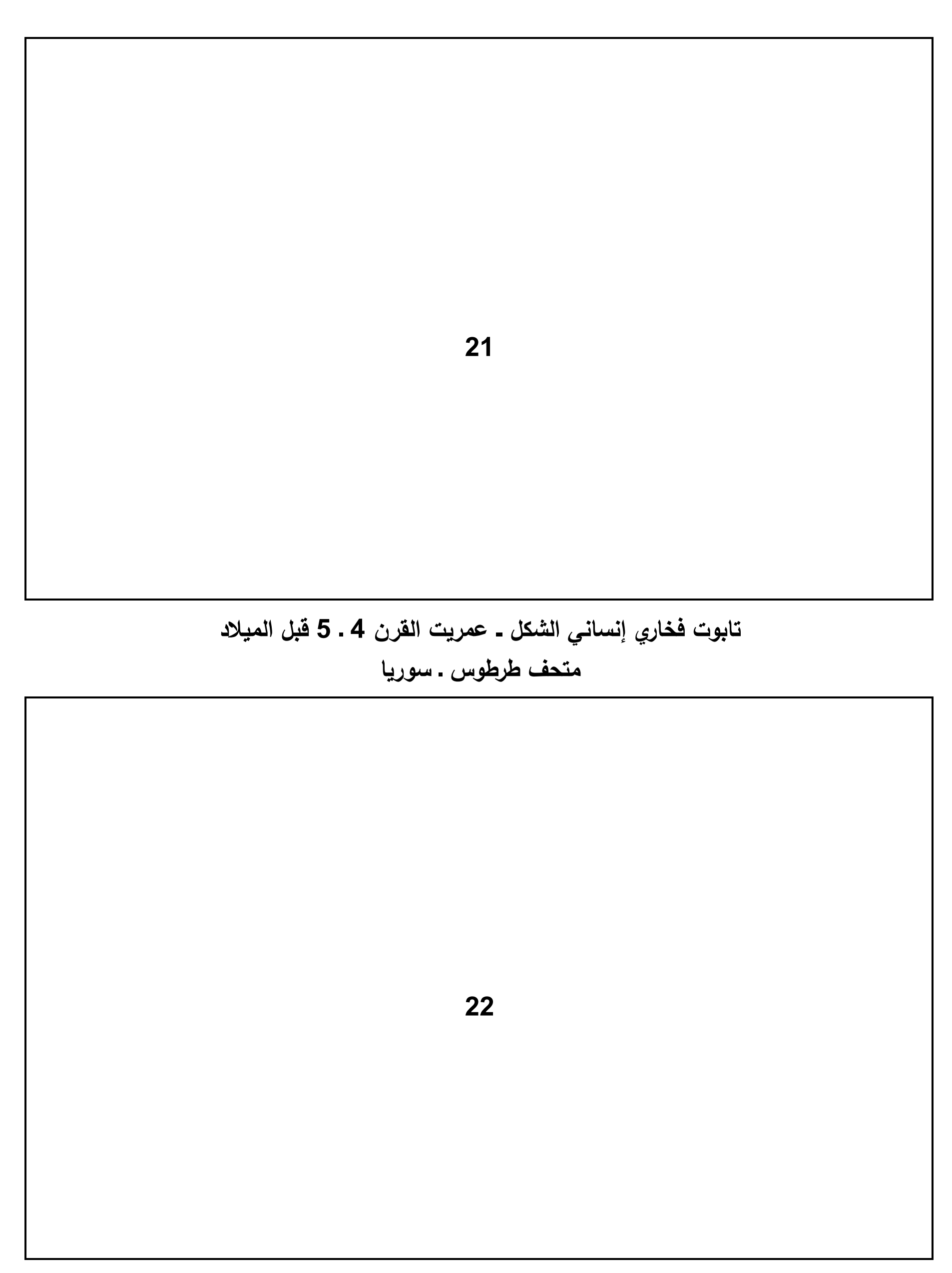
أبو الهول المجنح
القرن التاسع ق.م.
حداتو (أرسلان طاش) . متحدف حلب . سوريا

19

مدفن من الألف الثالث ق.م
يحوي هيكلين عظميين
لامرأتين تل أمر المرة

20

قبر إناء مزدوج
عن تل الشيخ حمد
100 . 200م عن دليل
متحف دير الزور 1999



تابوت فخاري إنساني الشكل ـ عمريت القرن 4 . 5 قبل الميلاد

متحف طرطوس . سوريا

تابوت رخامي إنساني الشكل . عمريت القرن 4 . 5 قبل الميلاد

متحف طرطوس . سوريا

الفهرس

☆ المقدمة 7

الدراسة الأولى

● مقدمة في نشوء حضارة المشرق العربي 13
● ثقافة الإنسان المنتصب في سورية 1000.000 ـ 100.000 سنة 20
● ثقافة مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم 100.000 ـ 40.000 سنة 24
● ثقافة المجتمعات العاقلة في المشرق العربي القديم 35.000 ـ 12.000 27
● التطور الثقافي ـ الحضاري من 12.000ـ8.000 ق.م 29
● ابتكار الزراعة: الألف التاسع قبل الميلاد 33
● دور الزراعة في نشوء الكتابة في طورها الابتدائي 44
● الهوامش 48
● مراجع البحث 51

الدراسة الثانية

● اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم 53
● مراحل اختراع الكتابة 55
● الكتابة الأبجدية 59
● انتشار الأبجدية السورية 59
● تراثنا الكتابي واللغوي بين الاستشراق ومحاولات التهويد 63
● الاستشراق في دائرة الاتهام 46
● المدرسة التوراتية في الآثار والتاريخ وتراثنا الكتابي واللغوي 67
● الهوامش 74

الدراسة الثالثة

- مقاربة فكرية ـ تاريخية لروحية وخصائص حضارة المشرق العربي القديم نموذج تدمر 79
- البنية الديمغرافية في تدمر 84
- تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى 2000 ـ 1600 ق.م 86
- تدمر في العصر السلوقي 333 ـ 63 ق.م 89
- تدمر والامبراطورية الرومانية 63 ق.م ـ 273 م 92
- خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي 95
- ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى 98
- اليهود وتدمر 102
- الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى 103
- تدمر وعصر الملوك التدامرة 106
- مصير زنوبيا 112
- الهوامش 115
- مراجع البحث 118

الدراسة الرابعة

- مقاربة فكرية تاريخية للبعد الإنساني في حضارة المشرق العربي القديم 119
- البعد الإنساني لحضارة المشرق العربي 40.000 ـ 3500 ق.م 123
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 3500 ـ 333 ق.م 126
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 333 ـ 69 ق.م 135
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 69 ق.م 138
- إسهام السريان المشرقيون في الحضارة الإنسانية 144
- الهوامش 147
- المراجع 150

الدراسة الخامسة

- شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم 151
- النينانرتال المشرقي 100.000 ـ 40.000 ق.م 153
- الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم 40.000 156
- مقاربة نفسية ـ أنثروبولوجية لظاهرة الأرواحية 160
- استنتاجات 162
- ظاهرة الموت ومعتقداته في العصور التاريخية 163
- شعائر الموت في إيبلا 170

● شعائر الموت في أوغاريت 172
● شعائر الموت عند الآراميين 174
● الهوامش 176
● المراجع 179
● ملحق الدراسة الثالثة 180

الدراسة الخامسة

شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم

ثمة شيئان لا يمكن للمرء أن يحدق فيهما، الشمس والموت، والموت ضمن المنظور الإنساني يبدو أنه غير محبذ، لا بل يتم تجاهله كونه يشكل مصدر الخوف من المجهول. ومعلوم أن للخوف أذنين كبيرتين وعينين أيضاً.

ولعل أول صدمة جابهت الإنسان في وجوده على الأرض /لاسيما حين تطور القشرة الدماغية والقسم الطرفي من الدماغ/، هي صدمة الموت، ولم يكن هذا ليتحقق لولا توافر مجموعة من الاشراطات والمعادلات الفيزيولوجية والبيولوجية، على صعيد الدماغ الإنساني والجسد البشري، ثم تداخلات المناخ والبيئة الطبيعية.

والموت همّ فردي، وتجمّع الهموم الفردية أدى إلى نشوء هموم للتجمعات الإنسانية القديمة، ولكن مع تقدم عمل الدماغ وتطوره ومن ثم نشوء المجتمعات الأولى، لم يكن ثمة هم مجتمعي من الموت، لأن المجتمعات تبقى بينما الأفراد يزولون. وبذا صار المقياس الأوحد في دراسة المجتمعات وظواهرها، هو مدى انعكاس حياة الفرد في الجماعة، ومدى انتمائه لها، وبذا يستمر المجتمع ويزول الأفراد، ولا يبقى منهم إلا ما قدّموه للمجتمع من تطوير وإبداع. ولعل قمة الإبداع تكمن في التضحية من أجل المجتمع.

وبهذا يصير الموت في المستوى الاجتماعي، ليس نقيضاً للحياة بل جزءاً منها. ولعل الانشغال بظاهرة الموت، اقتضى مرور ملايين السنين من الوجود البشري على الأرض، حتى غدا دماغ الإنسان قادراً على وعي هذه الظاهرة، واستنباط الحلول التعويضية /لا شعورياً/ تجاهها. وهذا ما سنحاول رصده من خلال تاريخ الوجود البشري في المشرق العربي القديم، والذي

يرقى إلى حوالي المليون سنة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الوثائق هنا /لعدم وجود الكتابة بعد/ تعتمد على اللقى والأدوات التي تركها ذلك الإنسان القديم، بالإضافة إلى بعض البنى والكثير من المدافن والقبور ومحتوياتها، ولاسيما مع ظهور إنسان النياندرتال (100000) سنة.

ظهور الإنسان على الأرض وفي المشرق العربي القديم:

حددت دراسات علوم ما قبل التاريخ وجود الإنسان على الأرض بحدود ثلاثة ملايين سنة من الآن. وذلك في أفريقيا «هذا حتى الآن». أما في المشرق العربي فدلائل أول وجود إنساني تعود إلى حوالي مليون عام «سلطان محيسن» (1) وبعضهم يعيدها إلى مليون ونصف المليون عام «زيدان كفافي» (2) وأيضاً هذا حتى الآن.

وتذكر الدراسات أن الإنسان القديم الذي أتى إلى المشرق العربي جاء عبر طريقين من أفريقيا:

الأولى: ساحلية على امتداد البحر المتوسط.

الثانية: على طول الإنهدام السوري ـــ الافريقي الممتد من جنوب وشرق أفريقيا مروراً بالبحر الأحمر ثم وادي عربة ثم وادي الليطاني فوادي العاصي شمالاً. (3)

وحتى الان يبدو أن أقدم آثار لإنسان ماقبل التاريخ خارج أفريقيا عثر عليها في سورية، في موقع «ست مرخو» قرب اللاذقية. كما عثر على آثار لهذا الإنسان في موقع خطاب قرب حماة على العاصي وموقع العبيدية في فلسطين الذي يؤرخ بحدود 700.000 سنة حيث عثر هنا على أجزاء من هياكل عظمية إنسانية هي الأقدم في المشرق العربي.

كانت حياة ذلك الإنسان تعتمد على الصيد والتقاط الثمار، وكان يتنقل خلف مصادر غذائه الحيواني والنباتي. ولم يكن ثمة خصوصية حضارية، بل أن صفات إنسان تلك المرحلة كانت متقاربة في كل أنحاء العالم. وفي موقع اللطامنة في سورية والذي يؤرخ بحدود 500.000 سنة عثر على دلائل مبكرة لاستعمال النار والشروع في البناء. وباطراد كانت تلك

التجمعات الإنسانية تتطور، وكانت تعتبر نفسها جزءاً لايتجزأ من الطبيعة، لا بل أن إنسان تلك المرحلة كان يظن نفسه أنه واحد من خصائص الطبيعة، وهذا لم يكن إلا نتيجة لعدم تطور الدماغ لديه ولاسيما قشرته الدماغية. ما اقتضى مرور مليونين وتسعمئة ألف سنة على صعيد الإنسان الأفريقي، وتسعمئة ألف سنة على إنسان المشرق العربي كي تحصل طفرة في بنيته الدماغية تدفعه نحو الأمام في وعي ظاهرة الموت لأول مرة منذ وجوده على الأرض. وما قبل لم يقدم الدماغ له أوليات الدفاع عن موتاه فتركهم نهباً للوحوش المفترسة والجوارح، حتى كان تطور الإنسان القديم المنتصب إلى إنسان النياندرتال، وذلك في حوالي 100.000 سنة حيث يؤكد فرنسيس أور «أن بلاد الشام تشكل مكاناً أصيلاً لإنسان النياندرتال». (4)

النياندرتال المشرقي 100.000 ـ 40.000 سنة: مقاربة أنثروبولوجية:

تدل الأبحاث العلمية البيولوجية والفيزيولوجية، على أن دماغ الإنسان يتألف من ثلاثة أقسام: القشرة الدماغية والقسم الحوفي والدماغ الزواحفي. أما المظاهر العاطفية والدينية فهي من اختصاص القسم الحوفي، في حين أن القشرة الدماغية تعنى بفعل الإدراك، ومعلوم أن القشرة الدماغية تؤلف ــ حسب كارل ساغان ــ حوالي 90% من دماغ الكائنات الحية. (5)

لهذا فحين نرصد ظاهرة وعي الموت عند مجتمع النياندرتال، فإننا لابد واقعون على حقيقة أن ثمة تطوراً حصل في القسم الحوفي والقشرة الدماغية. ويؤكد ساغان على أن حياة الصيد والالتقاط لدى الإنسان القديم والحضارة التكنولوجية لدى الإنسان المعاصر هما من نتاج القشرة الدماغية(6). وقد دلت الأبحاث العلمية أيضاً لدى دراسة الجانب الداخلي لجمجمة إنسان النياندرتال، إلى أن التناسب القائم بين مختلف أجزاء المخ يجعل الإمكانات العقلية عنده قريبة من مثيلتها عند الإنسان العاقل، الذي تطور في المشرق العربي حوالي 40.000 سنة عن سلفه النياندرتال(7). والمعلوم أن الإنسان العاقل السوري هو جدنا المباشر أما الجد البعيد فهو إنسان النياندرتال. وعلى هذا يمكننا القول

مع ساغان أن سلوكنا نحن الآن لا يزال واقعاً إلى حد كبير تحت سيطرة ماورثناه عن أسلافنا. [8]

لا بل أن كارل غوستاف يونغ رائد علم النفس التحليلي يركز في طروحاته على «أن لاشيء يدل على أن ذلك الإنسان يفكر أو يشعر أو يدرك بطريقة تختلف اختلافاً أساسياً عن طريقتنا في التفكير أو الشعور أو الإدراك،[9] فأداؤه النفسي هو جوهرياً أداؤنا نفسه ولا يختلف عنا إلا في مسلّماته الأولية».

ويؤكد أيضاً أن ذلك الإنسان /النياندرتال ثم العاقل/ ليس وحده الذي يمتلك سياقات نفسية قديمة، وإنما إنسان عالم اليوم المتمدن الذي بدوره يكشف عن هذه السياقات النفسية القديمة، دون أن تكون هذه السياقات مجرد ارتدادات متفرقة أتت على الإنسان الحديث من صعيد الحياة الاجتماعية.

ويصل يونغ للقول: كل إنسان متمدن مهما بلغت درجة نمو وعيه، لم يزل إنساناً قديماً في الطبقات السفلى من كيانه النفسي. فكما أن الجسم البشري يوصلنا بالثدييات ويكشف لنا عن بقايا كثيرة من تطور مراحل أولية ترجع إلى عصر الزواحف، فكذلك النفس البشرية نتاج تطور إن تابعنا أصوله تكشّف لنا عن عدد لاحصر له من السمات القديمة.

مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم 100000 سنة خلت:

عاش النياندرتاليون في المشرق العربي في الكهوف والمغائر واستطاعوا أن يكيفوها حسب احتياجاتهم وحوائجهم، كما استخدموا النار وصنعوا الأسلحة الصوانية ومارسوا الصيد عبر رجالهم، أما نساؤهم فكن يلتقطن لبذور والثمار والجذور الصالحة للطعام، كما كن يصنعن الملابس من جلود الحيوانات.

وقد أدى تطور البنية الدماغية لديهم إلى وعي لظاهرة الموت، لا بل أضحى مشهد موت إنسان يدهشهم عبر انتقاله المفاجئ من كائن مدرك وواعٍ، دافئ وممتلئ بالحيوية، إلى جثة ساكنة وباردة وشاحبة وقابلة

للتعفن، مما أصابهم بالصدمة الأولى، وهذا ما دفعهم إلى مواراة الجثة في التراب، وإجراء الدفن المتعمد والإرادي، لأول مرة في تاريخ الوجود البشري. وقد بدا أن التطور الروحي الذي بلغه إنسان النياندرتال تجاوز ما بلغه في الحياة الاقتصادية [10]. وأدت التنقيبات الأثرية إلى العثور على مواقع نياندرتالية عدة في المشرق العربي ولعل أهمها:

موقع مغارة الديدرية قرب حلب:

يؤرخ هذا الموقع بحدود 100.000 سنة حيث عثر فيه على حوالي 70 قطعة عظمية بشرية تعود لهياكل نياندرتالية مختلفة.

وفي مطلع التسعينيات، تم العثور على هيكل عظمي لطفل عمره سنتان وطوله 82 سم حيث دفن في حفرة مستلقياً على ظهره، أما يداه فممدودتان وقدماه مثنيتان وعثر تحت رأسه على بلاطة حجرية كما على صدره فوق قلبه ويعود تأريخه إلى حوالي 100000 سنة. وفي عام 1997 عثر على هيكل عظمي لطفل ثانٍ بالعمر نفسه، وقد دلت طرق الدفن على أسلوب منظم ومدروس ويرقى إلى حوالي 80000 سنة، وهذا الكشف المهم يمثل حتى الآن أقدم عملية دفن للموتى في التاريخ البشري. وفي فلسطين عثر في مغارة قفزة على مقبرة بشرية تحوي 12 جثة نياندرتالية أرّخت بحدود 50.000 سنة وكانت الجثث لـ 6 أموات كبار و7 أطفال. وأهم ما عثر عليه فيها، والذي يعني دلالة لها معناها الاجتماعي والروحي، هو قبر امرأة شابة مستلقية على جنبها الأيسر ومثنية الرجلين والى جانبها طفلها الواضع رأسه على صدرها في حين كان بين يديه غزال /رمز الخصب/.

ويبدو أن هذا يدل على وجود مفهوم للأسرة عند النياندرتاليين وهذا ما سيتوضح أكثر في موقع سبق هذا الموقع بحوالي عشرة آلاف سنة، أقصد موقع شانيدار في العراق والذي يؤرخ بحدود60.000 سنة فقد عثر في الكهف على هيكل عظمي لرجل نياندرتالي في الأربعين من عمره، وبدا من الفحص العلمي أنه يعاني منذ طفولته من شلل نصفي كما أنه أعور ويعاني من التهاب في المفاصل، ويبدو أنه مات في شهر حزيران.

والطريف في الأمر أن أمراضه لم تمته، ولكن الذي قتله سقوط صخرة من سقف الكهف عليه.

إن الدلالة الروحية ــ الاجتماعية لدى هذا الإنسان تشير إلى مبلغ العناية التي أحيط بها وهو المشلول والأعور. ويتبدى ذلك أكثر في أن أهله فرشوا قبره بالورود، دلّ على ذلك تحليل حبات الطلع.

وفي كهف السخول في فلسطين عثر على هياكل عظمية في مقبرة جماعية تراوحت أعمار موتاها بين 3 ــ 50 سنة. ولوحظ أنه لم يوجد مرفقات جنائزية مع الموتى إلامع أكبرهم سناً، حيث كان يقبض بيده على عظم فك علوي لخنزير بري. /وربما يدل هذا على وجود أو تبلور بداية مفهوم للسلطة أو القيادة عند النياندرتاليين/. ولوحظ أن مدافن الرجال والأطفال عندهم تفوق مدافن النساء.

ويعج المشرق العربي بمواقع نياندرتالية مثل موقع الكبارا، وعدلون ويبرود وكهف الدوارة وجرف العجلة وأم التلال ومغارة العصفورية شمال بيروت.

ويبدو أن بنية الدماغ كانت آخذة بالتطور، ما دفع الإنسان النياندرتالي في أواخر عهده يتجه في المشرق العربي نحو التطور إلى الإنسان العاقل /لا سيما في فلسطين/، جدنا المباشر، وذلك في حدود 40.000 سنة. [11]

الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم 40.000 سنة خلت:

نحن الآن أمام جدّنا المباشر وجهاً لوجه، فهو يمتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي. فطرداً مع تطور بنيته الدماغيه، وحجم دماغه، تطورت أساليب عيشه، وتطورت حياته الروحية والاجتماعية والاقتصادية. ويبدو أنه صار يفهم الطبيعة أكثر، فهو جزء منها ويحاول الانفكاك عنها عبر السيطرة عليها.

كل هذا أدى إلى تطور في مناحيه الروحية وبالتالي المعتقدية والفنية، وبقي صياداً ولاقطاً مع تبلور إحساس اجتماعي أقوى من سلفه.

أما شعائر الموت لديه فقد استمرت على ما كانت عليه عند سابقه، مع

ميل للعناية بشكل واضح بالموتى، دلّ على ذلك أن المرفقات الجنائزية ازدادت وطرق الدفن أصبحت أكثر تعقيداً، فقد بقي يدفن موتاه داخل الكهوف، في وضعية القرفصاء، ويبدو أنه اتجه لدفن الأموات قرب المواقد «كما كان يفعل النياندرتال»، /ربما لأن برودة الجثة دفعته لتدفئتها عسى أن تعود إلى الحياة/. كما أن طريقة الدفن كما /وضعية الجنين/، ذكرّت بعض الباحثين أن لدى الإنسان العاقل ميل روحي، لاعتبار أن الدفن الجنيني هذا ربما يعيد الميت إلى الحياة كون أن الأرض رحم!!.

لكننا نستبعد مثل هذا الاعتقاد لدى الإنسان العاقل.. ونميل للأخذ باعتبارات أن مساحة الكهف هي التي حددت وضعية الدفن الجنيني، أو أخذ جثة الميت هذه الوضعية بشكل طبيعي، ربما نتيجة لموت طبيعي وما إلى ذلك.

ولوحظ أيضاً أن الجثث بدأت تطلى بالمغرة الحمراء، ونعتقد أن هذا يدخل في مجال التعويض عن الشحوب الذي يعتري الجثة. وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية على قبائل بدائية تعيش في أفريقيا حتى الآن حيث ظهر أنهم مازالوا يصبغون الجثث بهذه المغرة لاعتقادهم أنها علامة الحياة. (12)

ولوحظ أيضاً أن لدى الإنسان العاقل بدأ يتشكل إحساس الرهبة من الموت، وقد دل على ذلك أنهم كانوا يضعون أحجاراً ضخمة على أيدي الميت وأقدامه وصدره، ربما كي لا يستطيع القيام والعودة إلى الحياة وبالتالي إيذاء الأحياء. وهذا ما أكدته الأبحاث الأنثربولوجية التي جرت على قبائل بوبواس في غينيا الجديدة، حيث لوحظ أنهم كانوا يضعون الحجارة الكبيرة على رأس الميت وصدره وأقدامه.

ومن مواقع الإنسان العاقل في المشرق العربي هناك كهف الواد ـــ قفزة ـــ عرق الحمر ـــ الكبارا ـــ مصطبة الخيام ـــ كهف الأميرة ـــ كسار عقيل ـــ انطلياس ـــ يبرود ـــ الكوم ـــ وتدمر.

وفي حوالي 12000 تعتدل البيئة والمناخ بشكل يتماشى مع تطور

مجتمعات الإنسان العاقل، ويزداد مردود الثروات الطبيعية، وتبدأ تلك المجتمعات تبني قراها نصف المستقرة ومع هذا فلم تغادرالكهوف نهائياً. وبقيت أساليب الدفن متواصلة على ما كانت عليه، مع ميل نحو ظهور مظاهر دفنية، معمارية تمثلت بصفّين من الحجارة للمدافن. وتغيرت أدوات المرفقات الجنائزية مع الحفاظ على ماسبق حيث، عثر في أحد القبور في موقع الكبارا على ثلاثة حجارة طحن، إحداها مدقة موضوعة فوق الرأس. كما عثر على زبدية بازلتية بجانب الرقبة وجزء من حجر الطحن أيضاً. فهل هذا يدل على مهنة صاحب القبر وبالتالي الإيحاء بأن بعض الرجال في هذه الفترة مارسوا الحرف والمهن بديلاً عن الصيد؟. لأن هذه المرفقات «المهنية» سوف نجدها بغزارة في قبور العصور التاريخية مع أصحابها. وفي العراق في كهف شانيدار عثر على قبر لطفل في هذه الفترة حوت مرفقاته على مئات القطع من الخرز والأحجار المنوعة كما عثر على قبر امرأة حوى سكيناً بقبضة عظمية ونصلة صوانية.

ومع حلول الألف العاشر ونتيجة للتطور الآخذ صعداً في مجاري الحياة الاقتصادية الاجتماعية والروحية، بدأنا نلاحظ أننا أصبحنا أمام مجتمعات متجانسة تميزت بالسكن في البيوت وتحولت الجماعة إلى مرحلة القبيلة وبقيت تمارس الصيد والالتقاط ولم تغادر الكهوف نهائياً.

أما طرق وشعائر الدفن، فقد بنيت المقابر الكبيرة ومورست عملية الدفن الفردي والجماعي ويبدو أن المقابر انفصلت عن المساكن وبقيت إلى جوارها. وطليت الجثث بالمغرة الحمراء. وهذا لا يعني أن الدفن لم يجر في المساكن، فقد عثر على عمليات دفن تحت أرضيات البيوت. وهنا يبدو أنه قد حصل انعطاف في البنية الذهنية للإنسان، حيث تبدأ بواكير فصل الجمجمة عن الجسد، ودفنها منفردة. بما يوحي ببوادر نشوء اعتقاد «عبادة الأجداد»، والذي سوف يتوضح أكثر في العصور اللاحقة.

مواقع هذه الفترة: عين الملاحة ــ المريبط ــ الجرف الأحمر ــ أبو هريرة ــ نهر الحمر ــ الطيبة ــ جيرود ــ شقبة.

والملاحظ في هذا المجال أن الدفن كان يتم في قبور منتظمة، أما

المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أسلحة حجرية وأسنان ولؤلؤ وقرون غزال بالإضافة إلى سن حصان وأجزاء حيوانية أخرى. [13]

وفي الفترة بين 8300 ــ 6000 ق. م: تم ولوج البشرية منعطف جديد عبر الثورة الزراعية التي خرجت من المشرق العربي القديم إلى العالم.

ويبدو أن هذه الثورة العلمية ما كانت تتحقق، لولا تراكم مجمل المعطيات على مجرى العصور السابقة ما أدى إلى حصول هذا الابتكار المشرقي العربي، والذي سيعكس من الآن فصاعداً جملة من المعايير والاعتقادات، ويخلق بالتالي تحولات اقتصادية واجتماعية وروحية مهمة، إن كان على صعيد دورة الحياة أو على الصعيد الذهني البشري. فقد أدى هذا التحول إلى نشوء القرى الزراعية الثابتة والمستقرة. ويبدو أن الإنسان بدأ يهجر الكهوف والمغاور نهائياً، ولكن هذا لا يعني أنه لم يستمر في حياة الصيد والرعي، لا بل إن حياة المجتمعات آنذاك شملت عالم الزراعة، بالإضافة إلى عالم الصيد والرعي واللذين تعايشا جنباً إلى جنب في دورة اقتصادية اجتماعية واحدة سوف توثقه أساطير العصور التاريخية، ولاسيما أسطورة المزارع والمراعي، ووثائق المشرق العربي في الألفين الثالثة والثانية ق. م.

ومع ابتكار الزراعة، انتقل الإنسان بوصفه جزءاً من الطبيعة إلى الانفصال عنها، والسيطرة عليها. وهذا سوف يؤثر في بنيته الذهنية وفي تفاعله مع الطبيعة ونواميسها، والتي ترتكز في ظاهرة الموت /الموت الدوري للنبات ومن ثم انبعاثه في مواجهة الموت الخطي قبل الانفصال عن الطبيعة/. ولاسيما في نشوء ظواهر الاعتقادات الدفينة الخصبية التي تجلت في ميل اعتباري للثور /الظاهرة الأقدم/ وعبادة الأم الكبرى، وصولاً إلى الأرواحية أو عبادة الأجداد، التي يعبرّ عنها بعبادة الجماجم عبر فصلها عن الأجساد.

ففي حوالي منتصف الألف الثامن قبل الميلاد سوف تغدو الجماجم موضع اهتمام كبير وهذا ما توضح في مواقع هذه الفترة، ففي المريبط،

عثر على هياكل دفنت بلا رؤوس تحت أرضيات بيوت السكن. أما الجماجم فبعد فصلها عن الأجساد، كانت توضع على امتداد جدران المنازل لاعتبارات اعتقادية. كذلك عثر على نفس هذه الظاهرة في أريحا في فلسطين.

ولم تكن الجماجم لتترك بل أنهم كانوا يعالجونها كنوع من التعويض في المستوى النفسي الجمعي، ويحاولون إعادة تشكيلها من الجص، وصبغها بما يماثل لون البشر، ثم تنزل العيون بالصدف أو القواقع ويرسم على الجمجمة خيوط بنية كدلالة عل شعر الرأس.

وقد عثر على هذه الجماجم المقبولة في مواقع عدة في أريحا وبيسامون ووادي حمار وفي تل الرماد.

مقاربة نفسية ــ أنثربولوجية لظاهرة الأرواحية «عبادة الأجداد»:

تدل الأبحاث العلمية، والميدانية الأنثربولوجية، إلى وجود جماعات بدئية إلى الآن تعيش منعزلة في أماكن عدة من المعمورة، ولاسيما في أفريقيا وأستراليا والأسكيمو، مازالت تمارس الأرواحية التي مرت بها المجتمعات الإنسانية في أطوارها السالفة. وقد بينت هذه الدراسات الميدانية أن سكان هذه الأماكن يعتقدون أن الأجداد يستمرون بالتدخل في حياة الجماعة لا بل ويظهرون موافقتهم أو عدمها عبر مدلولات طبيعية /كون أنهم مازالوا جزءاً من الطبيعة وخاصية من خواصها/ ولعل الأحلام عند هؤلاء تلعب دوراً مهماً في ربط عالم الأموات مع عالم الأحياء [14]. ويبدو أن عبادة الأجداد تنزع فيما تنزع إليه، إلى تمتين أواصر اللحمة بين الجماعة واستمرارية تقاليدها وأخلاقها التي صاغها الأجداد وبذا تتوضح ظاهرة المعتقد هنا بأنها ظاهرة اجتماعية بحتة أوجبتها ظروف الصراع في الحياة من أجل البقاء.

فحسب تلك الجماعات إن الجد المدفون يجعل الأرض خصبة إذا عرفوا كيف يكسبون عطفه. لهذا فإذا أرادت جماعة ما أن تهاجر فينبغي أن تحمل جماجم أجدادها معها. فالأجداد إذاً هم جزء من المجتمع الإنساني الحي وعلى حد قول فرويليش فإن عبادة الأجداد هي عقدة من سلسلة طويلة اسمها الزمن.

[15] لهذا فإن معرفة الأنساب والحفاظ عليها لها فائدة كبرى في المجال الاجتماعي، حيث تمتّن الأواصر الاجتماعية بقيادة الأجداد، إذاً هي ظاهرة قبلية بامتياز. فالأجداد هم ضامنو النسب للقبيلة وعبادتهم تضمن استمرارية التقاليد والأخلاق الاجتماعية بين أفراد الجماعة، كما أن هذه العادة تؤدي إلى توازن في المستوى النفسي الجمعي بين عالم الأحياء وعالم الأموات بما يضمن استمرارية دورة الحياة للأجداد واستمرارية حياة الأموات في وجود الجماعة. وهذا ما يطلق عليه تعبير الأخلاق النفعية. ويختصر أحد شيوخ القبائل التي درست عبادة الأجداد بقوله: «إن الأموات يعيشون بقدر ما نفكر بهم وعلينا أن نطيعهم». [16]

ويشار أيضاً في هذا المجال إلى وجود ظاهرة أخرى هي ظاهرة الأقنعة والتي عثر عليها في موقع وادي حمار حيث أن هذه الأقنعة توحي بتظاهرات ذات طابع جمعي شعبي حيث كان القناع يصمم لكي يضعه أحد الأشخاص /كرمز إرواحي/، وتقام طقوس وشعائر ربما في عيد الأموات. ويشير جاك كوفان أنه ربما يحمل دلائل خصبية [17].

كانت الأقنعة تثقب بثقوب دائرية، أما الأنف فعبارة عن نتوء قليل البروز والفم نصف مفتوح، وثمة تلاوين بالأحمر والأخضر تشكل خطوطاً مشّعة من المركز باتجاه محيط الوجه، وتحمل هذه الأقنعة على طرفها صفاً من الثقوب من أجل تثبيتها مع وجود آثار حمر تدل على استخدام مادة لاصقة لشعر مستعار. ويشير كوفان إلى أن هذا الطقس إنما يعبر عن أصل المسرح المقدس في المشرق العربي ويعتقد أنه ربما يعود لعصور أقدم بكثير من زمنه. [18]

الفترة بين 6000 – 5000 ق. م:

استمر تطور المجتمعات الزراعية مع تعايشها مع مجتمعات الصيد والرعي، وقد بقيت طقوس الدفن تتم تحت أرضيات المساكن أو بقربها، وشملت المرفقات الجنائزية، أواني فخارية وحجرية ودمى نسائية وحيوانية مع ملاحظة أن هذه الفترة، لم يعثر في مواقعها على دلائل تشير إلى استمرار عقيدة عبادة الأجداد، كما لم يعثر /حتى الآن/ على جماجم مقولبة، مع اعتقادنا

أنها استمرت لأنها ستظهر في العصور اللاحقة.

أهم مواقعها: رأس شمرا والعمق والكوم وبقرص في سورية، ووادي اليرموك والحولة وأريحا ووادي رباح في فلسطين، أما في لبنان فأرض قليلة وجبيل، وفي العراق أم الدباغية وتل حسونة وسامراء.

الفترة بين 5000 – 3500 ق. م:

تطورت التقنية في مجال الزراعة إلى الري الصناعي والأقنية، وأصبحت الزراعة أكثر انتاجية. ومن المدافن يستنتج أنه ثمة تمايز اجتماعي يبدأ بالظهور بين الكهنة، ورجال الدين والسلطة والتجار من جهة، وبين بقية الناس من جهة أخرى. فقد حفلت قبور الأغنياء بالمعادن الثمينة، ولاسيما الذهب والفضة [19].

مجتمعات هذه الفترة مارسوا الدفن، ويبدو أنهم دفنوا الجماجم بمعزل عن الأجساد ما يشي بعبادة الأجداد، التي سوف تستمر حتى العصور التاريخية. حيث عثر على عبادة الأجداد في إيبلا عبر اكتشاف المقبرة الأمورية هناك والتي تعود للألف الثاني قبل الميلاد [20].

والجدير ذكره هنا، هو ظهور ظاهرة دفنية جديدة، تجلت في حرق الجثث ووضعها في جرار. وكان هذا يتم للكبار فقط أما الصغار فكانوا يدفنون بشكل اعتيادي. [21]

وأكثر الدفن داخل البيوت كان يتم للمواليد الجدد المتوفين، أما الكبار فقد دفنوا خارج البيوت. وقد عثر في بعض القبور على مرفقات جنائزية مثل التماثيل والأواني مع وجود سفن من طين. وهذه دلالة على نشوء مفاهيم جديدة في هذه الفترة لعالم ما وراء الموت، سوف يتوضح في العصور الكتابية حيث ثمة في العالم الآخر، نهر يعبره الإنسان بسفينة كي يصل إلى العالم السفلي. [22]

والذي يبدو كما هو واضح، في سياق البحث، أن وقفة الإنسان القديم تجاه ظاهرة الموت هي سلسلة واحدة تبدأ من إنسان النياندرتال، وصولاً /كما سنرى/ إلى الإنسان الحديث والمعاصر. مع فارق بسيط يوضحه عالم

النفس يونغ بقوله: «إن الإنسان القديم يفعل ما يفعل، لكن الإنسان المتمدن يعرف ماذا يفعل» [23]. وفي هذه النقطة تكمن وظيفة الدماغ ومدى الوعي الإنساني الذي لا حدود له.

استنتاجات تختص بالفترة التي امتدت
من حوالي 100000 سنة وحتى 3500 ق. م:

إن أقدم دليل أثري على وجود بشري في سورية يرقى إلى حوالي مليون سنة وبعضهم يعيد ذلك إلى مليون ونصف مليون سنة.

إن إنسان النياندرتال في المشرق العربي القديم، هو أول من وعى مسألة الموت متزامناً هذا مع تطور بنية الدماغ لديه ولاسيما القشرة الدماغية والقسم الحوفي من الدماغ.

إن عبادة الأجداد = الأرواحية تجلت منذ بواكيرها، في حوالي الألف العاشر قبل الميلاد. وهذا يشكّل انعكاساً لحالة النظام الاجتماعي القبلي نصف المستقر، والذي مارس الصيد والتقاط البذور. وهنا بدأت بواكير فصل الجمجمة عن الجسد لتتكرس وتتبلور مع الثورة الزراعية التي شهدها العالم آنذاك، انطلاقاً من سورية وذلك في حوالي منتصف الألف التاسع قبل الميلاد.

كان الدفن يتم تحت أرضيات الكهوف والمساكن. كما شهدت المنطقة بناء مقابر منتظمة ومعزولة عن المساكن في مواقع عديدة.

ظاهرة الموت ومعتقداته في العصور التاريخية 3200 ق. م:

نحن هنا مع استمرار لتقاليد وشعائر الدفن التي كانت سائدة سابقاً، مع ازدياد في التطور لجهة مناحي الحياة الدفينة، ولاسيما مع بداءات نشوء المدن، ومع فجر الكتابة والذي انطلق من المشرق العربي القديم

ولعلنا وفي مجال متابعة البحث، ولاسيما في العصور التاريخية /الكتابية/ نجد أنه ينبغي الإشارة إلى عدة مرتكزات:

أولها: أن العصور التاريخية في المشرق العربي تعد نقطة اتصال أو حلقة بين العصور ما قبل التاريخية والعصر الحديث لجهة شعائر الموت

ومعتقداته، بمعنى أن ثمة استمرارية حضارية متواصلة مع الأخذ بعين الاعتبار ما قدمته الثورة المدينية = العمرانية من جهة، وما قدمه اختراع الكتابة من معايير وقيم جديدة على حياة المجتمع آنذاك والشعائر التي مارسها في مجال الموت من جهة أخرى. بالإضافة إلى بدء اعتمادنا، على ما خطه أجدادنا على الرقم الطينية، بما أدى إلى توسيع دائرة الرؤية، لجهة معرفة شعائرهم ومعتقداتهم، بشكل يبتعد عن الاعتقاد، إلى الجزم.

وسوف نجد أن ثمة شعائر ومعتقدات وحياة رمزية، مازالت موجودة إلى الآن في حياتنا تستمد جذورها من العصور القديمة.

ثانيها: كنا في مجال العصور ما قبل التاريخية نعتمد على اللقى وبقايا المباني والمقابر والمرفقات الجنائزية لتفسير موقف المجتمع من الموت، أما مع اختراع الكتابة فنحن الآن مع مسار يأخذ منحيين:

الأول: إرجاعي بما يفسر الرموز والبنى ماقبل التاريخية عبر الوثائق الكتابية المكتشفة.

الثاني: واقعي بما تقدمه الوثائق، وتدعم ذلك البنى الاثرية واللقى في حيز العصور التاريخية بهذا شكلت الوثائق الكتابية، حالة توثيق لمناحي المجتمع كلها ومنها مسألة الموت.

ثالثها: قدر الامكان ابتعدنا عن الاستعانة بالنصوص الأسطورية والأدبية، ليس لعدم أهميتها، بل لأننا شئنا البحث في موضوع الموت وشعائره وفق ما كان يجري، لا ما كان يتم تصوره [24]. فالأسطورة على أنواعها المختلفة تستند إلى ركائز رمزية وكون أن الرمز مشحون بانفعال، فلا نعتقد أن البحث العلمي يقوم على الانفعال، بل على الوقائع الحياتية /لجهة هذا البحث/. وسأعطي مثالاً عن الانفعال الذي ذكرت، فقد ورد في ملحمة جلجامش أنه بنى أسوار أوروك، تلك التي لم يشهد مثلها إنسان [25]، لكن الكشف الأثري في مدينة «موقع حبوبة» في سورية أثبت أن سور حبوبة الكبيرة يفوق ضخامة سور أوروك المعاصر له. [26]

وأيضاً، فمسألة الموت في الأسطورة المشرقية، صحيح أنه كان يعبّر

عن موقف المجتمع من الموت لكنه يتضمن في الوقت نفسه خلفية للثقافة الزراعية، وصراعاً للرموز فيما بينها، على قاعدة ثنائية الموت ــ الانبعاث. ومجالنا نحن هو ليس في التصور والتخيلات بقدر ما هو رصد الممارسات ومجمل السلوك الإنساني المجتمعي الواقعي والذي وثّقته كتابات ونصوص المشرق العربي، بعيداً عن التصورات والانفعالات. /هذا مع احتفاظنا بمقولة إن الفكر الفلسفي انبثق من الأسطورة/.

ومع عصر فجر التاريخ /حوالي 3500 ق. م/، نلاحظ أن شعائر الدفن في المشرق العربي القديم بقيت على حالها، واستمر الدفن تحت أرضيات المساكن /الظاهرة الأقدم/، مع ملاحظة هنا، أننا أصبحنا أمام ظاهرة دفن تتم في الجرار الفخارية، للأطفال أولاً ثم شملت الكبار أيضاً.

وفي هذه الفترة، وباطراد مع الزمن، لم يعثر على ظاهرة فصل الجماجم عن الأجساد. ما يعني أن عبادة الأجداد أو حتى ظاهرة الجماجم المقولبة لم تظهرها المواقع الأثرية حتى الآن. وربما الذي حصل ونتيجة للاتجاه الاجتماعي ــ الاقتصادي ومع بداءة تأسيس المدن ونشوء الزعامة بشكل نظام سياسي، أن تحولت عبادة الأجداد /القبلية/ إلى عبادة للملوك وتأليههم بعد الموت، تبعاً للتطور الاجتماعي ــ الاقتصادي الحاصل في المجتمعات. دون أن ننسى دور الكهنة في عامل الربط بين السماء والأرض.

ومن ناحية المرفقات الجنائزية /وهذه التسمية نعتقد أنها أفضل من الأثاث الجنائزي/، نلاحظ استمرارية لما كان سائداً من قبل.

مواقع هذه الفترة:

عثر في بيبلوس «جبيل» في لبنان على مقبرة تؤرخ بحدود 4000 ــ 3100 قبل الميلاد حيث دفن الموتى داخل جرار كبيرة بعد أن تم قص أحد جوانب الجرة لادخال الجثة وتم الاستفادة من القسم المقصوص بأن أصبح غطاءاً للجرة. [27]

المرفقات الجنائزية كانت عبارة عن أوانٍ فخارية كانت تحوي طعاماً

وشراباً، وزود الموتى بالأسلحة الحجرية والنحاسية، وشملت قبور النساء على أدوات زينة وتبرج.

وفي جرة كبيرة عثر على هيكل عظمي لرجل، والى جانب هذه الجرة ثمة جرة صغيرة حوت هيكلاً عظمياً لكلب، /ما يشي باعتقاد أن الميت كان صياداً/. وفي أريحا في فلسطين عثر على قبور محفورة في المنحدرات الصخرية ويعتقد أن الدفن فيها استمر لأجيال متعاقبة ولمئات السنين.

وفي العراق عثر في موقع تل قاليج آغا على دفن تحت أرضيات البيوت بالإضافة إلى العثور على جرار تحوي هياكل أطفال. كانت جرار الأطفال ذات شكل كروي ولها فوهات واسعة حيث يدفن الطفل فيها بوضع جنيني. ويتم دفن الجرة في باطن الأرض بعمق يتراوح بين متر وأربعة أمتار.

وفي مواقع أخرى عثر في بعض القبور على نماذج فخارية لزوارق شراعية وهذا ما سنناقشه لاحقاً مستندين على النصوص المسمارية.

وفي موقع أور في العراق عثر على مقبرة تضم 16 قبراً ملكياً وتعود لحوالي 2900 ــ 2750 ق. م، والشيء اللافت هنا هو احتواء المقبرة على ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر وكأنه اعتقاد بأن الميت يحيا في القبر بانتظار انتقاله إلى العالم السفلي عبر نهر، فلا بد من وجود حاشيته معه للعناية به. ففي قبر عائد لملك أور (آ ــ كلام ــ دك) عثر على 40 مرافقاً من الحاشية وفي قبر عائد للملك (آ ــ بار ــ كي) عثر على ثلاث ضحايا بشرية في جزء منه وفي جزء آخر عثر في حفرة كبيرة على 62 جثة بينها 6 جثث لجنود وتسع لنساء.

والملاحظ أن أصحاب هذه الجثث دفنوا بكامل ملابسهم وزينتهم أما الحرس فكانوا يحملون أسلحتهم والموسيقيون قيثاراتهم وصنوجهم. وقد تقدم هذه الضحايا عربتان ربط إلى كل منهما ثلاثة ثيران وقد جلس في داخلها الحوذيون.

أما قبر الملكة «بور ــ آبي» فقد عثر على عدة جثث لنساء رتبت في

صفين، وفي آخر الصفين توجد قيثارة بالقرب منها هيكل امرأة امتدت عظام يديها عبر حطام القيثارة. وبلغ عدد الضحايا البشرية مع الملكة حوالي 25 ضحية.

كما عثر في قبر آخر على حوالي 74 ضحية بشرية منها 68 لنساء والبقية لرجال.. يبدو أنهم جنود حيث اتكأوا على الجدار مع أسلحتهم، في حين كانت أربع نساء يقفن أمام قيثاراتهن [(28)]. ولتفسير هذه الظاهرة الاستعبادية عبر وجود ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر. والتي تعتبر في رأينا ظاهرة مستوردة، لا تعبر عن ذهنية المشرق العربي بدليل عدم تواجدها سابقاً وعدم استمراريتها، رغم العثور على ما يدل أن مواقع مدينة كيش الرافدية قد شهد هذه الظاهرة (80 ضحية دفنت مع حكام). فنحن نعتقد أن هذه الظاهرة مستمدة من الطقوس المصرية فقد عثر حول قبر الفرعون (جير) خليفة (غور آخا) في أبيدوس على حوالي 388 قبراً معظمهم لنساء والذي يبدو أنه جرى تقديمهن كقرابين كي ترافق الفرعون إلى العالم الآخر.

وفي موقع آخر جرى دفن 269 ضحية بشرية إلى جانب الفرعون كما رافقت زوجة الفرعون «ميرنيت» (41) ضحية، في حين أن الفرعون (أوداجي) رافقه 174 ضحية.

والذي يلاحظ أن الضحايا يكونون من أصحاب الحرف كالخزافين والنجارين والحجارين والرسامين وصانعي السفن وكل مع أدواته وتعود هذه القبور لحوالي 3100 ــ 3000 ق. م. [(29)] وفي موقع أبو ضنّة في سورية، والذي يعود لمطلع الألف الثالث ق. م، عثر على عمليات دفن تحت أرضية البيوت تمت في جرار فخارية. [(30)]

أما في ماري في سورية، فقد لوحظ انه في الألف الثالث قبل الميلاد كان السكان يدفنون موتاهم تحت التراب دون أي تابوت. وكانت الجثة تحاط بطبقة من الجرار الصغيرة. أما المرفقات الجنائزية فكانت عبارة عن أوانٍ فخارية تحوي الأطعمة والشراب بما يؤمن للميت قوت يومه في العالم الآخر. أما قبور الملوك فكانت ومنذ مطلع الألف الثالث عبارة عن قبور

ضخمة حجرية. [31]

الطقوس الجنائزية في العصور التاريخية:

كانت الطقوس الجنائزية تعتبر ذات أهمية لدى الناس في المشرق العربي، فقد ساد الاعتقاد أنه إذا لم تقدم القرابين للموتى سواء الطعام أو الماء أو إقامة الشعائر على الأموات في يوم الندب، فسوف تخرج أرواح هؤلاء الموتى المحرومين بهيئة أشباح، تعكر صفو حياة الأحياء وتعيث فساداً وشراً. فإحدى التعاويذ المقروءة على نص مسماري تقول على لسان إنسان يبدو إنه ضحية مرض أو شأن سلبي فهم منه أنه يعاني من شبح تقول:

«سواء كنت شبح شخص غير مدفون، أو كنت شبحاً لم يلق عناية لائقة، أو شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء..» [32].

كما أن أحد النصوص يتحدث عن «أن الأشباح الشريرة تخرج من القبر من أجل الحصول على الطعام والماء». [33]

ولقناعتنا الآن /في العصر الذي سوف تسود فيه الروح العلمية/، بأن حالة المرض أو الحمى أو كل ما كان يصيب الإنسان، كانت تفسر تبعاً لحالة البنية الدماغية لديه ومدى تطورها، لذا فان تعليله المعتمد على اعتقادات طقوسية، جعلته في حالة مرضه سواء العضوي أو النفسي، يلجأ إلى الإشارة بإصبع الاتهام إلى الأرواح الشريرة. وهذا ما استمر ولو بشكل أقــل حتى حياتنا المعاصرة وعند بعض شرائح المجتمع ولاسيما التي لا تملك المعرفة العلمية. وتتحدث النصوص أيضاً عن شخص ابتلي بمرض ما /وحسب اعتقاده بروح شريرة/ حيث يتضرع إلى أرواح الموتى من عائلته لينقذوه فيقول بحس وجداني عالٍ:

«يا أرواح عائلتي، يا أرواح أبي وأمي وأجدادي وأخي وأختي وكل أهلي وأقربائي.. كنت أقدم إليك القرابين الجنائزية وأسكب الماء لك وأبذل العناية لك وأبجلك.. ففي الآن أمام شمش وجلجامش واعرضي قضيتي واحصلي على قرار رأفة بحقي.. ليتسلم نمتار الروح الشريرة التي في

جسدي وأعصابي وليمنعها نيدو من العودة ثانية، خذي هذه الروح إلى أرض اللاعودة ودعيني أنا خادمك، حياً.. سأقدم الماء البارد لشربك فامنحيني الحياة لأغني بمديحك» (34). وثمة رسالة من حاكم ترقا «التابعة لماري» إلى ملك ماري زمري ليم، يشير فيها الأول إلى أن الإله دجن طلب بوساطة الكاهن /ماخو/ إقامة الشعائر الجنائزية لروح يخدون ليم والد زمري ليم، حيث يبدو أن زمري ليم انقطع عن إقامة الشعائر لوالده المتوفى(35). وهاهو آشور بانيبال يذكر في أحد نصوصه: «لقد قمت بإعادة الشعائر التي تشمل الطعام والشراب المقدم لأرواح الموتى الملوك، والتي كانت مهملة، وأنجزت كل ما هو حسن للإله والإنسان، للميت والحي» (36).

وكان موعد إقامة الشعائر والطقوس يختلف بين المدن، ففي بابل مثلاً، كان يتم في التاسع والعشرين من كل شهر، حيث يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم والقمر محاقاً. وكان هذا اليوم يوصف /بيوم سكب الماء. يوم القرابين الجنائزية، يوم الكآبة، يوم الندب/، وفي إيبلا كان يتم في الشهر الحادي عشر من السنة وهو شهر عشتار، أما العيد السنوي لإقامة الطقوس فكان يتم في شهر آب في بابل وفي آشور كان يتم تقديم الطقوس في شهر شباط. وينبغي الإشارة أيضاً إلى أن الطقوس الجنائزية كانت تقام أيضاً لإرضاء الآلهة ولاسيما آلهة العالم السفلي.

فقد جاء في أحد النصوص: «انك تقدم القرابين الجنائزية من أجل الحقل الذي لاينتج.. ومن أجل الأقنية التي لاتجلب الماء.. إنك تقدم القرابين لآلهة العالم السفلي» (37).

ومن طرائف الأمور أن إحدى الوثائق الأكادية التي تعود للألف الثالث ق. م تذكر أن من يُتبنى، عليه أن يلتزم بتقديم القرابين إلى روح متبنيه بعد موته حيث جاء في النص:

«في حياتي تقومين بإطعامي وحين أموت تقدمين لي القرابين الجنائزية». (38)

الحرمان من الدفن كعقاب مجتمعي ضد الأفراد في الحروب:

شكّل الحرمان من الدفن عقاباً لمن لا يمتثل للقانون في مدن الدول آنذاك، إضافة إلى أن الانتقام خلال الحروب، كان يركز على نبش أضرحة ملوك الأعداء. ففي الأدعية كان يقال: «عسى أن يتهاوى جسده ولا يدفنه أحد» [39].

«وعسى ألا يدفن جسده في التراب» [40]. لا بل أن أحد القوانين الآشورية يذكر: «إذا أجهضت امرأة حامل نفسها فيجب أن يحاكموها وإن أدينت توضع على الخازوق ولا تدفن، وإذا ماتت أثناء الإجهاض فيجب أن توضع على الخازوق لا تدفن جثتها» [41].

وعلى مسلة تعود إلى أمير لجش آي ــ أناتم، وتؤرخ حوالي 2600 ق. م، ثمة صور منقوشة تصور انتصاراته على أهل مدينة «أوما»، حيث يظهر القتلى مكدسين على الأرض، وجنود أمير لجش يسيرون فوقها، وقد نقشت رسوم النسور على المسلة وهي تطير من ميدان المعركة، حاملة بمناقيرها ومخالبها رؤوس وأيدي القتلى من الأعداء [42]. ويؤكد ذلك نص يصف فيه الأمير حربه وانتقامه فيقول: «بتصرف»:

«ذبحت جيش أوما في مدينتهم.. وتركت أجسادهم في السهل للطيور والوحوش، لتلتهمها ومن ثم كومت هياكلهم خمسة أكوام في خمسة مواضع منفصلة». [43]

وتذكر حوليات آشور بانيبال، أنه في حربه ضد العيلاميين، خرّب أضرحة ملوكهم، وأخرج عظامهم ونقلها معه إلى آشور كأسلوب انتقام: «لقد نبشت قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة آشور، والذين أقلقوا أسلافي من الملوك، لقد نبشتها وعرّضت هياكلهم للشمس وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور، لقد فرضت الإزعاج على أرواحهم وقطعت عنهم قرابين الطعام وسكب الماء». [44]

ومن الطريف في هذا المجال، ما فعله«مردوك ــ بلادان» حين تمرد على الملك سنحاريب، فعقب فشل تمرده، أخرج هياكل أسلافه وفر بها بعيداً، لخشيته من أن يلحق سنحاريب الأذى بها. [45]

التوابيت:

مع بداية العصور التاريخية، كانت الجثث تدفن بعد لفها بحصر من القصب. أو تدفن الجثة في قبر مبطن بالحصر، وهذا ما أكدته مواقع أور ــ تل صوان ــ كيش.

كما استعملت التوابيت الخشبية في كيش. وعثر على توابيت طينية في موقع خفاجة.

وشاع الدفن في الجرار الفخارية في المشرق العربي، كما استعملت السلال في دفن الأطفال. وعثر على توابيت فخارية تشبه «طشت الغسيل»، حيث كانت تغطى بجذوع النخيل أو أغطية فخارية أو طينية. ففي موقع الأنصاري قرب حلب «2400 ــ 1600 ق. م» عثر على مقبرة تشبه مقابر بلاد الشام من الناحية المعمارية، ومن ناحية المرفقات الجنائزية، ولاسيما مقابر قطنة والسلنكحية وتل برسيب وإيبلا.. وحوى أحد القبور، على هيكل عظمي لامرأة داخل جرة كبيرة لها فوهتان. [(46)]

وفي ماري شاع الدفن داخل الجرار الفخارية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وقد عثر على جرتين كبيرتين كانت فوهة كل منهما مقابلة للأخرى. وكان ممن أهم المرفقات الجنائزية، ثلاثة أقنعة لرجال مرد، مع زوائد متطاولة تمثل الأذنين وقد ثبّت القناع على صدر الميت[(47)]. والجدير ذكره أن الأقنعة هذه عثر عليها في مواقع عديدة في الجناح الشرقي للمشرق العربي وفي أوغاريت.

شعائر الموت في إيبلا:

تقول مرغريت يون: «من البحر المتوسط وحتى الفرات يلاحظ استمرار العديد من مظاهر الأثاث الجنائزي للمدافن». [(48)]

فإيبلا لا تشذ عن هذا الأمر. ويبدو بشكل عام أن شعائر الموت ومعتقداته وبدءاً من السيادة العمورية على مدن المشرق العربي القديم قد تجانست ضمن معايير معينة وضمن نظام واحد مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف البيئة الخاصة بين مدينة وأخرى.

فقد عثر في إيبلا على مقبرة ملكية أمورية تعود للألف الثاني قبل الميلاد، وحول هذا يقول باولو ماتييه: «إن هذا التقليد الإيبلائي يعود إلى فجر التاريخ وقد شاع هذا التقليد /ويقصد المقبرة الملكية تحت القصر الملكي وفي قلب المدينة/ في جنوب الرافدين منذ منتصف الألف الثالث ق. م، كما في أور». فقد ظهرت تحت أرضيات القصر الغربي مقبرة ملكية هي عبارة عن أربعة مدافن[49]، أهمها مدفن الأميرة ومدفن سيد الماعز ومدفن الخزانات.

مدفن الأميرة يعود لحوالي 1800 ق. م، أما مدفن سيد الماعز فيؤرخ 1750 ق. م، وفي هذا المدفن عثر على تميمتين من العاج إحداهما، تشي بطقس جنائزي، حيث أنها تتألف من سلسلتين من الصفائح العاجية الرقيقة، وقد حوى المشهد الأول منها على وليمة جنائزية مؤلفة من رجل عاري الرأس، يمسك بعصا، ويجلس رواء منضدة مليئة بأرغفة الخبز، ويقف أمامه عدد من الخدم ورجل وامرأة عاريين، أما المشهد الثاني فيتألف من قردين في حالة ابتهال أمام ثور، ومن شكل ثانوي لرجل يحمل فأساً. وقد فسر ماتييه هذا المشهد مستنداً على أبيات من شعر أوغاريتي تتعلق بالإله «كيريت»، حيث يتولى الابن الأكبر والإبنة الكبرى مهمة مراسم دفن والدهما الملك المتوفى. ففي المشهد الأول يكون الملك هو صاحب الوليمة الجنائزية، ومن ثم تنسخ روحه بعد الوفاة في شكل ثور يبتهل له القردان. ويشير ماتييه إلى تفسير هذه المشاهد وفق أسطورة تموز. [50]

الجدير ذكره أن مدافن تلك الفترة تتشابه مع مثيلاتها في أريحا في فلسطين وجبيل في لبنان.

وقد دلت المقبرة الأمورية في إيبلا على ظاهرة عبادة الأجداد أو عبادة الملوك /ماتييه/[51]، ونحن نعتقد أن الظاهرة هنا، لا تعبر عن عبادة الأجداد بالمعنى القبلي، لأن نظام إيبلا السياسي شهد ملوكاً مختلفين ولا يشكلون علاقة أسرية متوارثة، وبالتالي فنحن أميل للأخذ بتقديس الملوك بعد موتهم.

شعائر الموت في أوغاريت:

تم اكتشاف الكثير من المدافن في أوغاريت، حيث توضعت تحت أرضيات المساكن. فالبيت الأوغاريتي بشكل عام، يحتوي طابقه الأرضي على مركز للأعمال الحرفية أو المنزلية والمستودعات ويكون مفتوحاً على الشارع. وثمة طابق ثانٍ، مخصص لسكن العائلة، وربما يوجد طابق ثالث ثم السطح. أما تحت الطابق الأرضي فيتوضع مدفن العائلة ويكون لها باب إلى الشارع مباشرة إضافة إلى ارتباطها ببقية أجزاء المنزل. [52]

عثر في أحد المدافن ضمن المنازل، على مرفقات جنائزية تضم بيوض النعام، كانت تستورد من مدن المشرق العربي الأخرى. كما كانت القبور تحوي على الأسلحة والحلي. وعثر في القصر الملكي على مدافن ملكية كبيرة تعود لحوالي 1400 ق. م، وحوى أحد القبور على منحوتة لموسيقي يعزف على صنجين.[53]

وقد تم قراءة أحد النصوص الأوغاريتية التي تتحدث عن أرواح الموتى «الابوم»، ويبدو أنها مرتبطة بعبادة أو تأليه الموتى /ربما الملوك/، أو إقامة شعائر جنائزية في ما يسمى بالمرزح.

ويبدو أن المرزح كان على شكل مؤسسة اجتماعية، تعنى بالطقوس الجنائزية التي تقام في دار مرزح لبكاء الأموات، وربما استذكارهم. حيث يقتسم الخبز ويشرب النبيذ للتعازي بالأموات. وفعل رزح، يفيد بمعنى السقوط إلى الأرض. وقد افترض جوناس جرينفلد أن ثمة توافقاً بين المرزح وبين طقس كيسبو الرافدي، فالمدعوون إلى الوليمة يكونون الأجداد وأرواح الموتى[54]. ويبدو أن المرزح كان يشمل وليمة جنائزية، يتم عبرها دعوة أرواح الأجداد لذكراهم والتبرك بهم. وفيما يعاصر أوغاريت نميل نحو أريحا في فلسطين، حيث أدت المكتشفات الآثارية، إلى العثور على مدافن شبيهة ببقية مدافن بلاد الشام، ولكن الشيء الجديد هنا، هو أن المرفقات الجنائزية جديرة بأن نطلق عليها اسم أثاث جنائزي، فقد حوى أحد المدافن على أثاث «مناضد وطولات وكراسي خشبية» حيث استلقى الميت وسط الغرفة، على سرير بالقرب من طاولة، محملة بقطع من أدوات مهنية، استخدمها الميت في حياته /حيث كانت مستعملة/. ويبدو أن الأثاث الجنائزي هذا كان تشبهاً

بالمدافن المصرية. [55]

العالم السفلي عند المشرقيين القدماء:

يتألف العالم السفلي حسب أحد النصوص الآشورية، خلال فترة السيادة الأمورية على المشرق العربي 2000 ق. م، إلى أن الأرض تقسم إلى ثلاث طبقات:

الأرض العليا = أرصيتو إليتو «بالأكادية»، الأرض الوسطى = أرصيتو قبليتو، الأرض السفلى، /العالم السفلي/ = أرصيتو سبليتو.

أما مداخل العالم السفلي، فهي القبر وأيضاً مدخل يقع عند مغيب الشمس.

وفوق العالم السفلي /الذي يتوضع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض/ كانت تمتد مياه العمق، وثمة نهر يؤدي إلى العالم الأسفل يطلق عليه بالأكادية نهر /عبر/، وهو يحيط بالمدن. وباعتقاد أجدادنا آنذاك، أنه لا يمكن العبور للموتى بهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى، إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبر نهر عبر. لهذا كانت المرفقات الجنائزية ترفق بسفن ونماذج منها، إضافة إلى قطع نقود سوف يأخذها المسؤول عن عبور الموتى للعالم السفلي.

كان الاعتقاد بشكل عام في المشرق العربي، أن شهر شباط هو شهر لأخذ الأموات، حيث يكثر الموت /وهذا الاعتقاد مازال مستمراً في عصرنا الحديث/ وكان يسمى /بشهر نهر عبر/، حسب الوثائق الآشورية.

وورد في أحد النصوص المشرقية العائدة للألف الثاني ق. م: « دعهم يعبرون نهر العالم السفلي ولا يعودون» [56].

ومن أسماء العالم السفلي وصفاته، فإننا نلاحظ مدى تشابه الكلمات الأكادية مع الكلمات العربية، فالقبر في الأكادية: قبرو، وأرض الموتى = أرصيتو ميتوتي. وأناس سفليون «في العالم الأسفل» نجدها في الأكادية: نسي سبلاتي. وخربة أي مقبرة نجدها في الأكادية: خربو. [57]

شعائر الموت عند الآراميين:

دفن الآراميون موتاهم بطرق الدفن العادي، حيث دفنت الجثث داخل قبور مبنية على شكل غرف. كما كانوا يحرقون الجثث، والذي يبدو أنه تقليد لطقوس أناضولية لا تمت بصلة لذهنية الموت في المشرق العربي القديم.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن شواهد القبور هي ابتكار آرامي بامتياز، استمر إلى عصرنا الحاضر. ففي شمأل، عثر على شاهدة قبر ارتفاعها متر ونصف، وتمثل مشهد مائدة تجلس اليها سيدة ترتدي ثياب الاحتفالات، وأمامها طاولة تحوي أصنافاً من المأكولات، وخلف المرأة وقفت الوصيفة وبيدها الأولى مذبة، وبيدها الأخرى سكين. (58)

ويعتقد الدكتور علي أبو عساف بأن هذا المشهد يصف تصويراً لعقيدة الحياة في العالم السفلي. (59)

بالإضافة إلى شواهد القبور ظهر لدى الآراميين ابتكار التماثيل الجنائزية، حيث عثر عليها في عدة مدافن آرامية، ففي جوزن تم اكتشاف تمثالين لامرأتين جالستين وتمثال لرجل وامرأة يجلسان على مقعد واحد. وقد اتسمت هذه التماثيل بالتعبير الواقعي لحالة الموت، حيث العيون مغمضة وتوحي الشخوص بالجمود، دلالة على أنهم أموات.

وفي تل حلف عثر على تماثيل للموتى توضع كشاهدة قبر، وانتشرت الكتابة تحت قوس شاهدة القبر وعلى أسفل ثوب الميت. فمثلاً عثر على شاهدة قبر لكاهن /سن/ المتوفى، حيث نقرأ أسفل الثوب على الشاهدة:

«سن ــ أرز ــ ابني» كاهن سن هو متوفي وهذه صورته وقبره. وينتهي النص بلعن كل من يسيء إليه. (60)

وبشكل عام لم يظهر عند السوريين القدماء تفكير ما بوجود حياة بعد الموت، ولعل المرفقات الجنائزية من طعام وشراب وسفن ونقود إلخ، بالإضافة إلى الشعائر والطقوس الجنائزية، كانت تتم لتهدئة روح الميت، وجعله مطمئناً أولاً، وثانياً، من أجل ابتغاء مرضاة آلهة العالم الأسفل كي

تعتني بالميت في العالم الآخر / السفلي.

وهذا ما جعل السوريين القدماء يعملون للحياة ومن اجل الحياة والمجتمع أكثر ما كانوا يشغلون تفكيرهم بالموت وعالمه. وهذا ما تبدى معنا منذ ما قبل التاريخ مروراً بالعصور التاريخية وحتى مملكة تدمر في القرون الميلادية الأولى والتي سمت المدافن ببيت الأبدية.

ولعلنا نختم بحثنا هذا بمقولة العالمة الإيطالية غابرييلا ماتييه:

«لم يكن السوريون غير مهتمين بمسائل ما بعد الحياة أو الوجود وإنما كانوا أقل استعداداً ليوم الموت، وهذا ما عرفناه من بقاياقبور مدمرة في سورية مثل إيبلا.

السوريون يصورون مكان الموت والقبر وحياة العالم الأسفل كمكان حزين، مكان حداد، مكان دخاني رمادي.. الموت عند السوريين بشكل عام نهاية مفتوحة للحياة» [(61)].

الهوامش

(62) د. سلطان محيسن. الصيادون الأوائل. دار الأبجدية. دمشق. 1991
(63) الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم. مجموعة باحثين. وزارة الثقافة. دمشق. 2000
(64) محيسن. مرجع سابق.
(65) فرنسيس أور. حضارات العصر الحجري القديم. ت: سلطان محيسن. دمشق. 1989
(66) كارل ساغان. تنانين عدن. ت: نافع لبس. اتحاد الكتاب العرب. 1996
(67) المرجع السابق.
(68) تظهر بعض المعطيات الأثرية الحديثة، أن الإنسان العاقل ربما لم يتطور عن سلفه النيادرتال. /رغم أن المؤشرات تؤكد تطور الإنسان العاقل الفلسطيني عن سلفه النياندرتال/. ولكن ظهور دلائل عن وجود الإنسان العاقل، في جبل قفزة في فلسطين، بما يعود لحوالي 100000 سنه، ربما يعيد النظر في الكثير من المفاهيم السابقة. /راجع. محيسن. الصيادون الأوائل/.
(69) ساغان. مرجع سابق.
(70) كارل غوستاف يونغ. علم النفس التحليلي. ت: نهاد خياطة. دار الحوار. سورية. 1985
(71) محيسن. مرجع سابق.
(72) يمكن العودة للهامش رقم 7
(73) ه. فرويليش. ديانات الأرواح الوثنية. ت يوسف شلب الشام. دار المنارة. دمشق. 1988
(74) بورهارد برينتيس. نشوء الحضارات القديمة. ت: جبرائيل كباس. دار الأبجدية. دمشق. 1989
(75) فرويليش. مرجع سابق.
(76) المرجع السابق.
(77) المرجع السابق.

(78) جاك كوفان. الألوهية والزراعة. ت: موسى خوري. وزارة الثقافة. دمشق. 1999

(79) المرجع السابق.

(80) برينتيس. مرجع سابق.

(81) ابلا. مجموعة باحثين. ت: قاسم طوير. دار يعرب. دمشق. 1984

(82) برينتيس. مرجع سابق.

(83) د. نائل حنون. عقائد مابعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة. وزارة الثقافة. بغداد. 1985

(84) يونغ. مرجع سابق.

(85) باعتقادنا، أن عقائد الموت وشعائره تتطلب حين دراستها، عدم الخلط بين الحقيقه التاريخية الموثقة، في الكتابات المسمارية وغيرها. وبين الأساطير والتي يناقشها البعض، وكأنها أحداث حقيقية. فالمعلوم أن الأساطير على أنواعها، هي ضرب من التصورات والتخيلات، لرموز وآلهة، والرمز بشكل عام، هو تصور مشحون بالانفعال، وبذا فلا يمكن تحقيق الغرض العلمي في بحثنا، اذا خلطنا الوقائع التاريخية المعاشة، مع التصورات والتخيلات الأسطورية. وربما يحتاج هذا، لبحث في الموت في الأسطورة لوحده، أو محاولة اجراء مقاربة للموت بين الوقائع التاريخية المعاشة، في مقابل الموت في الأساطير.

(86) طه باقر. ملحمة جلجامش. بغداد. 1962 وزارة الارشاد.

(87) ايفا شترومينغر. حبوبة. وزارة الثقافة. دمشق. 1984

(88) د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية. وزارة الثقافة. 1988 ــ دمشق

(89) حنون. مرجع سابق.

(90) برينتيس. مرجع سابق.

(91) الحوليات الأثرية السورية. 34 ــ 1983

(92) أندريه بارو. ماري. وزارة الثقافة. دمشق. 1979. ت: رباح نفاخ.

(93) حنون. مرجع سابق.

(94) المرجع السابق نفسه.

(95) المرجع السابق نفسه.
(96) المرجع السابق نفسه.
(97) المرجع السابق نفسه.
(98) المرجع السابق نفسه.
(99) المرجع السابق نفسه.
(100) المرجع السابق نفسه.
(101) المرجع السابق نفسه.
(102) المرجع السابق نفسه.
(103) أندريه بارو. سومر. ت: سليم التكريتي ــ عيسى سلمان. بغداد. وزارة الثقافة. 1978.
(104) حنون. مرجع سابق.
(105) المرجع السابق.
(106) المرجع السابق.
(107) الحوليات الأثرية السورية. مجلد 33 ــ 1983
(108) بارو. مرجع سابق.
(109) الحوليات الأثرية السورية. مجلد. 29 ــ 1979/30 ــ 1980
(110) ابلا. مرجع سابق.
(111) المرجع السابق.
(112) المرجع السابق.
(113) الحوليات. 92 ــ 30. مرجع سابق.
(114) المرجع السابق.
(115) المرجع السابق.
(116) برينتيس. مرجع سالق.
(117) حنون. مرجع سابق.
(118) المرجع السابق.
(119) د. علي أبو عساف. الآراميون. دار الأماني. 1988
(120) المرجع السابق.
(121) المرجع السابق.

(122) مجلة البناء اللبنانية. حوار مع غابرييلا ماتييه. 1989/10/21.

مراجع البحث الأخرى

- د. سلطان محيسن. المزارعون الأوائل. دار الأبجدية. 1994
- سيغموند فرويد. الطوطم والتابو. ت: بوعلي ياسين. دار الحوار. سورية. 1985
- بيتر فارب. بنو الإنسان. ت: زهير الكرمي. عالم المعرفة. 1983/67. الكويت.
- أشلي مونتاغيو. البدائية. ت: جابر عصفور. عالم المعرفة. 1982/53. الكويت.
- جاك كوفان. ديانات العصر الحجري الحديث. ت: سلطان محيسن. دار دمشق. 1989
- ايف كوبنز. افريقيا وقصة الإنسان. ت: سلطان محيسن. دار شمأل. دمشق. 1996
- الميثولوجيا ونشوء المعتقدات القديمة. مجموعة باحثين. ت: حسان اسحق. الأبجدية. 1993.
- د. خالد ـ أبو غنيمة. أساليب الدفن في العصور الحجرية. دراسة. جامعة اليرموك.
- Exposition syro - éuropeenne d’archéologie - Paris 1996.
- Syrie terre de civilisations .1999 .quebec.
- انطون مورتكات. تموز. ت: توفيق سليمان. دار المجد. سورية 1985.

ملحق الدراسة الثالثة

- بناء تدمر بين المرويات التوراتية والمعطيات العلمية التاريخية الآثارية.
- مجلة البناء اللبنانية. العدد 835 ــ تاريخ 1992/5/9 والعدد 836 ــ تاريخ 1992/5/16.

بين ما تطرحه المرويات التاريخية «الميعادية» من تلفيقات وتهويمات /استند عليها الاستشراق الغربي في بداياته، ومازالت مفاعيله تظهر بين الحين والآخر/. وما تطرحه الحقائق العلمية المستندة على المعطيات الآثارية، تتكشف لنا عدة نقاط أهمها: أن التوراة لم يعد كتاباً «تاريخياً» له الاعتبار في دراسة تاريخ «المشرق العربي»، بالإضافة إلى أن ما كشفته الحفريات الأثرية في هذا المشرق، حجّم إلى حد كبير «التوراة»، وجعله كتاباً قصصياً يخلو من الموضوعية والعلم في مجال التاريخ.

واستناداً على هذه الحقائق، أجرينا سبراً للآراء لعدد من الباحثين السوريين والعرب والأجانب، منطلقين من سؤال هو: «ورد في التوراة.. /في سفر أخبار الأيام الأول وسفر الملوك الثاني/ أن سليمان بنى تدمر في البرية». إلى أي حد يعتبر هذا القول «الزعم» حقيقة موضوعية وتاريخية تسندها المعطيات الآثارية؟

وكانت الإجابات في معظمها ــ كما سنقرأ ــ ترفض هذا الطرح، خلا بعض الآراء لباحثين أجانب يبدو أنهم تحسسوا من السؤال!! فجاءت إجاباتهم مبهمة!. ومنهم من رفض الإجابة لأنها ليست من اختصاصه /مع انه يحمل درجة البروفيسور!/.

أما **النقطة الثانية** والتي خشينا أن توصلنا بعض الإجابات اليها، فهو اتفاق عدد لابأس به من الباحثين على أن المقصود بالمدينة هو: تمار /تامار/، في فلسطين، وليس تدمر في بادية الشام، وهنا تدخلنا لعدم

الانجرار نحو إنكار بناء سليمان لتدمر، مقابل إثبات بنائه لتمار التي لم تثبت المعطيات الآثارية في فلسطين على أنه بناها، ناهيك عن عدم العثور عليها حتى الآن.

والنقطة الثالثة التي لابد من طرحها استناداً على نتائج هذا السبر، هو مايخص إجابات الباحثين والعلماء السوريين فالرفض لهذه المقولة اتفقوا عليه، لكن الوصول إلى هذا الرفض كان ــ إلى حد ما ــ مختلفاً عبر البراهين والأدلة، ومع هذا نرجو من خلال هذا السبر أن نقدم «مادة غنية» للحوار والبحث الجدي، تؤدي إلى إنهاء دور التوراة التاريخي الذي حكم تاريخنا وقراءته لفترة ليست بالقصيرة.

السؤال

(ورد في التوراة /في سفر أخبار الأيام الثاني وسفر الملوك الأول/ أن سليمان بنى تدمر في البرية إلى أي حد يشكل هذا القول /الزعم/، حقيقة موضوعية وعلمية تسندها المعطيات الآثارية؟

الإجــابـــات

☆ **الدكتور ألبير نقاش ـ لبنان:**

لن أجيب مباشرة عن هذا السؤال، بل سأطرح مشكلة ثانية، حيث جرت هناك أبحاث أثرية في فلسطين منذ 150 سنة، وتمت على كل مساحة فلسطين، ولكن منذ عشر سنوات طرح تساؤل عندما اكتشفوا وجود شواهد أثرية عن وجود حضاري لمجتمعات ولظواهر سياسية مختلفة، ما عدا الفترة التي تسمى عادة بالمملكة الموحدة، أي مملكة داوود وسليمان بمعنى آخر، لدينا ثوابت أثرية آشورية ومصرية لوجود دولة إسرائيل ودولة يهوذا، ولكن حتى القرن العاشر قبل الميلاد التي هي فترة الدولة الموحدة، لم يستطع الآثار يون أن يكتشفوا أي دليل عن وجود هذه المملكة.

ومن ناحية ثانية تقول النظريات الحديثة أن كتابة التوراة بدأت في القرن الرابع قبل الميلاد، واكتملت في القرن العاشر الميلادي. أي بعد 600 سنة من عهد داوود وسليمان. فالاستنتاج الحالي أن داوود وسليمان

هما أسطورة شائعة، ليس فقط عند اليهود بل في كل الديانات السماوية، حتى في عمان هناك جبل اسمه جبل سليمان وثمة ظن أن سليمان قد بناه!! وسليمان أصبح شخصاً أسطورياً في كل المنطقة وقد ورد ذكره في القرآن أيضاً.

☆ **الأستاذ الدكتور محمد محفل ـ سورية:**

الكل يعرف بأن الأمر قد تم، أو وقع التباس بين تدمر ومدينة تامارا التي تقع في فلسطين. وليست في بادية الشام. ولا علاقة لتدمر من قريب ولا بعيد بسليمان ولا بجنّ سليمان. وأساساً لم يكن الطراز الذي بنيت فيه تدمر سائداً في أيام سليمان. بعض الأعمدة التي نجدها من الطراز الكورنثي نحن نعلم بأنها جاءت متأخرة بعد عصر سليمان بعدة قرون، ولم تكن حتى موجودة في المنطقة. إضافة لذلك نحن لا نعرف أنه إذا كان سليمان فعلاً، قد تمدد في أوج مملكته أو وسع حدوده ليصل إلى جزء من بادية الشام.

الخطأ وقع عندما نسب النابغة الذبياني إلى سليمان وجنّه بناء تدمر. وطبعاً أنت تعرف أن الإخباريين العرب، ولا أقول المؤرخين لا يمكننا أن نعتمد عليهم كثيراً فيما يتعلق بالتاريخ القديم ولا سيما أن أخبار اليمن القريبة منهم تتراوح بين الأسطورة والرواية، فكيف بمنطقة بعيدة عنهم. أقصد تدمر في البادية الشامية.

☆ **الأستاذ الدكتور علي أبو عساف ـ سورية:**

هذه العبارة حشيت فيما بعد في التوراة، وليس لها أي أساس من الصحة. ويبدو أن هناك بعض التوراتين الذين أرادوا نسب تدمر باعتبارها مدينة مدهشة وعجيبة إلى سليمان باعتبار أن الأمور العجائبية قد ألصقت به.

☆ **البرفيسور تاكويا إيزومي ـ اليابان:**

أنا لا أستطيع أن أجيبك.. لا أستطيع! فاليابانيون لا يعرفون بالضبط ما هي المشكلة لذلك صعب علي أن أجيبك.

☆ الدكتور هورست كلينفل ـ ألمانيا:

هذه العبارة وردت في سفر الأخبار بعد300 سنة للميلاد. وفي ذلك الوقت كانت تدمر مدينة عظيمة ومزدهرة وشهيرة. الكلمة في التوراة ليست تدمر وإنما تامار في فلسطين وبما أن تامار كانت مدينة بسيطة فقد حوروا التسمية إلى تدمر لأنها كانت مزدهرة وكبيرة وعجيبة.

☆ الدكتور شوقي شعث ـ فلسطين / سورية:

ليس لهذه الرواية أي سند تاريخي وإنما هي من روايات المؤرخين اللذين يتحدثون بدون دقة في هذا الموضوع.

☆ الأستاذ خالد الأسعد:

ما ورد في التوراة لا أساس له من الصحة، فالتوراة نزلت على موسى في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولم تسجل بشكل رسمي قبل القرن الثالث قبل الميلاد. هناك انقطاع لأكثر من ألف سنة. وعندما حاولوا كتابتها من جديد حاولوا أن يدخلوا كل الأماكن المهمة والمتطورة والعجيبة، ضمن الجغرافية التوراتية. وبما أن التوراة نزلت في منطقتنا، وبما أن موسى مصري وأحداث التوراة ليست بعيدة عن أرضنا، فإن كلمة تدمر اختلطت مع كلمة تامار الموجودة في فلسطين أو في شمال الحجاز. وحتى الآن لم يعثر لتامار على أي أثر. فليس هناك أية صحة للخلط بين تدمر وتامار. فاليهود حاولوا أن ينسبوا إلى أنفسهم ــ كالعادة ــ كل شيء عظيم وكبير. وحين قال النابغة الذبياني في شعره أن سليمان قد بنى تدمر، فهذا لا يعدو كونه نظرة بدوي في الصحراء. والتدمريون القدامى يقولون في كتاباتهم، أن تدمر هي بعد سليمان بألف سنة ولا علاقة لسليمان بها. وحسب ما نقرأه من الكتابات الجديدة عبر المكتشفات الحديثة، فليس لدينا أي كتابة في تدمر تعود إلى أكثر من القرن الأول قبل الميلاد. والأبنية التي تنسب إلى الأسطورة لا تزال قائمة وأسماء أصحابها الذين أقاموها منقوشة على الحجر وكلها أسماء تدمرية فلا صحة لهذا الزعم.

☆ الدكتور انطون سليمان ـ سورية:

هذا سؤال تعجيزي ولن أجاوبك!!

☆ الأستاذ خالد الدايل ـ السعودية:

لا أستطيع ان أجيبك فأنا من السعودية!!

☆ الدكتورة هيلغا زيدن:

لا.. لا.. هذا ليس صحيحاً.

☆ الأستاذ الدكتور جورج تات ـ فرنسا:

لا توجد أية معطيات أثرية تؤكد هذا القول.

☆ الدكتورة منتهى صاغية ـ لبنان:

هذا خطأ علمي، وبالمناسبة هناك عالم فرنسي ألقى محاضرة ونفى هذا الشيء، وكذلك العالم كلينفل. هناك التباس تاريخي بين كلمة تدمر وكلمة أخرى تشبهها تقع في فلسطين. ولا أظن أن هناك علاقة بين سليمان وإنشاء تدمر. أما عن وجود مدينة تامار كحقيقة أثرية فهذا يحتاج لشرح طويل والسؤال عنه صعب كثيراً في الوقت الحاضر.

☆ الأستاذ الدكتور محمد حرب فرزات ـ سورية:

لا يوجد أي إثبات موضوعي، أو أية وثيقة تاريخية، تؤيد مثل هذه الأخبار التي لها صفة أسطورية مما هو في كتابات توراتية خاصة بتقاليد مجتمع من المجتمعات القديمة. فالباحثون العلميون والآثاريون ودارسو التاريخ لهذه المنطقة الذين نعرفهم، لا يأخذون هذا الموضوع بأي اعتبار نهائياً. ولا نجده في أي مرجع من المراجع العلمية، وعن ما يشار إليه فإنما هو على سبيل الإشارة لما يروى من ثقافة الذين كانوا يتحدثون بالأمور التاريخية حول هذا الموضوع قبل الاكتشافات الأثرية الحديثة المتعلقة بتدمر. البحث الآن مبني على النصوص وعلى الشواهد التاريخية، وعلى الأدلة وعلى اللغة وهذا شيء بعيد تماماً عما ذكر في الأسفار التوراتية حول بناء سليمان لتدمر. فهذا الكلام ليس له أي سند.

☆ الأستاذ الدكتور عدنان البني ـ سورية:

الحقيقة أن تدمر الواردة في التوراة هي تامار الواقعة على حدود فلسطين وليس لها علاقة بتدمر. وكل المباني الموجودة الآن في تدمر هي بعد سليمان بـــ 1200 سنة فلا علاقة له بها، وهذا تحريف جرى حين إعادة طبع التوراة حيث حرفوا تامار إلى تدمر. وفي شعر لنابغة الذبياني ورد هذا الشيء لأن البدو كانوا يظنون أن كل بناء عظيم هو من بناء جن سليمان.

☆ الدكتور فوزي زيادين ـ الأردن:

الاسرائيليون تاهوا في سيناء وأتاهوا الناس في التاريخ وفي متاهات التاريخ.

إن رواية بناء سليمان لتدمر تتلخص فيما يلي: كانت تدمر مشهورة في الوقت الذي كانوا يكتبون ـــ أي اليهود ـــ فيه التوراة، فأضافوا إلى تمر حرف الدال حيث أن في العبرية ليس هناك حركات، فصارت تدمر عوضاً عن تامار أو تمر. ولم يضيفوا هذا الحرف لتصبح تدمر، إلا من أجل أن يصادروا تدمر لصالحهم. ولكن ليس هناك أي علاقة لسليمان بتدمر وإنما بتامار الموجودة في صحراء النقب. أما عن دليل وجود مدينة تامار فهذا معروف في تاريخ فلسطين حيث بنى سليمان خمس مدن في جنوب فلسطين منها تامار. فسليمان لم يبنِ تدمر وهذه خرافة إسرائيلية متأخرة طبعاً.

☆ البروفيسور جان ماري لوتنسورير ـ سويسرا:

أنا مهتم جداً بما قبل التاريخ لهذا لا أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال ـــ هذا أكيد أن تدمر بنيت في الصحراء.. وهذا نقطة بداية ثم صارت مركزاً للقوافل. أنا شخصياً لا أملك المعلومات الكافية لإجابتك لأني لا أعمل في المدينة نفسها.

☆ البرفيسور كوين لوتشلينكو ـ روسيا:

هذا الموضوع ليس موضوعي فاختصاصي هو في حضارات وسط آسيا وأنا جئت لأرى تأثير البارثيين على تدمر. أنا آسف.

☆ **الأستاذ نسيب الصليبي ـ سورية:**

ليست هذه سوى أقاويل، وإن الحفريات الأثرية التي جرت في تدمر أثبتت ذلك. فالتدمريون كانوا معماريين وفنانين مهرة حتى تمكنوا من بناء هذا الصرح الحضاري الكبير. ولكن قول إن سليمان وجنّه بنوا تدمر فليس هذا سوى أقاويل.. فالذي بنى تدمر، بناها من الفترة من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى الفترة التي هاجم فيها أورليان تدمر عام 273 م ودمرها.

☆ **الدكتورة يسرى الكجك ـ سورية:**

لا يمكننا الربط فعلياً بين الأمور التي وردت التوراة وبين علم الآثار. لأن التوراة كتبت وعدلت وأعيدت كتابتها وفق مقتضيات وحاجات الشعب الذي تهمه هذه الكتابات، الآثار حقيقة وواقع وليس هناك أي رابط حتى بين المقولات التاريخية وبين الآثار. والأثر لا يستطيع أحد أن ينفيه، أما المرحلة التي كان يقال فيها أن التوراة قال كذا والمؤرخون يقولون كذا.. بحيث يتوجه كل واحد بحسب توجهاته السياسية والاجتماعية فقد انتهت. فعلم التاريخ الحديث يعتمد على الآثار لهذا لا نستطيع أن نتحدث عن التوراة من خلال أن سليمان بنى تدمر، فاليهود لهم أهداف وأغراض حتى أكثر مما يتحدثون عنها. وهم يحاولون ذلك من أجل أن تكون لهم قواعد في «أرض الميعاد» التوراتية ليستطيعوا لم شمل اليهود في العالم. لهذا أقول لا رابط بين التاريخ والتوراة ولا بين الآثار والتاريخ القديم.

☆ **الدكتور بهجت قبيسي ـ سورية:**

قطعاً لا.. فالقرن الثالث الميلادي هو بداية نهوض تدمر المعماري، وسميت الأعجوبة، وكلمة الأعجوبة هي مدلول على شكلها فلا يمكن أن نسمي شيئاً أعجوبة قبل بنائه. لذلك نسب البعض بعد ذلك إلى جن سليمان وسليمان بناء تدمر ولا صحة لهذا الادعاء بتاتاً.

☆ **الأستاذ محمد وحيد خياطة ـ سورية:**

يجب أن نميز دائماً بين الخيال والواقع، بين الوهم والتاريخ. تاريخياً لم يثبت حتى الآن أن لسليمان لأية علاقة ببناء تدمر. وكل ما قيل عن هذه

العلاقة مجرد أوهام وتخيلات، لا علاقة لسليمان ولا لجنّه بها. وهذا محض خرافة ولا يمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة.

أما عن تامار في فلسطين فلقد بحثت كثيراً أن أجد لسليمان ذكر خارج أسفار التوراة فلم أجد له أي ذكر، حتى ولا لأبيه داوود. لا تاريخياً ولا أثرياً. واسم داوود ذكر في الكتابات البابلية وهو اسم يدل على زعيم عصابة أو متمردين، ولا صلة له بالملك داوود التوراتي، ولا يمت إلى سليمان بصلة كما تذكر ذلك أسفار التوراة. فلا صلة بين ما ذكر في التوراة مع المصادر التاريخية خارج أسفار التوراة.

☆ البروفيسور سليم عبد الحق ـ سورية:

من المعلوم أن تدمر بنيت اعتباراً من القرن الأول قبل الميلاد، وحتى منتصف القرن الثالث بعد الميلاد ومن المعلوم أن سليمان أتى قبل عشرة قرون أي في فاتحة الألف الأول قبل الميلاد. فكيف يمكننا تصديق هذا الخبر؟ هذا الخبر لا علاقة له بالحقيقة العلمية والتاريخية.

☆ البروفيسور جان كلود مارغرون ـ فرنسا:

صدر مؤخراً كتاب حول تدمر ويبدو أنه قد درس هذا الموضوع بكثير من الجدية.

☆ البروفيسور ميشيل غافليكوفسكي ـ بولونيا:

ليست هناك أية علاقة.. أية علاقة بين سليمان وتدمر، ولا يوجد أي اتصال.. أي اتصال تاريخي وواقعي بينهما. ولا يوجد سوى الرواية أو الأسطورة. ففي القرون الوسطى كان كل شيء كبير وضخم ومدهش مرتبط بسليمان هنا. حيث نسي الناس في تلك المرحلة تاريخ هذه المدينة.. وهذا ليس فقط في تدمر بل في مدن أخرى. وبكل الأحوال هذه ليست حقيقة تاريخية مطلقاً. على كل في الفترة التي كان فيها سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد كانت تدمر موجودة على شكل قرية صغيرة. وهذا الملك الذي كان يعيش بعيداً، لا أرى أي داعٍ يدفعه للمجيء إلى هنا.. ولا أعتقد أنه كان لديه ما يثير الاهتمام ليأتي إلى تدمر.

☆ **الدكتور جودت شحادة ـ سورية:**

ما قصده التوراة هل هو تدمر في بلاد كنعان /فلسطين/ ام تدمر في بلاد فارس؟ أشك أن سليمان بنى تدمر هذه.

☆ **الأستاذ حميدو حمادة ـ سورية:**

في الواقع إن تدمر ذكرت قبل سليمان، ذكرت في النصوص الكبادوكية الآشورية التي تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وهذا قبل سليمان، فسليمان لم يبنِ تدمر ومملكة سليمان هي مملكة صغيرة وأعطيت حجما كبيراً لأغراض ربما تكون سياسية، تدمر ذكرت أيضاً في نصوص ماري ولكنها ازدهرت في القرن الأول والثاني بعد الميلاد ازدهاراً كبيراً، بسبب التجارة ووقوعها على طريق القوافل، أما أن سليمان بنى تدمر فهذا أمر من قبيل الخرافة.

☆ **الدكتور فرانسوا فيلنوف ـ فرنسا:**

هذا يتعلق بتاريخ كتابة النصوص التوراتية لأنه لا يتعلق بالواقع الذي نراه، خاصة فيما يتعلق بالتنقيبات الأثرية. من الممكن أن هذا يعود إلى تحويرات أجريت أثناء إعادة تدوين التوراة المتكرر، مما ادى إلى تغييرات في اسم المدينة. فحسب التنقيبات يبدو أنه لم يكن هناك سكن في هذه المنطقة في القرن العاشر قبل الميلاد ـــ زمن سليمان.

يجب اعادة النظر، بأن تدمر، هل هي هذه المقصودة في التوراة؟ نحن الآن نظن بأن الأمر يتعلق بمدينة أخرى موجودة في فلسطين وهي تامار.

☆ **البروفيسور نقولا زيادة ـ لبنان:**

دوماً الأشياء الغريبة والعجيبة تنسب لواحد كبير.. تدمر عجيبة وغريبة فيجب ان تنسب لواحد كبير. مثلاً خزانة فرعون في البتراء لا علاقة لها بفرعون لماذا سميت كذلك؟. فالناس حين تجد مثل هذه الخزنة المحفورة بالصخر فلا بد أن تعزوها لواحد كبير، ومن كان في تلك الفترة أكبر اسم.. إنه فرعون.. وهكذا.. وهذا ينسحب على تدمر ولا بد أن يكون من بناها واحد عجيب وكبير له قدرات خاصة واستثنائية. فسليمان عنده

جن وبيحكي معهم.. فتدمر التي وسط الصحراء يجب أن يبنيها ويرفع هذه الأعمدة فيها هذا الكبير، وسليمان هو شيخ الجن فإذن يأتي النابغة الذبياني ويطرقه ببيتين شعر.. وهكذا لزقت تدمر بسليمان. ومشيت هذه الحكاية مثل ما بتمشي قصة «جيمس بوند». فبحسب رواية التوراة ــ وهذا ليس تاريخياً ــ هذا القول لا يمت للحقيقة العلمية وغير العلمية بصلة، وهو يعود للفكرة الأصلية أن الناس لما وجدوا هذه الأبنية الضخمة أرادوا أن يفسروا بناءها في هذا المكان.

☆ من هم الناس؟

أي ناس، ممكن يكونوا بدو الجاهلية، ويمكن قبلهم، لأن سليمان كان معتبراً عندهم شيء مهم، واختيار سليمان ناتج عن قصة متداولة بين الناس من أن له قدرات خارقة وسيطرة على الجن.

أليست لها خلفية سياسية ــ توراتية؟

يجوز أن يكون لها خلفية.. ولكن أسطورية، اترك لي التوراتية.. بدها تكون خلفية أسطورية.. لو ما في أسطورة حولها «ما كانت اجت».

☆ الأستاذ الدكتور فيصل عبد الله ـ سورية:

أنا لا أجرؤ حتى ذكر هذا السؤال، لأنه قد يثبت لدى القارئ معلومة، وهي أن سليمان له يد في بناء تدمر. فالتاريخ والآثار شيء، والروايات التي مصدرها الكتب الدينية شيء آخر. كل الحفريات في تدمر لا تدل على أي شيء من هذا القبيل، وكل المعلومات التي وردت في التوراة، والتي تتعلق بالمدن حتى وهيكل سليمان ومملكته، تحتاج إلى إثبات من خارج التوراة، ولذلك كل هذا يبقى من باب الرواية الدينية التي تحتاج إلى تصديق من قبل شواهد أخرى من خارج التوراة وهذا ينطبق على كل ما جاء في التوراة، ونحن لا نقيم وزناً في مجال البحث العلمي، أو في مجال النقد التاريخي، لمثل هذه الأقوال إلا إذا توافرت الشواهد الأثرية.

☆ البروفيسور ديفيد غراف ـ الولايات المتحدة الاميركية:

لا أعرف أي شيء.. لا أعرف أي شيء عن هذه القصة!!

☆ **الدكتور عيد مرعي ـ سورية:**

هذا لا يتعلق بتدمر المدينة المعروفة في بادية الشام، والمقصود هو تامار المدينة الصغيرة التي تقع في شمال فلسطين. والتشابه اللفظي بين تدمر وتامار، هو الذي أوحى لبعض المؤرخين الذين اتوا فيما بعد أمثال يوسيفوس وغيره، إلى القول أن تدمر من بناء سليمان. يضاف إلى ذلك أن الحجارة الكبيرة والضخمة الموجودة حالياً، والتي يدل وجودها على قيام عمارة كبيرة، أوحى للبعض بأن بناءها يعود لجن سليمان كونه يتمتع بقدرات خارقة كما تذكره التوراة، ولكن الوثائق التاريخية تثبت عكس ذلك.

من ناحية أخرى فإن تاريخ مدينة تدمر يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، واقدم الوثائق التي تذكرها تعود إلى 1900 قبل الميلاد، فلو قارنا هذه الحقائق مع الخبر التوراتي الذي يقول أن سليمان بنى تدمر في القرن العاشر أو التاسع الميلادي، لوجدنا أن هناك تناقضاً واضحاً، فكيف يمكن أن يبني سليمان مدينة كانت موجودة قبله بآلاف السنين. لهذا فنسبة بناء تدمر إلى سليمان غير صحيحة وهو من الأخطاء الشائعة التي يتداولها الناس حالياً.

☆ **البروفيسور جان لوكلان ـ فرنسا:**

هذا صحيح ــ هكذا اعتبروا.. والسؤال ما هو تاريخ كتابة هذا النص؟ ربما هذا يحس! ولكن تاريخ تدوين هذا النص هو السؤال المطروح. وهذا ليس كما أعتقد من أجل رفض التوراة، ولكن الأمر ببساطة يتعلق بتاريخ كتابة هذا النص. على كل، الأبحاث حول تدمر ممكن أن تعود إلى 2000 ق. م وهذا نجده في المدونات الآشورية وماري وغيرها.. وهذا يفتح آفاقاً جديدة للمزيد من الدراسات. فالآثار الآن فقط ترينا تدمر في العصر الروماني وفي عصر زنوبيا. ولا نعرف أن هناك أموراً تتعلق بمطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

☆ **البروفيسورة أنــا سادورسكا ـ بولونيا:**

هذه فكرة مغلوطة تماماً، ونحن لا نعلم كيف ركبّت وألفت. فسليمان

ليس له علاقة بتدمر. ولم يعمرها. وأعتقد أن الآرامية التي كتبت بها التوراة، قصدت مدينة «دامورا» أو «تادمور». وفي اللغات السامية، من الصعب أن تجد الاسم الدقيق. أما أين تقع تامورا فلا نعرف، ولكن دون شك هي ليست تدمر هذه. وتدمر لا علاقة لها بسليمان ومثل هذا نجده حين قيل أن المعبد الكبير في بعلبك بناه سليمان أيضاً.

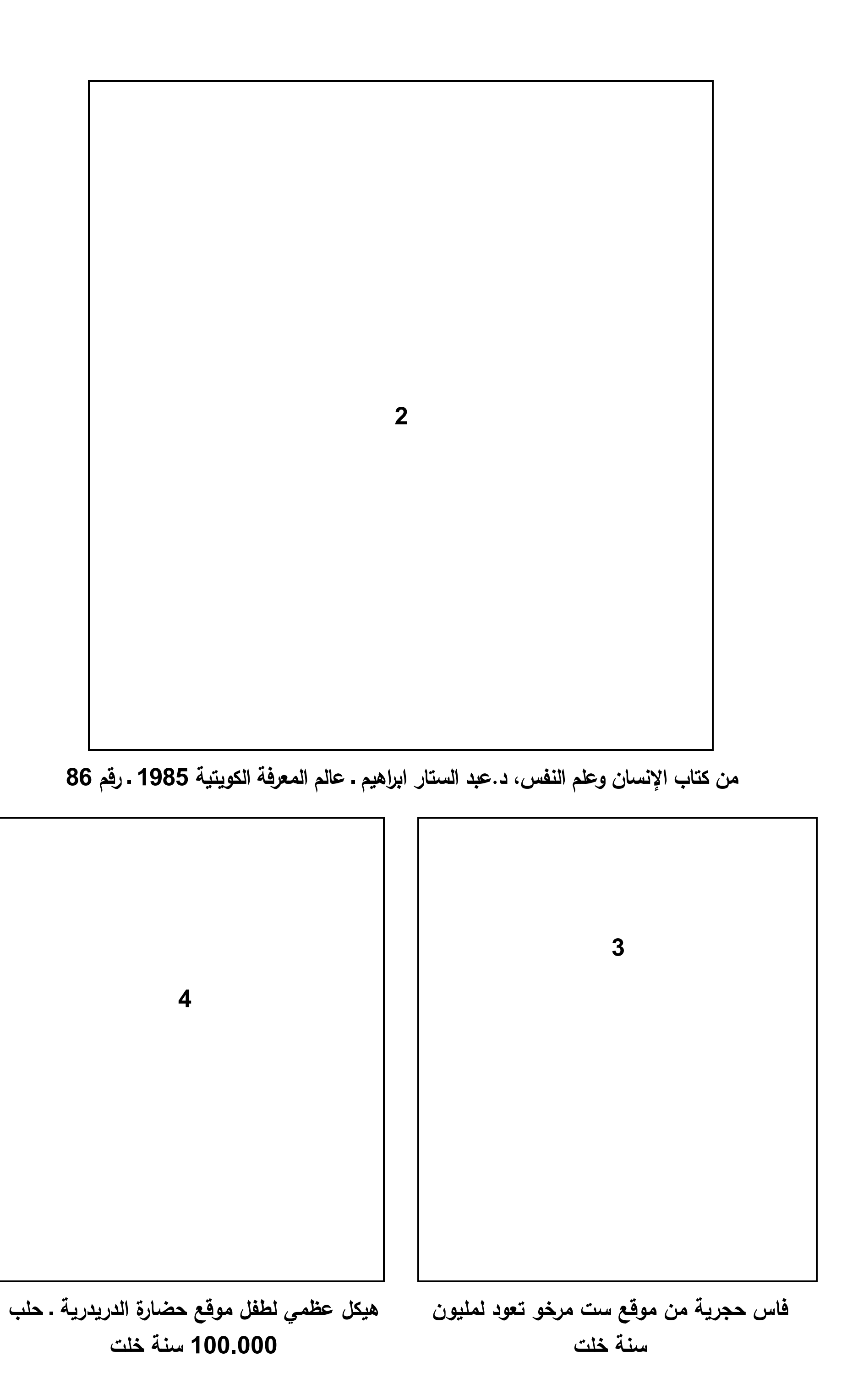
ملحق الصور

1

أهم مواقع العصر الحجري والحديث في المشرق

1ً

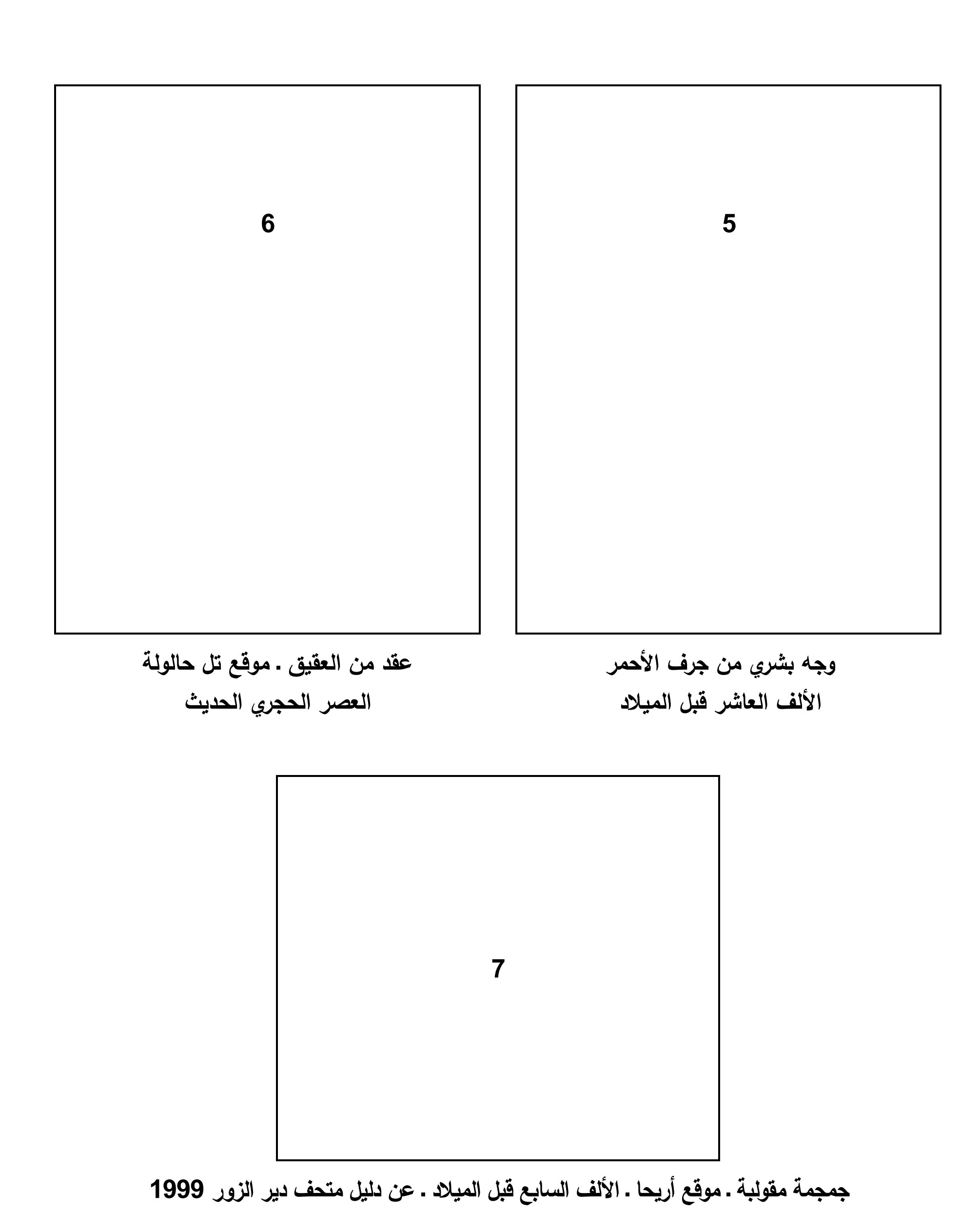
أهم مواقع العصر الحجري القديم في المشرق العربية . محمود سلطان عيسى 1989



من كتاب الإنسان وعلم النفس، د.عبد الستار ابراهيم . عالم المعرفة الكويتية 1985 . رقم 86

فاس حجرية من موقع ست مرخو تعود لمليون سنة خلت

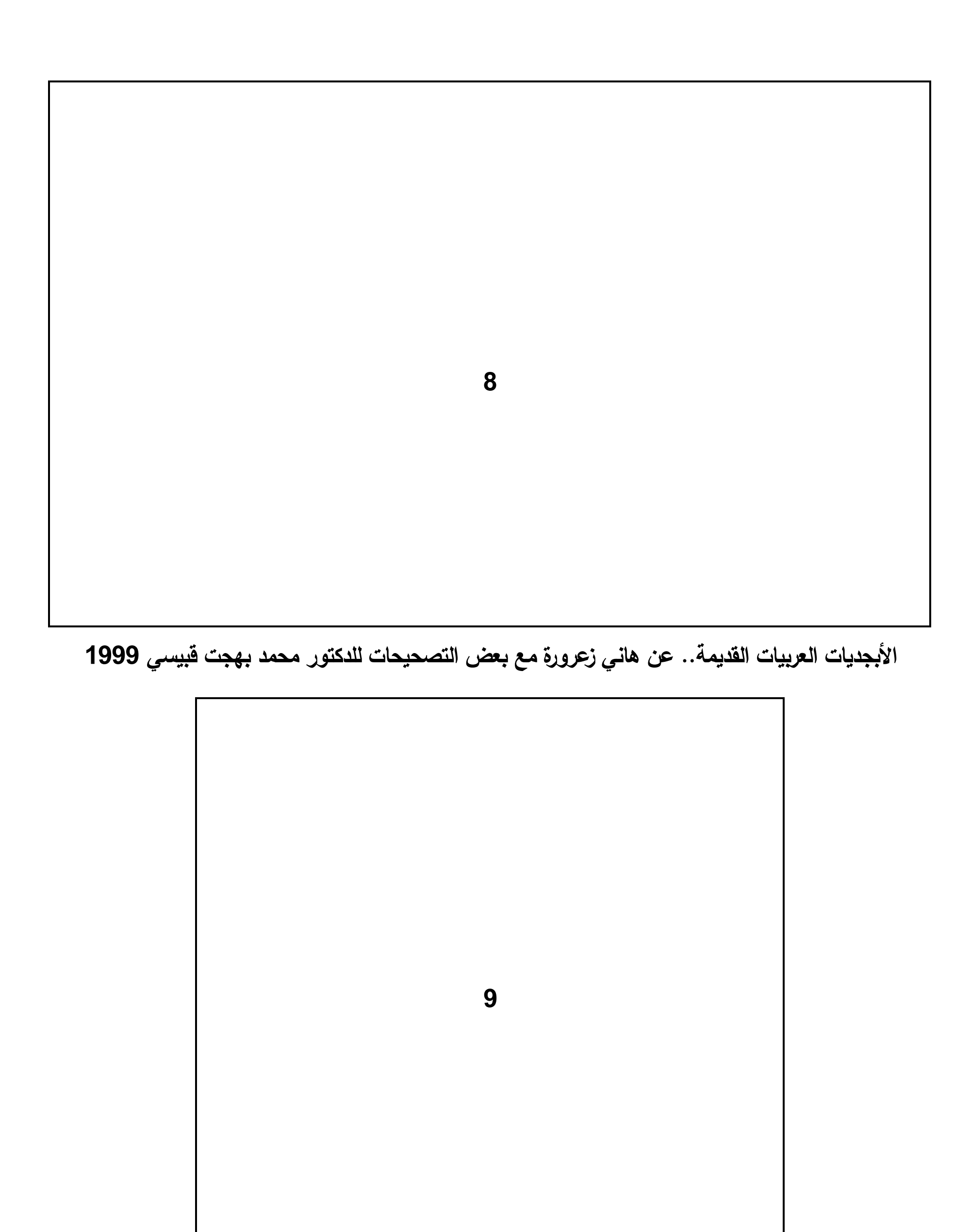
هيكل عظمي لطفل موقع حضارة الدريدرية . حلب 100.000 سنة خلت



وجه بشري من جرف الأحمر
الألف العاشر قبل الميلاد

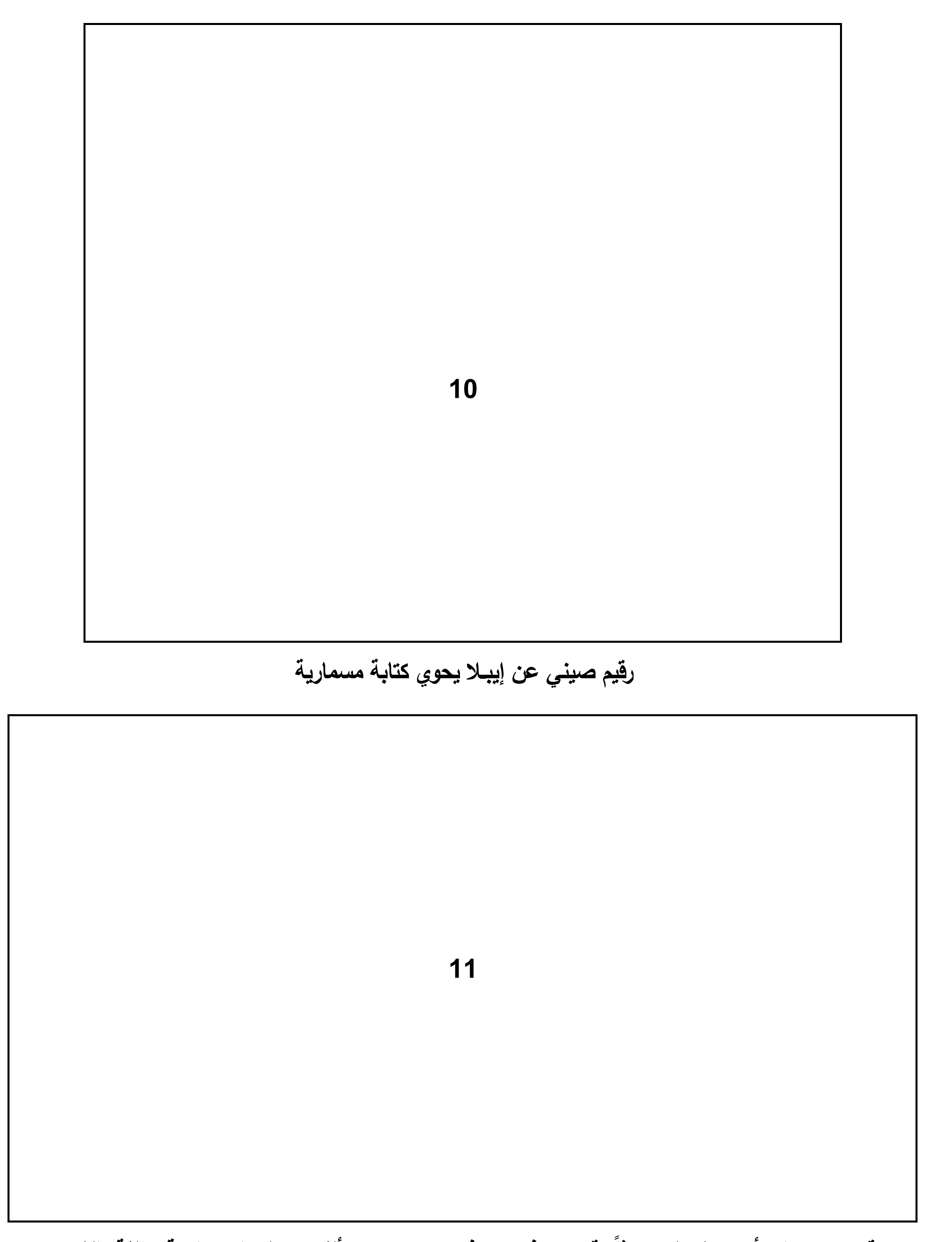
عقد من العقيق . موقع تل حالولة
العصر الحجري الحديث

جمجمة مقولبة . موقع أريحا . الألف السابع قبل الميلاد . عن دليل متحف دير الزور 1999



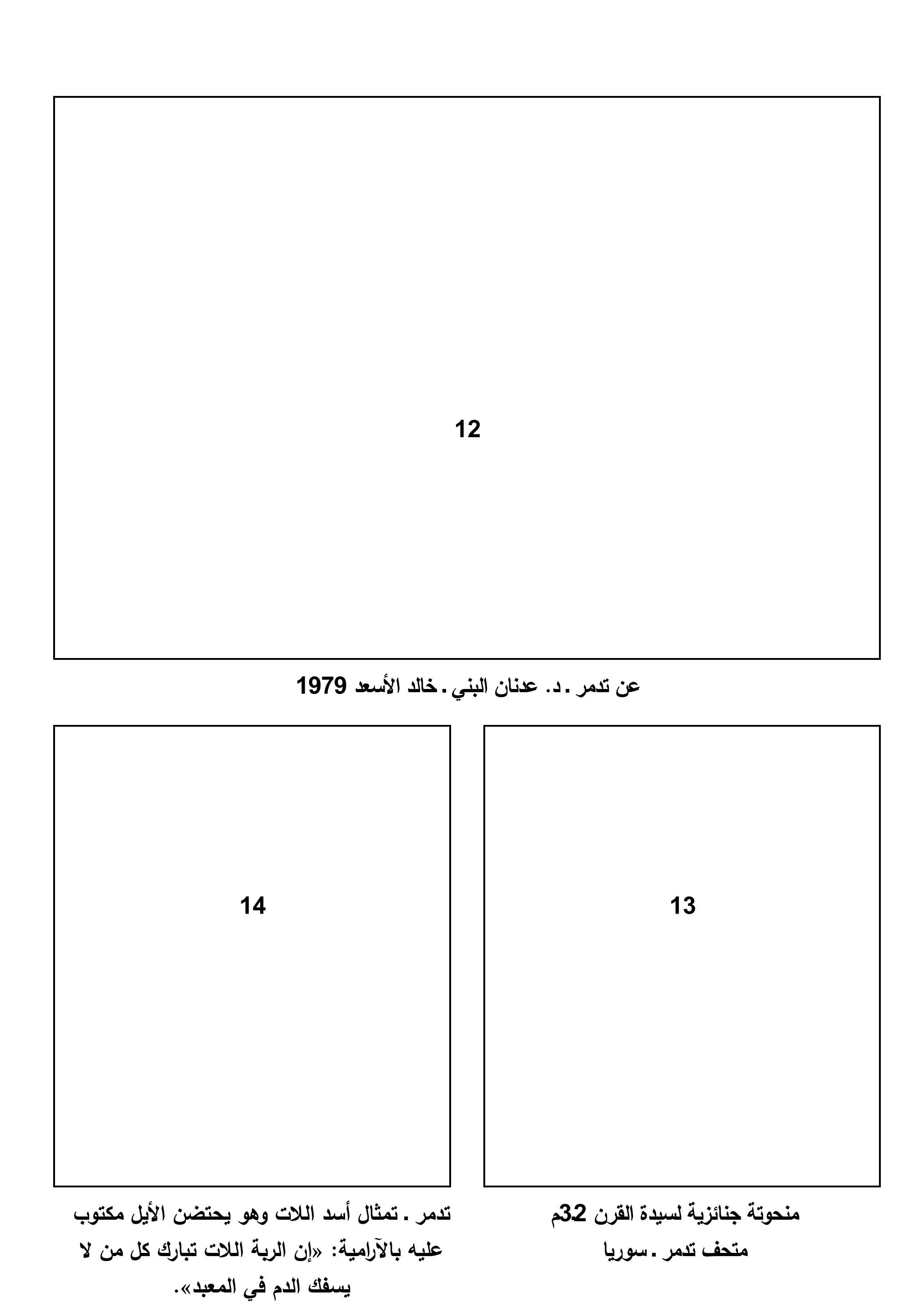
الأبجديات العربيات القديمة.. عن هاني زعرورة مع بعض التصحيحات للدكتور محمد بهجت قبيسي 1999

تطور الكتابة عبر العصور ـ عن د. سلطان محيسن 1994



رقيم صيني عن إيبـلا يحوي كتابة مسمارية

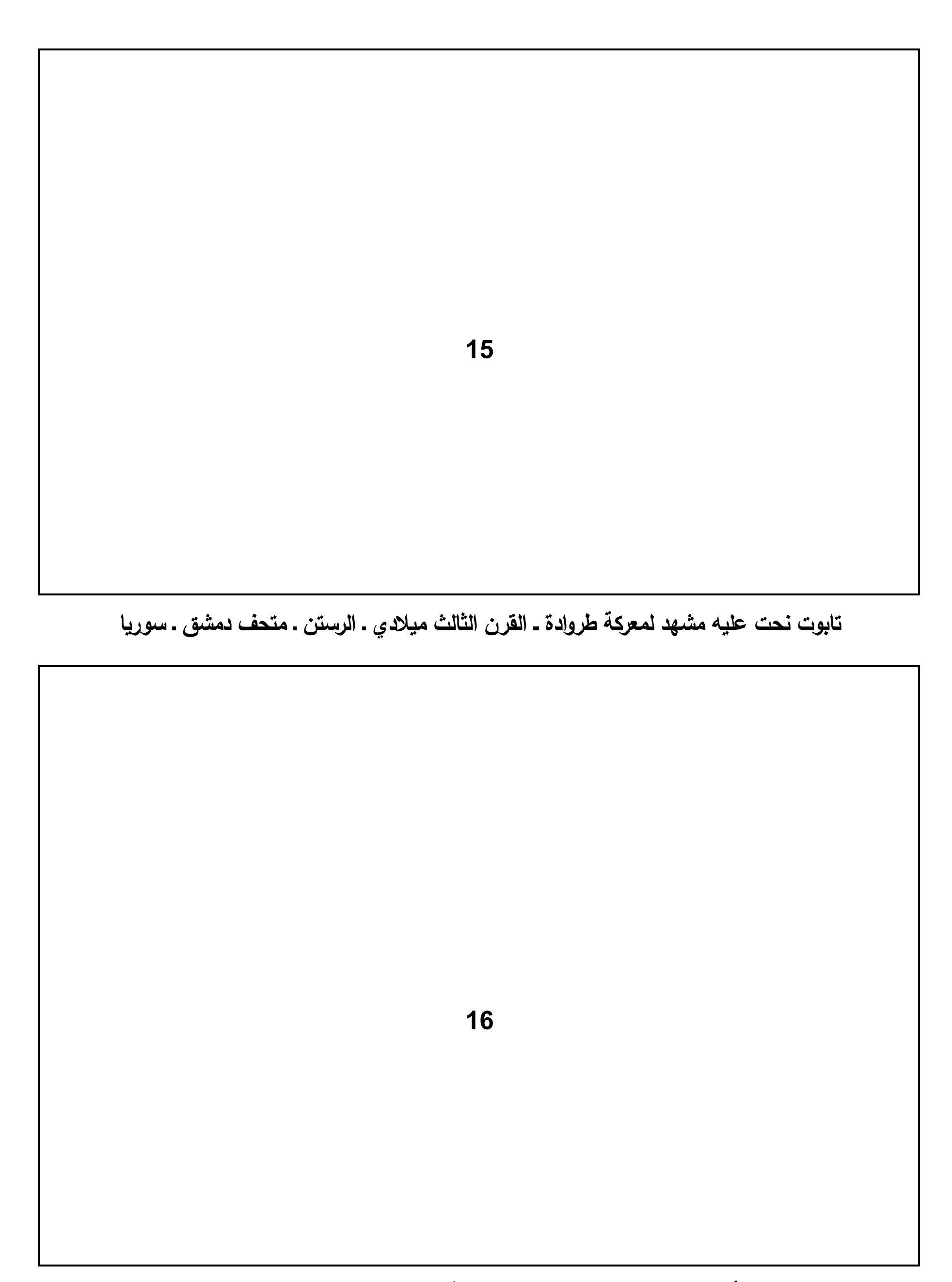
قسم من كتاب أعيد تشكيله حديثاً وقد وجد في بئر في نمرود وهو يتألف من لوحات عاجية مغلفة بالشمع ومزودة بمفاصل من أجل تحريك صفحاته. ولقد أعطي الشمع لوناً قاتماً لجعل القراءة أكثر سهولة. أبعاد كل لوح: (33.8×15.6) سم. (عن مالوان، 1966). عن آثار بلاد الرافدين 1993



عن تدمر . د. عدنان البني . خالد الأسعد 1979

منحوتة جنائزية لسيدة القرن 3.2م
متحف تدمر . سوريا

تدمر . تمثال أسد اللات وهو يحتضن الأيل مكتوب عليه بالآرامية: «إن الربة اللات تبارك كل من لا يسفك الدم في المعبد».



تابوت نحت عليه مشهد لمعركة طروادة ـ القرن الثالث ميلادي . الرستن . متحف دمشق . سوريا

نموذج طيني أثري يمثل البيت السوري القديم في الألف الثالث ق.م عثر عليه في ماري . سوريا
د. عفيف بهنسي 1987

17

أبجدية أوغاريت أول أبجدية في العالم
القرن 14 ق.م.
أوغاريت (رأس شمرا) متحف دمشق . سوريا

18

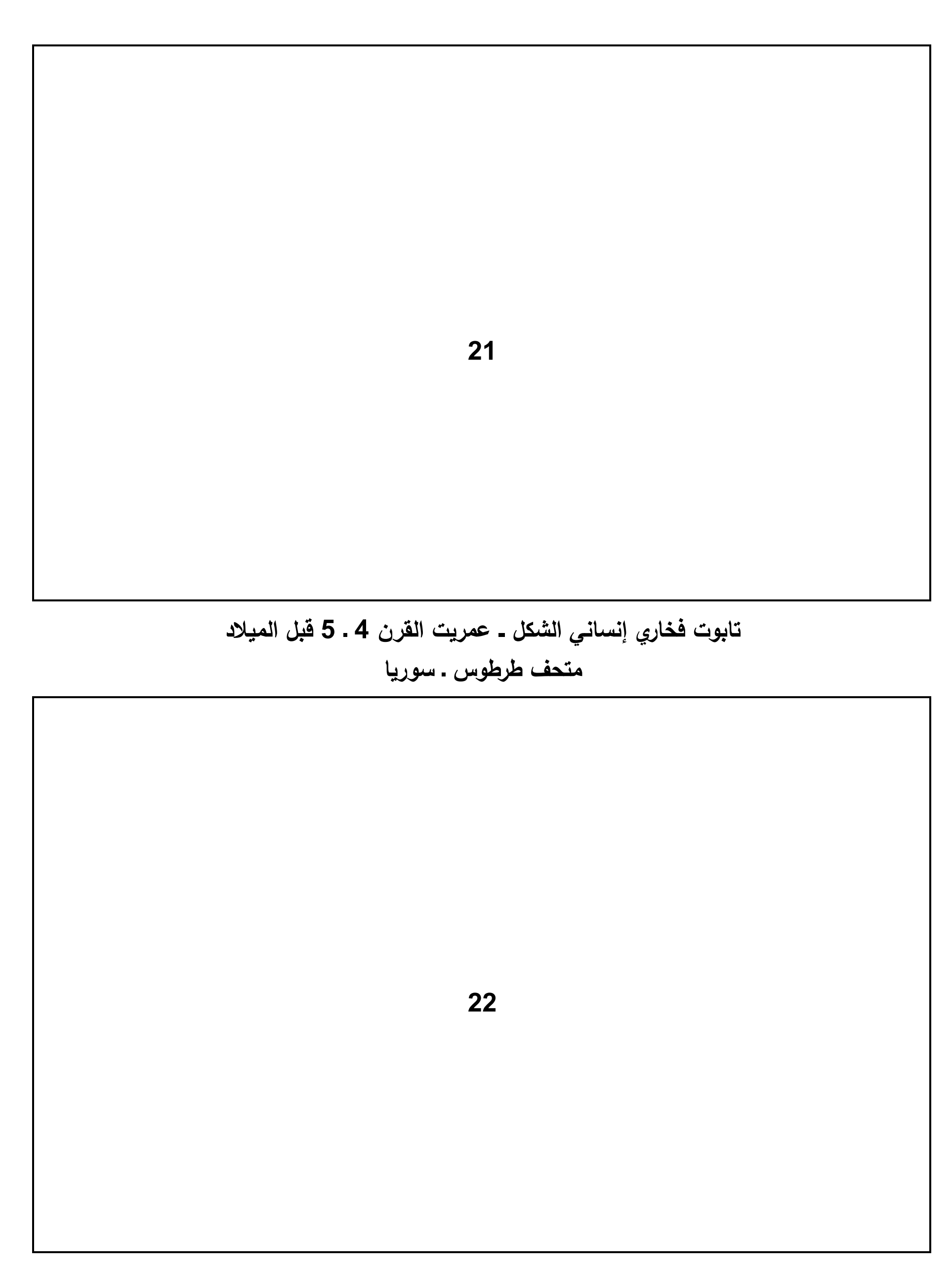
أبو الهول المجنح
القرن التاسع ق.م.
حداتو (أرسلان طاش) . متحدف حلب . سوريا

19

مدفن من الألف الثالث ق.م
يحوي هيكلين عظميين
لامرأتين تل أمر المرة

20

قبر إناء مزدوج
عن تل الشيخ حمد
100 . 200م عن دليل
متحف دير الزور 1999



تابوت فخاري إنساني الشكل ـ عمريت القرن 4 . 5 قبل الميلاد
متحف طرطوس . سوريا

تابوت رخامي إنساني الشكل . عمريت القرن 4 . 5 قبل الميلاد
متحف طرطوس . سوريا

الفهرس

☆ المقدمة 7

الدراسة الأولى

● مقدمة في نشوء حضارة المشرق العربي 13
● ثقافة الإنسان المنتصب في سورية 1000.000 ـ 100.000 سنة 20
● ثقافة مجتمعات النياندرتال في المشرق العربي القديم 100.000 ـ 40.000 سنة 24
● ثقافة المجتمعات العاقلة في المشرق العربي القديم 35.000 ـ 12.000 27
● التطور الثقافي ـ الحضاري من 12.000ـ8.000 ق.م 29
● ابتكار الزراعة: الألف التاسع قبل الميلاد 33
● دور الزراعة في نشوء الكتابة في طورها الابتدائي 44
● الهوامش 48
● مراجع البحث 51

الدراسة الثانية

● اختراع الكتابة في المشرق العربي القديم 53
● مراحل اختراع الكتابة 55
● الكتابة الأبجدية 59
● انتشار الأبجدية السورية 59
● تراثنا الكتابي واللغوي بين الاستشراق ومحاولات التهويد 63
● الاستشراق في دائرة الاتهام 46
● المدرسة التوراتية في الآثار والتاريخ وتراثنا الكتابي واللغوي 67
● الهوامش 74

الدراسة الثالثة

- مقاربة فكرية ـ تاريخية لروحية وخصائص حضارة المشرق العربي القديم نموذج تدمر 79
- البنية الديمغرافية في تدمر 84
- تدمر في عصر نشوء الممالك الكنعانية الأمورية الأولى 2000 ـ 1600 ق.م 86
- تدمر في العصر السلوقي 333 ـ 63 ق.م 89
- تدمر والامبراطورية الرومانية 63 ق.م ـ 273 م 92
- خطوط التجارة الدولية في عصر تدمر الذهبي 95
- ثقافة تدمر في القرون الميلادية الثلاثة الأولى 98
- اليهود وتدمر 102
- الصراع السياسي بين إمبراطوريات عالم القرون الميلادية الثلاثة الأولى 103
- تدمر وعصر الملوك التدامرة 106
- مصير زنوبيا 112
- الهوامش 115
- مراجع البحث 118

الدراسة الرابعة

- مقاربة فكرية تاريخية للبعد الإنساني في حضارة المشرق العربي القديم 119
- البعد الإنساني لحضارة المشرق العربي 40.000 ـ 3500 ق.م 123
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 3500 ـ 333 ق.م 126
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 333 ـ 69 ق.م 135
- المنجز الحضاري الإنساني المشرقي 69 ق.م 138
- إسهام السريان المشرقيون في الحضارة الإنسانية 144
- الهوامش 147
- المراجع 150

الدراسة الخامسة

- شعائر الموت ومعتقداته في المشرق العربي القديم 151
- النينانرتال المشرقي 100.000 ـ 40.000 ق.م 153
- الإنسان العاقل في المشرق العربي القديم 40.000 156
- مقاربة نفسية ـ أنثروبولوجية لظاهرة الأرواحية 160
- استنتاجات 162
- ظاهرة الموت ومعتقداته في العصور التاريخية 163
- شعائر الموت في إيبلا 170

- شعائر الموت في أوغاريت 172
- شعائر الموت عند الآراميين 174
- الهوامش 176
- المراجع 179
- ملحق الدراسة الثالثة 180